

كتابخه
التقاوى

أعلام التصوف الاسلامى

أحمد أبو كف

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك قصصى

الاسكندرية

كتابخه
التقاوى

أعلام التصوف الاسلامى

أحمد أبو كف

الغلاف :

الفنان : طلعت رزق

سكرتير التحرير التنفيذي :

نزيمه عبد الغنى



مؤسسة دار التعاون
للطباعة والنشر



رئيس مجلس الإدارة:

محمد رشاد

رئيس التحرير:

سعيد نور الدين

٦ شارع عبدالقادر حمزة - جاردن سيتي - القاهرة - تليفون ٣٥٤٣١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ... سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد ...

فقد احترت كثيرا في الكلمات التي اختارها ، تقديمها لهذه الباقة المباركة من الأولياء المؤمنين .. الذي تناولتهم صفحات هذا الكتاب . كما احترت أيضا فيما أضعه من عنوان لائق لهذا الكتاب . وكانت هذه الحيرة في تقديم الكتاب واختيار عنوانه .. بلا سبب . ربما يكون السبب .. جلال هؤلاء الرجال وشدة إعجابي بحياتهم .. بعد أن قضيت الوقت الكثير معهم .. باحثا متقبا ، قاطعا المسافات . أو ربما يكون السبب هو الخشية من ألا أنصفهم بكلمات قليلة في مقدمة قصيرة .. أو وضعهم بين دفتي غلاف كتاب لا يليق عنوانه بهم .

وربما يكون هذا أيضا .. نابعا من اقتناعي بأن الإنسان مهما حاول بذل الجهد - خاصة في هذه الظروف التي نعيشها - فإن هذا الجهد سيكون قاصرا في سبيل الوصول إلى الكمال لأن الكمال لله وحده .

هذه الشخصيات المباركة .. التي تقدمها بين دفتي هذا الكتاب كان لها من الأهمية ومن الاتباع بالملايين على مدار السنين وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وهي شخصيات تجمعها سمات واحدة تقريبا مع اختلاف العصور والظروف والأساليب . لكنها في واقع الأمر كلها نبعت من فيض غزير واحد ، واتجهت إلى هدف واحد .. هو الجهاد في سبيل الله ، وفي مرضاته . ونصرة دين الله .. على ضوء الكتاب والسنة .

وسبيل هذه الشخصيات الكريمة الى ذلك الجهاد ، ليس السيف أو البارود ، إنه جهاد بالعلم والتربية الاسلامية ، وتفقيه الناس في أمور دينهم وتنويرهم .. ثم رفع راية العمل ، والعمل المستمر في سبيل الانسان المسلم ووطنه الاسلامي . ونحن أمة الاسلام والمسلمين .. نمر في هذه الايام بظروف دقيقة ، تتشابه مع تلك الظروف التي شاهدت هؤلاء الرجال ، وشهدت جهادهم المتواصل في سبيل الله . ولذلك فإن إلقاء الاضواء على هؤلاء الرجال ، وعلى فكرهم ، وظروف عصرهم .. لا ريب فيه عبرة .. يعتبر بها أبناء هذا الجيل في الجهاد ضد أعداء أمة العروبة والاسلام .

إننا نحن أبناء هذا الجيل في حاجة الى جهاد نفسي ، ومجاهدة أعداء أمة العروبة والاسلام . وهؤلاء الرجال جاهدوا ووقفوا حياتهم من أجل إعلاء كلمة الحق والعدل في عالم الاسلام الواسع الشاسع . ونحن الان في حاجة إلى أن نعود الى تعاليم ديننا القويم ، وأن نتخلق بخلقه ، ونهتدي بهديه .. وأن نتنبه للتيارات التي تحاول النيل من عقيدة الاسلام .

وهم - في الماضي - كان جهادهم الاكبر ينصب على العلم والعمل ونحن الان نحاول بقدر الجهد أن نرفع لواء العلم والعمل .
والواقع .. فإن تراثنا الاسلامي ، الذي تكالب عليه الكثيرون يحتاج منا الى وقفة . يحتاج منا إلى أن نعود اليه ونستصفيه ، ونسترشد به .. بعد أن نكشف النقاب عن جواهر حضارتنا الاسلامية الزاهرة .

نحن بحاجة أن ندرس الماضي .. بعد أن نعود اليه ، لأن من ليس له ماض ، ليس له حاضر ولا مستقبل . وليس هذا دعوة « سلفية » كما يقولون .. إن تراثنا ملوئ بالكنوز التي لو استخرجناها وأحسننا استخدامها لاغنتنا عن الكثير . على أن استخدام الماضي أو الوقوف عنده لا ينبغي أن يكون قيداً على مسيرتنا . وإنما يكون ركيزة صلبة نقف عليها لننتقل ، ونحن نستشرف آفاق القرن الواحد والعشرين .. وبعد سنوات صعبة عانينا فيها ، بفعل استعمار ثقافي وسياسي أحسن تخطيطه المستعمرون .

إن أوروبا الحديثة أكلت الكثير على موائدنا نحن العرب والمسلمين هم اغتصبوا أطايب موائدنا .. واتبعوا معنا سياسة التغريب عن قيمنا الاسلامية .
ونحن العرب والمسلمين ، بعد أن تخلصنا من استعمار بغيض .. في حاجة الى أن نرسي دعائم العلم والإيمان ، الذي أظهر حضارتنا الاسلامية في الماضي ..

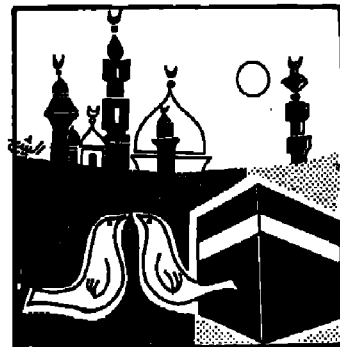
وديننا القويم هو علم وايمان في المقام الاول .
وهؤلاء الرجال الذين نقدمهم على صفحات الكتاب نماذج مشرفة لرجال العلم
والايمان .
هؤلاء الرجال هم الذين وصفهم الامام « القشيري » في مقدمة الرسالة القشيرية
بقوله :
« جعل الله هذه الطائفة صفوة اوليائه ، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله
وانبيائه ، صلوات الله عليهم ، وجعل قلوبهم معادن اسراره ، واختصهم من بين الامة
بطوالع انواره ، فهم الغياث للخلق والداثرون في عموم احوالهم مع الحق بالحق » .
هؤلاء الرجال علما نعتبر بهم .. وعمل حياتهم تكون هاديا لنا وسط تلك الانواء
المقلطمة التي تموج من حولنا .
والله الموفق

احمد ابو كف

أعلام
التصوف
الاسلامي

سيدي أحمد الرفاعي

رجل .. بعشرة
آلاف رجل



●● كانت تهتز اعصابه وترتعد فرائصه حين يسمع بكاء طفل يتيم وهذا شعور إنسان مسلم مؤمن ..

لكنه هو أيضا .. قد عاش هذا اليتيم .. فقد مات أبوه وهو لا يزال في بطن أمه .
في « أم عبيدة » .. كانت ولادته .
وفي « أم عبيدة » ، إلتف حوله مائة وثمانون ألف محب ومريد عيونهم على شفتيه ، يحفرون في قلوبهم كل ما يخرج منهما ... فقد كان كلامه من نبع تجارب وعلوم ، اسبغها الله على عبده المؤمن .

لقد جاهد نفسه .. والنفس دائما امارة بالسوء .. وتغلب على نفسه فقهرها ..
وانصرف عما في أيدي الخليقة ، واشتغل بالحقيقة .

هذا القادم من قرية صغيرة .. خطف أبصار علماء المدينة ، العاصمة .. فاعترفوا له بالرسالة .. وقالوا : إنه رجل بعشرة آلاف رجل .

كان يقول إن العلم الذي اعطيه .. لا اجر عليه .

وظل يعطى .. ويعطى .

وظل يعمل ويعمل الى آخر لحظة من حياته .

وحين تجمع عليه احباؤه ومريدوه .. كانت آخر كلماته لهم : لا تسبونى .

فتعجب تلامذته المخلصون وقالوا : كيف نسبك وانت إمامنا ؟ فقال لهم :
تقولون قولا لم أقله ، وتفعلون شيئا لم افعله .. إعملوا إن كل شيء خرج عن الكتاب والسنة ، فليس منا .

« أعلم أن مثل القلب كالقصر ، والمعرفة فيه كالسلطان ، والعقل أمير على الأركان .
والأركان له تبع وأعوان . واللسان كالترجمان والسر من خزائن الرحمن .. ولا بد لكل واحد منها من الاستقامة في مواضعه ، ودوران على استقامة السر مع الحق . فلذا استقام السر مع الحق .. استقامت المعرفة ، فيستقيم العقل . وإذا استقام العقل

استقام القلب . وإذا استقام القلب استقامت النفس ، وإذا استقامت النفس
استقامت الأحوال .

والعقل منور بنور اليقظة والاعتبار .
والقلب منور بنور الخشية والافكار .
والنفس منورة بنور الرياضة والانزجار .

فالسر بحر من بحور العطايا ، وأمواج الهمة فيه لا يحصى عددها ولا ينقطع
مددها . وأن استقامة السرمع الحق ، هي الدوام على بساط المشاهدة مع فقد رؤية
الاستقامة ، كما يقول سيدي الإمام الرفاعي .



في كتابي عن آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، المدفونين في ثرى مصر ، كتبت
عن حياة القطب الصوفي سيدي « أحمد البدوي » ، رضى الله عنه .

وذكرت أن سيدي « أحمد البدوي » ، وهو في رحلة البحث عن الحقيقة ، أحس
أنه مشوق الى مزيد من علوم سيدي « أحمد الرفاعي » ، خاصة ، وأعلام الصوفية في
العراق بصفة عامة ..

وقد أوردت رؤيا لسيدي « أحمد البدوي » ، رآها في منامه على صورة خطاب من
سيدي « أحمد الرفاعي » الى سيدي « أحمد البدوي » ، يقول له فيه : « لا تنم ..
فمن طلب المعالي لا ينام ، وحق أبائك الكرام ، سيكون لك حال ومقام ،

ولقد شد الرحال ، سيدي « أحمد البدوي » ، بعد هذه الرؤيا الى العراق ، في
شهر ربيع الاول عام ٦٣٤ الهجرى . وكان وصوله اليها ، بعد وفاة سيدي « أحمد
الرفاعي » ، بحوالى نصف قرن من الزمان .. فقد توفى سيدي « أحمد الرفاعي » عام
٥٨٧ الهجرى .

وفي العراق بدأ سيدي « أحمد البدوي » ، بزيارة آل بيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، واقطاب الولاية المدفونين هناك . كما زار « الكاظمية » .. حيث مقابر الشيعة
، وفيها قبر جده الامام « موسى الكاظم » ، وحفيده الامام « محمد الجواد » رضى الله
عنهما .

وبعدها .. قام سيدي « أحمد البدوي » بزيارة قبور الجيلاني ، والحسين بن منصور الحلاج ، وعدى بن مسافر ، ومسي الزوالى .. وتاج العارفين أبى الوفا في وادى لوسان ، حيث بات ليلة هناك .. ليرى في منامه من يأمره بزيارة قرية « أم عبيدة » مركز الطريقة الرفاعية .

ولقد شد سيدي « أحمد البدوي » الرجال الى هذه القرية .. ليستقبله هناك مريدو وخلفاء سيدي « أحمد الرفاعي » . وقد اقام « البدوي » في رحاب سيدي « أحمد الرفاعي » مدة ثلاثة أيام ، نهل فيها من علم الرفاعية ، ووقف على أحوالهم ، ثم عاد الى بغداد .

وكان قبل أن يتوجه الى بغداد ، وكما يذكر المؤرخون ، قد توجه اليه النداء الباطني - كما تقول الصوفية - من سيدي « أحمد الرفاعي » ، يشير عليه بالذهاب إلى « فاطمة بنت برى » ، في العشائر بشمال العراق .. كي يُقَوِّم سلوكها المعوج ويؤدبها !!..

من تكون فاطمة بنت برى هذه ؟

إن هذه السيدة نسجت حولها عشرات القصص والروايات ، وألفت فيها عشرات القصائد .. فقد كانت ، كما يصفها الإمام الشعرائي : « امرأة لها حال عظيم ، وجمال بديع ، وكانت تسلب الرجال أحوالهم ، فسلبها السيد البدوي - حالها » .

وهذه السيدة - فاطمة بنت برى - بالإضافة الى جمالها ، ذات مال عظيم وكان الاختبار « الذي تمتحن به كل من يريد أن يتلمذ عليها - ليسير في طريقها - هو موضع الحسن الذي تتمتع به من نفسها فيقع فيها من يطيل النظر اليها ، وهنا لا يصلح أن يكون صوفيا حقيقيا لأنه ضعيف القلب سريع التأثر . ويقال إنه قد تجمع حول « فاطمة بنت برى » قوما وأنصارها يؤازرونها في مسلكها الخاص . وكان هذا سبب الرؤيا للذهاب اليها من قبل سيدي « أحمد البدوي » : « .. بيد أن حق الشرع لا يذهب جفاء ، فأشار قطبا التصريف - الرفاعي والجيلاني - على أبى الفتيان ، سيد أحمد البدوي ، بدرء هذه الفتنة ، فذهب اليها سيدي « أحمد البدوي » .

ولقد أطنبت المصادر في تصوير لقاء « البدوي » بـ « فاطمة بنت برى » .. ومخلص ذلك كله . أنهم قالوا : إنه ما أن وقع بصر فاطمة بنت برى على سيدي أحمد البدوي ، حتى أحست بنهاية أمرها ، حيث وجدت ما لديها من حال أمام أحوال بطل الرجال ، لا يعدو أن يكون ذرة بجوار هذا الجبل الشامخ من الصلابة

والإيمان . ولقد آمنت فاطمة بنت برى بولاية السيد البدوى وصلاحه . ويقال إنها بعد لقائها بالبدوى عدلت عن خطتها ، والتزمت جانب الحق ، واتبعت طريق الشرع ، وقالت أمام جمع كبير من قوما :

« إشهدوا علىّ يا جميع من حضر ، انى ماعدت أتعرض لأحد من الرجال ، وأنا استغفر الله بداية ونهاية ، وفرضا عن كفايته » .

هذه القصة لها معان ودلالات عميقة لكل من يدرس تاريخ الفكر الصوفى ، وتاريخ أقطاب التصوف . فـ « فاطمة بنت برى » كما أرى .. تمثل الدنيا وزخرفها .. فى طريق الفقير ، أو المتصوف الحق ، فالمرید الذى يضعف أمامها .. لا يصلح أن يكون مريداً ، فما بالك بالقطب الصوفى ..

وقصة « فاطمة » هذه أيضا ترمز فى حد ذاتها الى أن قطبانية التصوف عقد لواؤها لسيدى « أحمد الرفاعى » ، القطب الكبير فى التصوف .. فمن يجيزه فى الطريق .. فقد انضم الى الطريق ، وصار من الفقراء ، بمعنى أن الولاية هنا فى « أم عبيدة » .. أو أن « أم عبيدة » إن جاز التعبير ، هى الجامعة الجامعة للتصوف . وأن سيدى « أحمد الرفاعى » عميدها ..

كذلك فإن المرید الذى يريد أن ينضم للطريق .. فلا بد له من مجاهدات ومجالات ، ولابد له أن يتغلب على اغراءات الدنيا الزائفة .. وأن يسير بتؤدة وصدق فى طريق الله . وسواء أكانت هذه القصة حقيقية أم غير ذلك ، فهى بلاشك أعطت سيدى « أحمد البدوى » القطبانية .. كما أكدت ودعمت « الرفاعية » كطريقة للفقراء تنبع من الكتاب والسنة ..

والواقع أن التصوف قد بدأ كرد فعل عنيف لما حدث فى أوساط أبناء الامم من غير العرب التى دخلت الاسلام .. حول ماحدث لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد وفاة الرسول .. ما حدث « لعلى بن أبى طالب » . وماحدث لآل البيت بعده من اغتصاب بنى أمية للخلافة ، واستشهاد الامام « الحسين » وكوكبة من آل البيت فى « كربلاء » .. ثم ماحدث بعد ذلك من اضطهاد لهم وتعقبهم ..

أقول ذلك .. وإن كان لا ينفى أن غالبية أقطاب التصوف كانوا من العرب .. أو هم كانوا - وهذه حقيقة - ينتسبون الى آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم بشكل أو بآخر .. ويكون هذا من من أهم شروط جوازات مرورهم الى القطبانية .

ويبدو أن أرض العراق كانت المنطقة الخصبة للتصوف .. ربما لقربها أو لالتفاف جمع من المسلمين غير العرب حولها .. ولأنها تتوسطها بغداد ، وكانت مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية ، بل هي مركزها . ولذلك فمن يدس تاريخ أقطاب التصوف لابد له أن يذهب إلى هناك .. ولابد أن يمتحن هناك ، وأن يجاز في امتحانه . ويؤكد ما أقوله .. أنه ليس التصوف فقط كان مركزه هناك ، بل إن أقطاب العلوم الإسلامية أيضاً محط أنظارهم بغداد بالذات . وحتى الفقهاء ، ومنهم الإمام « الشافعي » رضي الله عنه ، قبل أن يتبلور مذهب ، فقد ذهب ثلاث مرات إلى « العراق » ويقابل الفقهاء ويفيدهم ويفيدونه .

ومن يدرس الإمام « أبا الحسن الشاذلي » يجد أنه في بداية البحث عن القطب الذي سيدله على الطريق ، سافر من المغرب إلى بغداد أولاً لبحث عنه هناك . ورغم أنه لم يجده ، فلقد دلوه على القطب في بلاده .. المغرب . وكما حدث لسيدى « أبا الحسن الشاذلي » .. حدث أيضاً لسيدى « إبراهيم الدسوقي » ذهب إلى هناك .. فمكان أقطاب المتصوفة المفضل ومركز الثقل لهم - ولريديهم بالتالي - العراق .



وقبل أن نتحدث عن سيدى « الإمام الرفاعي » رضي الله عنه .. من المفيد هنا أن نتحدث عن التصوف والصوفية بتحديد أكثر .. وهو حديث مستمر منذ قرون وقرون .. ومن المفيد هنا أن نورد ما يقوله شيخ الإسلام « ابن تيمية » في « فتاواه » في تحديد معنى الصوفى . فهو يرى في الصوفى نوعاً من الصديقين . فهو الصديق الذى اختص بالزهد والعبادة ، باتباعه وتأسيسه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمسكه بالكتاب والسنة ..

وفي هذا المعنى يقول ابن تيمية : « والصوفيون قد يكونون من أجل الصديقين بحسب زمانهم ، فهم من أكمل صديقى زمانهم . والصديق في العصر الأول أكمل منهم . والصديقون درجات وأنواع ، .. وهل يوصف بالصديقية إلا صفوة المتبعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم في كل أقواله وأفعاله .

ويرى د . « الحسينى هاشم » في بحث له نشر بعضه ، أن رأى « ابن تيمية » في مقاييس الناس ، بالنسبة للصوفية والتصوف رأى سديد لا إفراط فيه ولا تفريط .

لهو رأى يرفض ويذم المغالين الذين يرون انهم افضل الخلق واكملهم .. كما يرفض ويذم رأى المعتنقين المنتظمين ، الذين يرون انهم غير متبعين وغير سلفيين ، بل إنهم مبتدعون وخارجون عن السنة ..

وهذا ما نبه إليه في الواقع فضيلة الإمام الأكبر الدكتور « عبد الحليم محمود » في مقدمته لكتاب الامام الغزالي « المخلص من الضلال » .. حيث يبين أن ميدان التصوف ككل ميدان ، فيه الادعاء ، كميدان السياسة والكتابة ، وسائر الميادين الاخرى . وهذا رأى يتفق مع ما ارتآه الامام «ابن تيمية» ، حيث يقول :

ولاجل ماوقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس في طريقهم . فطائفة ذمت الصوفية والتصوف ، وقالوا إنهم مبتدعون خارجون عن السنة .. وطائفة غالت فيهم ، وادعوا انهم افضل الخلق واكملهم بعد الانبياء . وكلا طرقي هذه الامور دميم . والصواب انهم مجتهدون في طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من اهل اليمين . وفي كل من الصنفين من قد يجتهد ويخطئ ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لايتوب .

ورأينا الذي يأتي بعد دراسات طويلة وقراءات مستأنية في التصوف والمتصوفة .. أن التصوف طريق إلى الله ، وهو طريق ذو هدف نقي . إنه طريق عهد بين المريد وشيخه على أن يتوب عن المعاصي ، وأن يكون طاهر الروح والجسد معا ، والصوفي الحق والمريد الحق هو الباحث عن العلم العالي ، وعن الحقيقة . هو الذي مع الله دون الخلق ، فكل الخلق في نظره سواء ، لا يملكون ولايقدرون ولكن المالك والقادر هو الله جل شأنه وجلت قدرته . وهذا الوصف ينطبق على جميع طرائق المتصوفة . هدفهم سلام . هو ينابيع طاقات روحية معتمدة على الكتاب والسنة ، يشوه وجهها الصبوح هؤلاء الادعاء ، الذين ينسبون أنفسهم الى الصوفية والتصوف وهو منهم براء .. ويدخلون عليه بدعا ليست هي من الدين في شيء .. ومن هؤلاء بعض الكتاب الذين يسمون كتاب « المفاقب » .. فأغلبهم ليس على درجة عالية من العلم والوعى .. فهؤلاء ينسبون لأقطاب التصوف أشياء هم منها براء . وهؤلاء المبتدعون ثلاثة اصناف ، كما يصنفهم البعض :

فالصنف الاول : مجموعة الجهال التي أخطأت في الاصول لعدم تمكنها من دراسة الشريعة الاسلامية الحق وأصولها .

الصنف الثانى : هم جماعة من الذين يخطئون في فروع التصوف ، وهى الآداب والأخلاق والمقامات والأحوال والأفعال والأقوال .. هم الذين لم يستطيعوا أن يطهروا أنفسهم ويتبعوا المنهج الذى يؤدى بهم الى التصوف الحق .

اما الصنف الثالث : فهم الذين يخطئون من خلال هفوات .. فإذا تبين خطؤهم يعودون الى الطريق القويم ، ويذعنون للحق .

وهذا التصنيف صاحبه الإمام « الطوسى » .. مع بعض التخفيف والواقع أن القارئ الدارس المنتبِع لأحوال أقطاب الولاية .. يرفض ما يلصق بالتصوف الحق .. من اتهامات .. وهذه بعض الامثلة ، فالتصوف الحق هو القائم على الكتاب والسنة ..

فسيدى « احمد البدوى » - مثلا - كان يردد دائما : « إن طريقتنا قائمة على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وما خالف ذلك فهو مدسوس » .. وكان يقول لتلميذه « عبد العال » - وهو موجه لكل مرديه بالطبع - « لا تتعلق بالدنيا - وراع الاحسان فى العمل ، وابعد النفس عن الشح بالعطاء ، واستمر فى ذكر الله ، ولا تغفل عن القيام بالليل ، ولا تكن سىء الخلق فى المعاملة واصبر على تحمل الأذى ولازم الصديق دائما ، وكن صاقي القلب حسن الوفاء حافظا للعهود » .

وماقاله سيدى « احمد البدوى » .. كان يقوله سيدى «ابو الحسن الشاذلى» وخليفته سيدى «ابو العباس المرسى» . وماقاله هؤلاء قاله أيضا سيدى «إبراهيم الدسوقى» .. ومما يقوله « الدسوقى » : « ياولدى . إلزم أولا طريق نفسك على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فإذا عملت بهما انقذ لك منهما علم الحقائق والأسرار .. ولا يكون فقيرا - أى صوفيا - حتى يكون حمالا للأذى من جميع الخلائق ، فلا يؤذى من يؤذيه ، ولا يتحدث فيما لا يعنيه ، ولا يشمت بمصيبة أحد ، ولا يذكر أحدا بغيبة ، ويكون ورعا عن المحرمات ، موقوفا عن الشبهات ، إذا بلى صبر . وإذا قدر غفر . غضيض الطرف . يعمر الأرض بجسده والسماء بقلبه .. طريقه الكظم والبذل والإيثار والعفو والصفح ، والاحتمال لكل من يتحدث فيه بما لا يرضيه .. ومن لم يكن متشعرا متحقيقا نظيفا عفيفا شريفا فليس من أولادى ، ولو كان ابنى لصلبى . وكل من كان ملازما للشريعة والحقيقة والطريقة والديانة والصيانة والزهد والورع والتقوى .. فهو ولدى وإن كان من أقصى البلاد » .

والواقع أن مقاله هؤلاء الذين ذكرناهم .. قالوه على هدى أسلافهم الذين سبقوهم بإيمان في الزهد الحق والتصوف الحق .. ومنهم بالطبع الطريقة الرفاعية .

* * *

هذا الذى قلناه .. كان لابد أن نقوله كمدخل الى رحاب سيدى « احمد الرفاعى » ، قطب أقطاب التصوف .. أو القطب الكبير .. كما يصفه « أبو بكر بن عبد الله العيداروس » صاحب كتاب « النجم الساعى فى مناقب القطب الكبير الرفاعى » .. والذى قام بتحقيقه بالتبويب والشرح والتعليق عليه الدكتور « على حسن العريض » ، مفتش الوعظ بالقاهرة .

والذى ذكرناه حول التصوف والمتصوفة ، كان لابد من ذكره ونحن نتحدث عن هذا القطب الكبير ، الذى نسب الى طريقته الكثير من الدجالين ، الذين أساءوا الى طريقة سيدى « احمد الرفاعى » بصفة خاصة والطرق الصوفية بصفة عامة . خاصة وأن طريقة سيدى « احمد الرفاعى » بلغ عدد مريديها فى حياته - كما تذكر الكتب عنه - حوالى مائة ألف ، والبعض قال إن عددهم وصل مائة وثمانين ألفا .. وصار مريدو هذه الطريقة يعدون الآن بالملايين .

ولاشك أن الإمام « الرفاعى » واحد من الذين أرسوا قواعد التصوف الحق .. ووضع لها عبر التاريخ أدابا وتقاليد سامية .. لو أحسن الناس الأخذ بها ، ماكانت هناك أوجه من النقد لبعض المفكرين والكتاب يوجهونها الى الصوفية عموما ، والرفاعية منهم بوجه خاص .

وقبل أن نتحدث عن فكر سيدى « احمد الرفاعى » ، وفكر تلامذته ومريديه الاصلاء العلماء ، نتحدث عن ملامح شخصية هذا القطب الصوفى ..

فهو أبو العباس أحمد بن أبى الحسن على بن أبى العباس أحمد المعروف بأحمد الرفاعى . وهو علوى النسب رضى الله عنه . فأبوه حسينى ، ينتهى نسبه الى سيد الشهداء الحسين بن على بن أبى طالب ، وأمه حسنية ، ينتهى نسبها الى الإمام الحسين بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم جميعا وأرضاهم . ومن أجل ذلك كنى سيدى أحمد الرفاعى « بابى العلمين » .

وينتسب سيدى « احمد الرفاعى » الى جده السابع « رفاعه » ، الذى هاجر إلى المغرب هربا من اضطهاد العباسيين للعلويين فى المشرق . وقد استقر « رفاعه » ،

بأشبيلية ، حيث تزوج وأنجب عددا كبيرا من الابناء . وقد سافر حفيده « يحيى » الى الحجاز لتادية فريضة الحج . وبعد إقامة ليست طويلة في مكة المكرمة ، رحل الى البصرة ، حيث تزوج ، واستقر به المقام في العراق ، وأنجب ولديه « الحسن الرفاعي » ، و « احمد الرفاعي » .

ولقد ولد سيدى « احمد الرفاعي » في « أم عبيدة » .. وهى جزيرة قرب واصل من محافظة البصرة بالعراق سنة ٥١٢ هجرية .. في العصر العباسى الثانى ، أى في عهد الخليفة « المستظهر بالله » . وكانت ولادته بعد وفاة أبيه . اذ تولى أبوه وهو فى بطن أمه .. فكفله خاله .

ولقد عاش سيدى « احمد الرفاعي » ستين عاما حافلة .. فقد حفظ أبو العلمين سيدى « احمد الرفاعي » القرآن الكريم ولما يكمل السابعة من عمره ، وكان طفلا متزنا نجيبا . ثم تلقى علوم العربية ، من خلال التردد على حلقات العلم المزدهرة فى بلاده .

ويقول إنه اتخذ شيخين أساسيين تتلمذ عليهما ، وهما خاله « منصور البطائحي » ، ثم الشيخ « على القارى الواسطى » .. هذا فضلا عن الإمام « الخرنوبى » .. والآخر كان سيدى « احمد الرفاعي » يقيم عنده كل عام فترة من الزمن ، يلزم فيها مجلسه ، ويتعلم منه ، ويستمع الى وصاياه وتوجيهاته .. حتى تفقه واتسعت دائرة معارفه ، وأتم دراسته .

وعلى غير العادة بالنسبة لأقطاب التصوف الاسلامى .. فلقد حفظ لنا التاريخ الكثير عن فكر سيدى « احمد الرفاعي » ، والكثير من علومه وأدابه ونصائحه وأشعاره وأذكاره وأوراده وكلماته .. وهذا أمر لم يحظ به الكثيرون من أئمة التصوف وأقطابه .. والذين كانوا يعتبرون كتبهم أصحابهم ومريديهم . فلقد ترك سيدى « احمد الرفاعي » مؤلفات جمة فى الفقه والتوحيد والتفسير .. والحديث وفى التصوف .. أكثر من خمسة وثلاثين مؤلفا .

ثم إن سيدى « احمد الرفاعي » لم يكن يخلو الى نفسه الا قليلا .. أو هو كان يلقى الناس فى كل يوم فى قريته « أم عبيدة » .. والتي كانت بمثابة خلوة كبيرة له ولمريديه . وكان يلقى الدروس على مريديه ، ويؤمهم فى الصلاة ، ويتدارس معهم مشاكلهم ويعمل على حلها .. فكان مريدوه « خلقا عظيما .. ولعلمه أحسنوا الاعتقاد فيه ، وتبعوه » .

يقول الامام « الشعرائى » فى « طبقاته » : « .. إليه انتهت الرئاسة فى علم الطريق ، وشرح أحوال القوم ، وكشف مشكلات منازلهم ، وتعلمذ له خلائق لايحصون ، وهو أحد من قهر أحواله ، وملك أسرارہ . ولقد أصبحت « أم عبيدة » فى حياة سيدى « أحمد الرفاعى » ملتقى المؤمنين من المتصوفة ووفد عليها الكثيرون من الباحثين عن القطبانية ، ومن أبناء التصوف الاسلامى .

وقد توفى الإمام « الرفاعى » فى سنة ٥٧٨ هجرية .. بعد مرض لم يمهله طويلا .. ودفن حيث ولد فى قرية « أم عبيدة » ، وحيث هى قراره ..

والواقع ان سيدى « أحمد الرفاعى » ، قد عاش حياته يردد دائما ، وصية استأذه الامام « الواسطى » ، والتي تقول : « من لم يعرف من نفسه نقصانا ، فكل وقته نقصان » .. كما كان يردد دائما أيضا : « طريقنا الكتاب والسنة ، ومن انحرف ضل الطريق » . وكان يدعو به دائما : « اللهم عاملنا بما أنت أهله .. ولا تعاملنا بما نحن أهله .. انك اهل التقوى وأهل المغفرة » .

ويقول سيدى « أحمد الرفاعى » : « طريقى دين بلا دعة ، وهمة بلا كسل وعمل بلا رياء ، وقلب بلا شغل ، ونفس بلا شهوة .. وطريقنا طريق تقى واخلاص . فمن ادخل فى عمله الرياء والفجور ، فقد بعد عنا وخرج منا » ..

ومثل هذه الكلمات الصريحة والواضحة .. تدعونا كما تقول دكتورة « سعاد ماهر » فى كتابها « مساجد مصر » الى أن نعرض لما ينسب الى الرفاعية من كرامة مسك الثعابين ، واختراق جسد الانسان بمواد صلبة ، مثل السبخ والشوكه والسيف .. من غير إحداث جرح وإراقة دماء .. لكننا لم نعثر فى ترجمة الامام أحمد ارفاعى على ذكر او اشارة من قريب او بعيد ، الى أنه أتى بمثل هذه الكرامات ، غير ما جاء من أتباعه ..

يقول ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » : « ولأتباعه أحوال عجيبة ، من أكل الحيات وهى حية ، والنزول فى التناير تتضرع بالنار ، فيطفئونها .. »

ويعلق محمد فريد وجدى . على ذلك بقوله : « أما مايروى عن أتباع الرفاعى من أكل النار والجلوس عليها ، وغير ذلك فيظهر أنه صحيح .. وهو حين يدخل الانسان فى حالة غير اعتيادية سواء أكانت بالذكر أو بالتنويم المغناطيسى » .

وتعلق دكتورة سعاد ماهر على هذه الآراء ، فتقول : على اننا اذا رجعنا للديانات الهندية القديمة ، لوجدنا في الديانة « الجينية » .. التي تجعل الجسد في خدمة الروح ، ما يفسر بعض ما يأتية الذين ينتسبون الى الرفاعية من أعمال غريبة .

والحقيقة ان حياة سيدى « أحمد الرفاعى » الحافلة العريضة ، هي التي جعلت الكثيرين يخوضون في بحارها المتلاطمة المترامية الاطراف . فقد خاض بحارها المفسرون والمؤرخون والعلماء . فمنهم من افرد لسيدى « أحمد الرفاعى » بالتأليف مثل الشيخ « برهان الدين الحلبي » في كتابه « البرهان المؤيد » . كما ذكره السيد « أحمد القليوبى » في كتابه « تحفة الراغب » .. والامام « عبد الوهاب الشعرانى » في « الطبقات الوسطى » . كما تناول ترجمة كذلك « الفيروز بلدى » صاحب « القاموس المحيط » ، والشيخ « الكازرونى » في كتابه « شفاء الاسقام في سيرة غوث الانام » .. الذى ترجم من الفارسية الى العربية . كما افرد لترجمته العلامة الشيخ « المنلاوى » في « كواكب الدرية » ..

ونورد هنا ما يذكره الامام المنلاوى عن سيدى أحمد الرفاعى ، فيقول : « هو أحمد بن على بن يحيى بن ثابت بن حازم بن رفاعه ، الشيخ الزاهد الكبير ، أحد الاولياء المشاهير ، أبو العباس الرفاعى المغربى ، شريف يمنى ، غاض روض شرفه ، وهمل على العالم غوث سلفه . كان سيدا جليلا ، وصوفيا عظيما نبيلًا . قدم ابوه العراق وسكن « أم عبيدة » بأرض البطائح وولد بها صاحب الترجمة .. ونشأ بها ، وتلقه على مذهب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه ، وكتب كتابه « التنبيه » ثم تصوف فجاهد نفسه حتى قهرها ، واعرض عما في ايدي الخليفة ، واقبل على اشتغاله بالحقيقة .. ومهر واشتهر وانتهت اليه الرئاسة في علوم القوم . »

وعن اتباع سيدى « أحمد الرفاعى » ومريديه يقول « ابن خلكان » : « وهم الطريقة الرفاعية ، ويقال لهم الاحمدية ، والبطائحية » .. نسبة الى أحمد الرفاعى ، ونسبة الى البطائح في العراق .

والواقع ان الكتب التي تناولت سيدى أحمد الرفاعى لاتحصى .. ونضيف الى ما سبق ان ذكرنا كتابا يتحدث عن مناقب « الامام الرفاعى » . وهو كتاب « ربيع العاشقين في مناقب سيدنا الامام الرفاعى سلطان العارفين » ، للحداد الشافعى ، .. وهو كتاب جدير بأن يقرأ بجانب كتاب الشيخ « العبداروس » بعنوان

« النجم الساعى فى مناقب القطب الكبير الرفاعى » .. هذا فضلا عما كتبه الحافظ الذهبى ، والامام العينى ، وابن حجر العسقلانى .. وغيره وغيره كثير .

الامام « احمد الرفاعى » فى حياته .. كان واحدا .. ويقولون انه كان صديقا « لابی الليث الحرانى » الذى كان معروفا بالصلاح والتقوى بين الناس . وكان والده امير حران .. ولقد ترك « ابو الليث الحرانى » طريق الامارة حين قابل سيدى « احمد الرفاعى » ، وتبع طريق الفقر ورضى بها . وفى طفولته ، كان سيدى « احمد الرفاعى » ، يتعلم القرآن والنحو والصرف عند احد المشايخ . وهذا الشيخ ذكرت الكتب الكثير عنه وعن تلميذه سيدى احمد ومن هذا الذى ذكر ، ان الاستاذ قال له مرة ان يعرب « ضرب زيد عمرا » فقال سيدى « احمد الرفاعى » : يا استاذ : لاى شىء ضرب زيد عمرا ؟ فقال المعلم : يولدى هو ماضربه حقيقة . ولكن هذا اصطلاح فى العربية . فقال له سيدى احمد الرفاعى : ايش بى اتعلم مافى الكتاب ، ولا حاجة لى بذلك ولا اقروءه . وخرج من عند الاستاذ ، ولم يعد اليه بعد ذلك .

ويقال ان استاذته الذى كان اول من اثر فيه هو الشيخ « على القارى الواسطى » ، وهو الذى اخذ عليه العهد الوثيق .: . والذى - كما يقال - انكشفت لسيدى « احمد الرفاعى » معه ، ياذن الله ، علوم الحقائق وعلوم الظاهر والباطن .. وهى علوم المتصوفة .. وان كان البعض يرى ان خاله « الامام منصور » كان استاذته الاول الذى رياه ، والذى فطمه على الصلاح والعبادة وبدأ معه اول الطريق . كما يقال ان سيدى « احمد » اخذ من الفقيه « الواسطى » علوم الشريعة وتفنن بها ..

ومن علامات نجابة سيدى « احمد الرفاعى » ، يروى صاحب كتاب « النجم الساعى » .. انه كان لخاله منصور البطائحي ولدان .. ولكنه اهتم بابن اخته الرفاعى اكثر من ولديه . ولأن خاله منصور كان شيخ زمانه ، فقد اراد أن يخلفه ابن اخته ، وليس احد من ولديه ، على السجادة ، فيكون شيخ الشيوخ . فلما قال له اولاده : ان ميراث الاب لا يكون الا للابن ، وليس لابن الاخت .. لم يسمع اليهم .. وقد برهن على ان سيدى « احمد الرفاعى » يستحق هذه العناية ..

ولقد اورد « كتاب المناقب » بعض الامثلة على سبق سيدى « احمد » على ولدى خاله امام جمع كبير من الناس ، ليشاهدوا ، فقد جمع الشيخ « منصور البطائحي » ولديه وسيدى « احمد » معهما ، واعطى لكل منهم دجاجة وسكينا ، وقال لهم ، كل

منكم يذهب بدجاجته وسكينه الى محل خال ، ما فيه احد ، ثم يذبح دجاجته ،
وياتي بها مذبوحة ..!

وانتظر الجمع الكبير ماذا سيفعلون بالدجاج : وقد فوجيء هذا الجمع ، بأن كلا
الولدين جاء بدجاجته مذبوحة فيما عدا سيدي « احمد الرفاعي » . فسألوه :
لماذا ؟ . فقال : قد اشترطتم عليّ خلو المكان . فكل مكان كنت اذهب اليه ، لاجده
خاليا ، بل مشغولا بالله سبحانه وتعالى ، وهو فيه حاضر ناظر . ولما ار مكانا
خاليا قط لم اذبحها ..

وقف الجميع مشدوهين بما قاله سيدي « احمد الرفاعي » .

وايدوا الشيخ « منصور » .. على اهتمامه بولد أخته .. وانه سيكون له شأن ..

وهكذا .. ذاع صيت سيدي « احمد » في « ام عبيدة » .. واتسع ليزيد في
بغداد .. لدرجة انه وكما يقول صاحب « النجم الساعى » : « وفي مدة قليلة شاع
شرف اخباره في العالم ، وسار اليه من البلاد والاقطار خلق كثير ، ولزموا خدمة
اعتابه .. وصار سيدي احمد في مرتبته اظهر من كل شيخ كان له سجادة في هذا
العصر » .

وانهوفه بدأت الانظار تتجه اليه .

وكا لا بد ان يخرج من « ام عبيدة » لتتأكد شهرته وليزيد صيته بين علماء
بغداد ..

وقيل انه لما طلع الى بغداد ، اجتمع عليه علماءها ، وفضلأوها ، وهياؤا له أسئلة
كثيرة للامتحان ، وسألوه أسئلة مشكلة ، منها من اى شيء خلق الله ملكوت
السموات ؟

قال : خلقه الله تعالى من النور ، ولكنه خلق العرش اولا من خالص نوره ومن نوره
خلق أربعة ملائكة : جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل .. عليهم السلام ، وخلق
حملة العرش من نور حضرة القدس ، وخلق الكرسي والعرش من نور المصطفى ..

ثم سألوه : مم خلق الله تعالى نور محمد صلى الله عليه وسلم ؟
فقال : خلقه من نور الالهية ..

واسئلة كثيرة ذكرها صاحب « النجم الساعى » ..
ويقول أنه بعد اجاباته عن كل ما وجه اليه من أسئلة .. « فلما سمع القوم من
الرفاعى هذه العلوم ، وهذه الأجوبة المحررة ، قالوا جميعا : صدقت يا قطب
العارفين ، ولقب بذلك بينهم .. »

من أهم ما يميز به سيدى « احمد الرفاعى » من سجايا بجانب علمه
وقطبانيته .. شففته على عباد الله تعالى ، خاصة الفقراء والمساكين ..

والكثير من سجايه يذكرها كتاب « ترياق المحبين » للشيخ « تقي الدين
الواسطى » ..

ومن سجايه أنه كان على كمال الاستغناء عن الدنيا ، ولا أحب شيئا منها مدة
عمره ، وكان يقول : يا فقراء إعملوا أن فى اطراف الانسان عرقا متصلا بالقلب ،
فمتى ما اعتاد الانسان قبض الدنيا بيده وكفه تعلق قلبه بها ، فاذا اراد أن يقطع
ذلك التعلق ، لعسر عليه ذلك .

وكان سيدى « احمد الرفاعى » مع الايتام فى مقام الوالد . وكان يحنو على
الارامل ، ويميل الى طائفة المساكين . كما كان عليما للغاية ، عظيم التواضع ، كتما
للأسرار . واذا تعدى عليه أحد ، عفا عنه وسامحه . وكان يقول للفقراء : يا فقراء
إعلموا أن كل من يعمل منكم سوءا يكن عاصيا بعيدا من الله ، ومن يعمل حسنة يكن
تائبا وقريبا الى الله .

وكان سيدى « احمد الرفاعى » يملا القرب ، ويحملها على ظهره ، وعلى كتفه ،
ويوصلها الى منازل النساء والارامل ، كما كان يجمع الحطب ويوزعه ... بل إن أهل « ام
عبيدة » كانوا يقولون عنه « إنه رجل بعشرة آلاف رجل » ، لأنه كان يقول : « إن
تجارتى خدمة الارامل واليتامى . وأحب أن اشهد نفسى فى خدمتهم دائما ، واذا رايت
يتيما يبكى تهتز مفاصلى وترتعد اعضاءى حنانا له وشفقة عليه ، واخاف من
بكائه . »

ويحكمون عن سيدى « احمد الرفاعى » : أنه كان إذا حضرت الصلاة لا يقدم
شيئا من أمور الدنيا . واتفق فى يوم من الايام أن عطش فطلب أن يشرب ، فأذن

المؤذن ، فقال : امر الصلاة اوجب واحق بالتقديم على كل شيء . فترك الشرب واشتغل بالصلاة ، ثم لما فرغ من صلاته قال : إن شرب الماء من حفظ النفس وشهواتها ، والصلوات من شئون الذات العلية واعتباراتها .

ويقولون إن سيدى « احمد الرفاعى » ، كان اذا شرع فى الصلاة ، يصفر لونه . واذا فرغ من صلاة الصبح ، يستمر فى مكانه جالسا بالذلة والمسكنة يقرأ الاوراد الى صحوه النهار العالية ، واذا فرغ من ذلك صلى صلاة الاشراف وصلاة الضحى . ثم يتوجه الى « أم عبيدة » يجاهد نفسه على العبادة ، وكان دائما يرى فى الخلوة واقفا على قدميه يجاهد نفسه ، وينشد هذا البيت من الشعر :

والله لو علمت روحى بمن علقته

قامت على رأسها فضلا عن القدم

كما كان رضى الله عنه يكره أن يتشبه بالعظماء ، أو أن يقوم له الناس كلما حضر أو انصرف . بل إنه رفض أن يتخذ خادما يعينه فى حاجاته ، لأنه كان يقول لكل من يسأله أن يستريح ويتفرغ للتدريس والعلم وتوجيه مريديه : ومن أين لى اجر الخادم الذى يعيننى ودخلى محدود . فلما كان تلاميذه يعربون عن استعدادهم لمعاونته ، كان رده الدائم : « إن العلم الذى اعطيه .. لاجر عليه . وكل من يستغل تلاميذه ومحبيه من أجل ائراء أو جاه دنيوى ، فقد خسر الدنيا والآخرة » .

والإمام « الرفاعى » كان يرى أن الصوفى الحق ، هو الذى يواجه الحاكم إن أخطأ أو جانبه الصواب . لا طمعا فى جاه دنيوى ، ولا رغبة فى مال أو دنيا .. وإنما لله وحده .. ويشتهر عنه أنه كتب للخليفة العباسى « المستنجد بالله » يقول له :

« يا أمير المؤمنين ، إن أنت نفذت أحكام الله تعالى فى نفسك ، نفذت أحكام كتبه فى ملكك ، وإن عظمت أمرا الله .. عظم الله أعمالك وولاة الأمور من قبلك . ثم زن يا أمير المؤمنين كل ما يصل الى خويصة نفسك فى هذه الدنيا من طعام تأكله وشراب تشربه ، ورداء ترتديه ، واجعل الشره على الدنيا بقدر ذلك .. فان رداك ما استرك ، وطعامك ما أشبعك ، ومالك مالك منه شيء . »

« عليك بالعقل والدين ، وإياك وأرباب القسوة بالفدر والضلالة ، فهم أعداؤك .
وإذا أحببت فحكم الانصاف في عملك ، وإذا كرهت فاذكر الله .. والخطأ في العفو خير من
الخطأ في العقوبة ، وساويين الناس برا وفاجرا ، مؤمنا وكافرا » .

وهذا هو طريق التصوف الذي اتخذه سيدي « أحمد الرفاعي » .. فهو كما يقول :
الفقر والتصوف مبنيان على خصائص متعددة ، منها أن يتجرد العبد لله تعالى ،
ويعلم الله علما يقينا ، ويقول بالوحدانية في أفعاله وصفاته وذاته ، وأنه ليس
كمثله شيء سبحانه وتعالى . ومجلس الصوفية ، كما يراه سيدي « أحمد الرفاعي » ،
مجلس الغم والعزاء .. فان الفقير اذا جلس به يستمر متأسفا متحسرا على زمانه الذي مضى
وفاته ، وما فعل به شيئا مما كان ينفعه ، ويقول : « في أي سبيل ماضى من عمرى وأنا
غافل ، ما عملت به عملا صالحا .. »

ومن وصية سيدي « أحمد الرفاعي » الى الشيخ « يعقوب » :
« يا شيخ يعقوب ، لا تنظر الى عيوب الخلق ، فان نظرت الى عيوبهم اظهر الله
فيك جميع العيوب » . وقال لـ « ابراهيم الاعزب » :

يا ابراهيم ، كل من اراد ان يكون لك شيئا ، فكن انت مريدا له . وكل من تقدم
عليك ، فقدمه وعظمه . إياك والتقرب من اهل الدنيا ، فان القرب منهم يعشى القلب ،
والتواضع لهم موجب لغضب الرب ، وتعظيمهم يزيد في الذنوب ، ولو عرف العالم
كله رب الفقراء حق المعرفة ، مثلما عرفه الفقراء ، لانقطعوا عن معاش الدنيا
واحوالها بالكلية .

وكان يقول : حق الفقير ان يكون قبلة وإماما للناس يقتدون به . واللازم على الفقير ان
تكون أقواله مطابقة للشرع الشريف المحمدي ، حتى لا ينخرط في سلك من اتخذهم الناس
رؤساء جهالا ، فضلوا وأضلوا .

ويدعو سيدي « أحمد » دائما الى الحب . وكان يقول : تعلموا العشق من الشمع
المضى ، فإن لونه اصفر ، وعينه ملأنتان بالدموع ، وبدنه دائما في احتراق
وانمحاق وذبول ، واعلم ان العشق له ثلاثة احوال محمودة : الاكل القليل ، والنوم
القليل ، والكلام القليل . فنتيجة الاول النوم القليل . ونتيجة الثاني العقل
والفراسة . ونتيجة الثالث الحكمة .

وكان سيدى « احمد » يحض أتباعه ويشجعهم على التهل من ينابيع العلم . وطلب العلم لا يقتصر على مكان واحد . ولهذا كان يذهب الى حلقات العلم فى كل مكان يسمع عنه ، ويرحل الى كل عالم جليل يصل الى خبره . حتى انه يروى ان نصائح معلمه « الخرنوبى » ، والذى كان سيدى « احمد الرفاعى » يذهب اليه فترة من كل عام ، ظلت عالقة فى ذهنه ، وكان يرويه لمريديه .. ومنها : « اى متلفت لا يصل .. وكل متسلل لا يفلح . ومن لا يعرف - فى العلم - نقصانا ، فكل وقته نقصان » ..

وكان سيدى « احمد » يرفض ان يحضر مجلسه عاطل ، فكان يلزم كل دارس ان تكون له حرفة يقتات منها .. « فمن ليس له عمل فليأتنا فى الغد لنبحث له عن عمل هنا او هناك » .. ولقد كان الرفاعى يعمل فى الرعى ، كما عمل شفاء وحطابا ..

ولقد توقف الامام مرة عن الكلام ، وأطال السكوت .. اثناء إلقاء دروسه . وطال صمته حتى خاف عليه تلاميذه . ثم قال لهم : لا تسبونى من بعدى . قالوا : وكيف نسبك وانت إمامنا ؟ . قال : تقولون قولاً لم أقله ، وتفعلون شيئاً لم أعمله ، فإراكم الناس ويسمعونكم ، فيقولون لولا انهم راوا شيخهم ، ولولا انهم سمعوا شيخهم ، ما قالوا ، وما فعلوا ، فيسبونى . إعلموا ان كل شئ خرج عن كتاب الله وسنة رسوله ، فليس منى .

والواقع ان سيدى « احمد الرفاعى » كان شيئاً آخر غير الذى يحاول المدعون ان ينسبوه اليه .. كان مؤمناً ، عالماً ، إماماً ، وفيلسوفاً .



للإمام « احمد الرفاعى » كتاب قيم بعنوان « حالة اهل الحقيقة مع الله » ، هذا الكتاب من الكتب العميقة التى تلقى الاضواء على فكر الرفاعية من خلال قطبها ، وهذا الكتاب من الكتب النادرة التى توجد فى مكتبات بعض قدامى الصالحين ، الذين ورثوها جيلاً عن جيل .. كما يقول « صلاح عزام » ، محقق هذا الكتاب ، وكتاب آخر للرفاعى هو : « البرهان المؤيد » .

والكتاب نموذج مشرف لتعاليم الرفاعى .. حتى يجد فيه المهتم بالصوفية المنهج والدعوة - وهو نموذج حى للدروس التى يجب ان يقتدى بها تلاميذ الرفاعى ومحبيه وسالكو طريقه . وقد بدأ الامام الرفاعى هذه الدروس يوم الخميس الاول من رجب عام ٥٤٩ الهجرى ، وكان عمره يومئذ سبعة وثلاثين عاماً هجرية فقط ، واستمر كل يوم

خميس ، على مدى أربعين أسبوعا . واختار له عنوانا متكاملا وهو : « حالة اهل الحقيقة مع الله » . وقد قام بجمع مادته أبو شجاع بن منجج الشافعي الواسطي .. وكتب مقدمة له ..

وستجزيء هنا بعض ما قيل في هذه الجلسات العلمية لسيدى « أحمد الرفاعي » التي كانت تعقد في « رواق أم عبيدة » .. وهي جلسات للتفسير والتوحيد والتفقه في الدين .. من يقرأها يشعر بمدى ما كان عليه الامام « الرفاعي » من علم ومعرفة بأمور دينه .. وهذا بعض مما كان يدور في هذه الجلسات :

مثلا في الحديث الثاني .. أو الخميس الثاني ذكر انه قيل « للواسطي » « اى الطعام اشهى ؟ »

قال : لقمة من ذكر الله تعالى ، ترفع بيد اليقين من مائدة الخلد عند حسن الظن بالله تعالى .

قال « الفساج » : يخرج أكثر اهل الدنيا من الدنيا ، ولم يذوقوا طيباتها المقصودة .. قيل : وماهى ؟ قال : سرور المعرفة ، وحلاوة المنة ، ولذائذ القربة ، وأنس المحبة .

وقال محمد بن واسع : حق لمن أعزه الله بمعرفته أن لا يذل نفسه لغيره وحق لمن والاه الله بولايته أن يقوم بحقه ، وحق لمن أكرمه الله بصحبته أن لا يميل الى غيره ، ولا يعمل بهوى نفسه .

وقال أبو يزيد : ان في الليل شرابا لقلوب العارفين ، تطير به قلوبهم حبا لله وشوقا اليه . الا أن الناظرين اليه ، لا الى غيره ، ذهبوا بصفوة الدنيا والآخرة . أقول : وهذا الشراب هو الخير ، وهو على ضربين : تحير وحشة وتحير دهشة . فتحير الوحشة للمطرودين ، وتحير الدهشة للعارفين المشتاقين ... يادليل المتحيرين زدني تحيرا .



وفي الحديث الرابع ، يعرف سيدى أحمد الرفاعي باهل المعرفة ، ويقول أنهم ثلاثة اصناف : صنف يمشون على قدم الافتقار والاضطرار . وصنف يمشون على قدم الاعتبار والانكسار ، وصنف يمشون على قدم الافتخار والاستبشار . قال تعالى : « فمنهم ظالم لنفسه ، الآية .

والنفس في مشهد المعرفة على مرتبتين : إما في لحظة المعرفة فهم في تربية الولاية ينتظرون الكرامة .. وإما في أرحم الراحمين ، فسبحان من خص من عبده من شاء ، وأعطاهم ثم دعاهم الى نفسه بفضله حيث قال : « وانيبوا الى ربكم » . فأجابوه

وانابوا اليه . فهم على اصناف شتى . فالتائبون يمشون برجل الندامة على قدم الحياء ، والزاهدون يمشون برجل التوكل على قدم الرضاء ، والخائفون يمشون برجل الهيبة على قدم الوفاء ، والمحبون يمشون برجل الشوق على قدم الصفاء ، والعارفون يمشون برجل المشاهدة على قدم الفناء .

فالمعرفة طعام أطعمه الله من شاء من عباده ، فمنهم من يذوقه ذوقا ، ومنهم من يأكل منه بلاغا ، ومنهم من يأكل منه كفافا ، ومنهم من يأكل منه شبعاً .

والناس في المعرفة على منازل ، فمنهم من يكون منزله منها كشعب ، ومنهم من يكون كقرية ، ومنهم من يكون كمصر ، ومنهم من يكون منزله منها كالدنيا والآخرة .



وفي الحديث الخامس قال سيدي احمد الرفاعي لجلسائه :

أى سادة .. للعارف أربعة أجنحة : الخوف ، والرجاء ، والمحبة ، والشوق . فلا هو بجناح الخوف يستريح من الهرب ، ولا بجناح الرجاء يستريح من الطلب ، ولا بجناح المحبة يستريح من الطرب . ولا بجناح الشوق يستريح من الشغب .

والله تعالى بين في كتابه نعمتهم « ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » ، وقوله تعالى : « لا تلهيهم تجارة » . الآية . وذلك لأن عمل العارف خالص للمولى ، وقوله مستأنس بالذكرى ، ونفسه صابرة في البلوى وسره دائم النجوى ، وفكره بالافق الأعلى . فمرة يتفكر في نعم ربه ، ومرة يجول حول سرادقات فحينئذ يصير حرا عبدا ، وعبدا حرا ، وغنيا فقيرا وفقيرا غنيا .

هكذا يعد ما أمكنه طردا وعكسا من الالفاظ ، مثل : الموجود والمعروف والعزیز ، والمسرور ، والقريب ، والمحمود ، والناطق والساكت . والمقبول والخائف ، والمشاهد والغائب . والباكي والضاحك . وذلك لأن ضحكك وسروره في حزنه . وحزنه في سروره . وعزه مختلط بذله . وذله مختلط بعزه . وخوفه ممزوج برجائه ، ورجاءه ممزوج بخوفه .. لا خوف يذهب برجائه ، ولا رجاء يذهب بخوفه . وهو بنفسه يعيش مع الناس معاملة قلبه مع الله تعالى . عزيز ذليل ، فقير غنى . كما قال « أبو يزيد » رضى الله عنه في مناجاته :

كلما قلت قد دنا حل قيدي

قيدونى وأوثقوا المسمارا

وكان يسيل الدمع من عينيه عند هذه الكلمة ، وليس كل من يرى عليه اثر الزهد فهو زاهد ، وكذلك اثر الرغبة والحماسة والخيون والبطالة والغفلة ..

ان الله تعالى كلما نظر الى قلب عبد من عبيده بالفضل والرحمة كشف عنه حجاب الغفلة ، وأظهر له لطائف القدرة ، فعند ذلك لا بد له من إحدى ثلاث : إما أن يصير حكيما يتصل به الخلق الى الله . وإما أن يكل لسانه فيصير مدهوشا مبهوتا . وإما أن يصير مستورا في حجب محفوظا في قبضته حتى لا يراه غيره لشدة غيظه عليه . فتسبحان من حجب أهل معرفته عن جميع خلقه ، حجبهم عن أبناء الدنيا بأستار الآخرة . وعن الآخرة بأستار الدنيا ، وذلك أن أهل المعرفة عرائس الله تعالى في أرضه ، والله محرمهم ، لا محرم لهم غيره ، فهم عند الله مخدرون .



وفي الجلسة السابعة .. يقول من بين مايقوله لتلامذته ومريديه :

أى سادة : إن الله تعالى عبادا اصطفاهم لمعرفة ، وخصهم بمحبته ، واختارهم لصحبته ، واجتباهم لمؤانسته ، وقربهم لمناجاته ، وحرصهم على ذكره ، وانطقهم من كاس محبته . وفضلهم على جميع خلقه حتى لم يريدوا به بدلا ، ولا سواء كفيلا ، ولا دونه ناصرا ومعينا ووكيلا .

ولقد سبقوا من دونهم سبقا ، لا بكثرة الأعمال ، ولكن بصحة الإرادات وحسن اليقين ، مع دقائق الورع والانقطاع بالقلب اليه ، وتصفية السر عن كل ماديون الحق ، فإذا أقامهم الله طعم لباب معرفته ، وأنزلهم في حظيرة قدسه ، لا يصبرون عن ذكره ، ولا يشبعون من بركه ، ولا يستريحون لغيره .

فيأطوبى لهم . هم الأقلون عددا ، والأعظمون خطرا ، بهم يحفظ الله محبته حتى يؤدونها الى نظرائهم ، فيأطوبى لهم . هم الزاهدون فيما رغب فيه الغافلون ، والمستأنسون فيما استوحش منه الجاهلون ، والمشتاقون الى ماهرب عنه الساهون . هم الذين نظروا بأعين القلوب الى حجب الغيب ، وجالت أرواحهم في الملكوت ، قَهْمَتْهُمْ في سرهم ، وسرهم عند ربهم ، به يستمعون وبه ينظرون وبه يريدون ، وبه يتحركون .. قلوبهم بحبها مستأنسة بأنسها .

لله قوم مصطفون لنفسه

إختارهم من سالف الازمان

إختارهم من قبل فطرة خلقهم

فيهم ودائع حكمة وبيان

وحول اهل المعرفة يقول سيدى احمد الرفاعى فى الجلسة التاسعة :

أى سادة .. من أراد أن يتكلم بلسان أهل المعرفة ، فينبغى أن يحفظ أدب كلامه ، فلا يكشف دقائقه الا عند أهله ، وأن لا يحمل المرید فوق طاقته ، ولا يمنع كلامه من كان من أهله ، ويكون كلامه مع أهل المعرفة بلسان المعرفة ، ومع أهل الصفاء بلسان المحبة ، ومع أهل الزهد بلسانهم : ومع كل صنف على قدر مراتبهم ومنازلهم وقدر عقولهم . فان الله تعالى جعل للعارف هذه اللسان . نعم كلها تتلاشى عند ظهور سلطان الحق ، وينبغى الا يتحدث بحديث لا يبلغ عقل المستمع اليه ، فيكون ذلك فتنة . فإن أكثر الناس جاهلون ، اشتغلوا بعلوم الظواهر ، وتركوا علم تصحيح الضمائر ، فلا يحتملون دقائق كلام العارفين . لأن كلماتهم لاهوتية وإشاراتهم قدسية وعباراتهم أزلية . فلذلك ينبغى للمستمع أن يكون معه السراج الأزل والنور الديمومى ، ويقال : لسان الحال أفصح من لسان المقال . فمن رضى بالحال دون ولى الحال صار مخذولا ومحجوبا عن ذى الجلال . وأى دهشة أشد من دهشة العارف ؟ .. ان تكلم عن حاله هلك ، وان سكت احترق . فمن ورد قلبه الحاضرة كل لسانه ، ومن غاب قلبه عن الحاضرة كثر كلامه .

بين المحبين سر ليس يفشيه

خطر ولا قلم عنه فيحكيه

نار تقابله ، أنس يمازجه

نور يخبره عن بعض مافيه

شوقى اليه ولا ابغى له بدلا هذى سرائر كتمان تناجيه

وقد كان سيدى ، احمد الرفاعى ، يطلب من تلامذته ومريديه دائما ان يسالوه .. وكان رحمه الله مستعدا دائما ، جاهزا دائما .. وهذا ما حدث فى الحديث الثانى عشر ، حيث يقول :

اى بنى .. اعلم ان لكل شىء مفتاحا ، ومفتاح العلم السؤال . فان قدر المريد على ان يجالس اهل المعرفة فيقتبس من علمهم وتحقيق رمزم وطائف إشاراتهم ، فبغ بغ ، فإن شرف العلماء الربانيين أكبر من أن يدركه أحد غير الله ، لأنهم أجباء الله . وأبناء سره . فليفتنم حرمتهم ، ويحرك خواطرهم بحسن السؤال . فإن أمواج خواطر العارفين لا تنفى عجائبها ، وكفى للمرء جهلا إمساكه عن التعليم ، واستكفاؤه بما عنده ، وقد قال الله تعالى :

« فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون » . وقال النبى ﷺ « جالسوا الكبراء وسألوا العلماء » ..

ويواصل سيدى « احمد الرفاعى » فى الحديث الثالث عشر ما بدأه فى الحديث قبله . فيقول :

اى بنى .. اعلم ان العارف بأسرار المريدین على همم العارفين ، كلف العباد وقاء صدق العبودية ، ثم بين لهم تحقيق شرائطها ، كيلا يتجاوزوا حد العبودية الى حد الربوبية ، وحد الفقر الى حد الغنى ، قال تعالى : « يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله » . الآية . وجعل لكل شىء سببا . فجعل المخرج من عبودية المخلوقين القيام بصدق قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » .. من عبودية سواه ، ويرزقه المؤانسة والمحبة ، والشوق اليه من حيث لا يحتسب . ومعنى آخر : ومن يتق الله بحفظ السر عن أفات الالتفات إلى ما سواه يجعل له مخرجا من حجب الابعاد ، ويرزقه المشاعدة والوصلة من حيث لا يحتسب .

وقال الإمام الرفاعي في الحديث الخامس عشر ، مضيئاً :

أى بنى . إعلم أن معرفة النفس أحد أصول العبودية . وقل من يعرفها ، وعز وجود من يتمنى عرفانها . وما خلق الله تعالى في الدارين سجناً أضيق على العارف ولا أوحش ولا أنتق من النفس ، فمن عرفها على التحقيق وخالف أمرها ، فكل أرض له ثغروطرسوس . ومن غفل عن معرفتها ، فهو على خطر عظيم ، ولا يسلم من شرها . فإن من لا يعرفها كيف يقوم بمخالفتها . قال « أحمد بن حرب » إنى اشتى أن أموت ، ولو ساعة ، حتى أعرف نفسى وأخالفها .

ومن نماذج تفسير الأحاديث في جلسات سيدى « أحمد الرفاعي » ، « بام عبيدة » .. ما قاله في الحديث التاسع عشر .. وهو تفسير في الواقع ينحو إلى السلاسة ، وفي نفس الوقت إلى العقلانية ..
في الحديث النبوى الذى يقول : « إن من حسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، الحسنة بعشر أمثالها ، فكانك صمت الدهر كله » .. يقول سيدى « أحمد الرفاعي » تفسيراً له :

في هذا الحديث الشريف أسرار ، منها البشارة بتواصل نور الأعمال بنور الأعمال من دون انقطاع ، وإن تباعدت الأوقات . ومنها مضاعفة ثواب العمل لهذه الأمة .. الحسنة بعشر أمثالها ، لتنشط قلوبهم لعمل الخير . ومنها الأمر بعدم التكليف إلى أن يفضى بالعبد إلى السأم والملل . ومنها لزوم التذكرة لأنظم القلب الغفلة ، ومنها الإيمان القطعى بوعد الله وحسن كرمه .. كل هذه الخصال ، خصال العارفين الذين انقطعوا عن كل الهموم الدنيوية والاخرية ، وصار همهم ربهم ، ومن كان همه ربه فلا هم له .

وحديث نبوى آخر يقول : « لاتحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تجسسوا وكونوا إخواناً كما أمركم الله تعالى ،

ويفسر سيدى « أحمد الرفاعي » ، هذا الحديث فيقول : هذا الحديث الشريف تضمن من أسرار المعرفة بالله العجائب ، فإنه أمر بالتخل عن الصفة الابليسية . وهى الحسد . ثم بالتجرد من الصفة النفسانية ، وهى البغض لغير الله تعالى . وبالترفع عن الصفة السافلة الهوائية وهى التجسس . ثم بعد أن أكمل درجات التنقية أمر برؤية عدم الفرقية بين المرء وبين إخوانه ، وأن هذا أمر من الله تعالى . وإذا كملت للعبد هذه الخصال

فقد أحكم شأن المعرفة بالله ، ومن هذا السر قول سيدنا « علي » كرم الله وجهه ورضي عنه عن عرف نفسه ، فقد عرف ربه .

أي بني ، أعلم أن العبد بين الله وخلقه إن التفت عنه إلى الخلق تجرد عن الحق ، وصار أي بني ، أعلم أن العبد بين الله وخلق إن التفت عنه إلى الخلق تجرد عن الحق ، وصار متروكا محروما مخلولا . وإن التفت إلى الله عن الخلق ، قربه منه وحببه له ، ولم يحتمل منه الالتفات إلى شيء سواه ، فإنه إن نظر إلى شيء دونه ، عذبه الله بذلك الشيء ، وجعله وبالا عليه . أما ترى أن إبليس لعنه الله نظر إلى نفسه ، وقال عن آدم : أنا خير منه فلعنه ، وقارون نظر إلى ملكه وقال : إنما أوتيته على علم عندي فحسف الله به وبداره الأرض . وكذلك الملائكة نظروا إلى تسييحهم وتقديسهم ، حيث قالوا : ونحن نسيح بحمدك وتقديس لك . فابتلاهم الله تعالى بالسجدة إلى آدم . وكذلك كل من قال : أنا ، يقول الله تعالى : لا بل أنا ، ثم يرده إلى أسفل السافلين ، وكل من يقول : أنت الله يرفعه إلى أعلى عليين .

والالتفات على وجهين : إلتفات العين واللتفات القلب . فإلتفات العين مثل ما قال الله تعالى « لمحمد » حبيب عليه الصلاة والسلام « لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به » الآية . ثم من عليه لما عصمه ، حيث قال تعالى « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » . ثم مدحه بترك الالتفات إلى ما سواه في قوله تعالى : « عزازخ البصر وما طغى » .. ثم أثرت ذلك الترك الكلي بأن وقع له الحجاب حتى رأى ما رأى .. بخلاف ما حدث لسيدنا موسى كما جاء في قوله تعالى : « قال رب أرني أنظر إليك » ، قال أنظر إلى الجبل وإن ترأني .. بعد أن نظرت إلى غيري .



وفي الحديث الشريف « المرء مع من أحب » .. كانت الجلسة السابعة والعشرون في « أم عبيدة » وحوله يقول الإمام الرفاعي :

في هذا الحديث الشريف من الإلزام بمحبة أحبب الله ورسول الله ﷺ ما فيه من بلاغ للموقنين وهدى للمعتقين ونور للعارفين . فإن من تدبر سر المعية ، التي أقصحبها النص الاشراف ، أنسلخ الامن محبة الله تعالى . ومحبة من أحبه الله وأحب الله ، وكذلك العارفون رضى الله عنهم . ومن العارفين من هم أهل القلوب المتيرة ، أصحاب صفاء السريرة والعمدة على القلوب .



ويفسر سيدي أحمد الرفاعي الحديث القدسي : « كلمة لا اله الا الله حصني فمن قالها دخل حصني ، ومن دخل حصني أمن من عذابي » .. بقوله : هذا الحديث القدسي ، الذي وصل اليهنا بالسند النبوي فيه من إعظام شأن كلمة التوحيد ما يزيد العبد ايماناً ، ويملؤه عرفاناً ، ويلزمه بالمداومة على الذكر بهذه الكلمة التي هي روح التوحيد ، وما على قائلها بعد الايمان بعبادتها ﷺ من بأس ، وكونها أخذة بالعبد الى الاقتدار الى الله تعالى ، والانتقار تحت عظمة فردانيته ، فلذلك صارت حصناً للعبد يثبت الله سبحانه وتعالى ..

وحول الحديث النبوي : « إذا راح احدكم الى الجمعة فليغتسل » .. يقول سيدي الإمام « الرفاعي » من درسه لو حديثه الثلاثين : هذا الحديث الشريف فيه من إعظام مناجاة الله الغاية . فان العبد اذا صلى تلجى ربه ، سيما في الجمعة ومشهد ما غيظه من أعظم مشاهد الحضرة ، والاعتسال عبارة عن غسل القلب والقلب من الموجودات .. هذا مع ما فيه من فضيلة التطهر الشرعي . وهذا سر من أسرار الاغتسال . ولم يكن من حكم شرعي الا وفيه من الأسرار الباطنة والظاهرة ما تحيرت له العقول .

وحديث آخر للرسول ﷺ يقول : « من ولد له مولود فسماه محمداً تبركاً به كان هو ومولوده في الجنة » . يقول الإمام « الرفاعي » في الجلسة الرابعة والثلاثين : في الحديث الشريف من سر الحب له ﷺ ، ما يفهمه أهل الخصوصية ، فإتهم يذكر اسمه البياح ترتاح همهم للتخلق بأخلاقه الزكية ، وللتشبث بأقواله ، فتراهم لا تنف همهم في طريق متابعتة وقفة المشغول بالدنيا ، بل هم متنبهون خاشعون ، ومن الله خائقون ، ولنبينهم متبعون ، ويسنته عاملون ، وأولئك هم العارفين .

هذا هو بعض فكر سيدي « أحمد الرفاعي » .. وما كان يحدث فيه مع مريديه . ولا شك ان هذا الفكر لا يتفق مع من ينتسبون الى طريق سيدي « أحمد الرفاعي » ، أو ينسبون هم أنفسهم اليه .. وهم جهلاء ورجالون . إن طريق سيدي « أحمد الرفاعي » طريق الله .. طريق التصوف الحقيقي ، طريق الفقراء الى الله . وهو طريق من يقول عنه « الإمام الشعرائي » في طبقاته : « .. اليه انتهت الرئاسة في علوم الطريق ، وشرح أحوال القوم ، وكشف مشكلة منازلهم ، وتتملذ له خلق لا يحصون ، وهو أحد من قهر أحواله ، وملك أسرارهم » . ولقد صدق الإمام الشعرائي رضي الله عنه ..

ويبقى بعد ذلك أن نقول بعدما أوردنا أن سيدي « أحمد الرفاعي » مدفون بقرية « أم عبيدة » في العراق ، ومقامه الشريف هناك ... فماذا عن مسجد سيدي أحمد الرفاعي في حى القلعة ؟ !

الواقع أن هذا المسجد يعتبر من أروع الآثار في مصر الإسلامية . وقد أنشئ عام ١٢٨٦ الهجرى ، واستغرق بناؤه عشرين عاما .. وتربو مساحته على عشرة آلاف متر مربع .. ويضم المسجد ضريحين .. ضريح الشيخ على أبى الشباك وقد ولد والده الى مصر عام ٦٨٢ الهجرى . وبالإضافة الى ضريح سيدي على أبى الشباك ، فيضم المسجد أيضا ضريح الشيخ يحيى الأنصارى ... وهو أيضا ينتسب الى سيدي الامام الرفاعي .

وتقول الدكتورة سعاد ماهر : إن والد أبى الشباك تزوج حفيدة الملك الأفضل ، أحد أمراء المماليك في عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون ، فأنجب منها ولده « عليا » . وقد رحل أحمد الصياد ، حفيد الامام أحمد الرفاعي عن مصر قبل أن يولد ابنه على ، فبقى في كنف أمه وأهلها في مصر واتخذ طريقة جده ..

وتضيف الدكتورة سعاد ماهر : على أن سيدي على أبى الشباك ، حفيد الامام أحمد الرفاعي ، لم يكن هو أول من دعا إلى الرفاعية في مصر ، فقد سبقه الى ذلك الشيخ أبو الفتح الواسطى ، الذى وفد الى مصر ، من العراق في أوائل القرن السابع الهجرى ..

أعلام
التصوف
الاسلامى

سَيِّدِي أَبُو الْحَسَنِ الشَّاذِلِي

كلام هذا الرجل
قريب العهد من الله



شيخ مهيب الطلعة .. كن كشيب علما وحية .
نحيف الجسم من طول التهجذ والتعبد والتلجاة .
طويل القامة ، خفيف العارضين ، طويل اصابع اليدين بشكل ملحوظ .
في لسانه فصاحة .. وفي حديثه عنوية .
وهذا الشيخ كن دائم الاهتمام بزيئته وهندامه .
وعلى غير العادة ، لم يكن يعتمد قط ان ياكل الخليط من الطعام ، او يلبس
الخشن من الثياب .

تعجب الكثيرون حينما قل لاحد مريديه : ياغنى برد الماء ، فلك اذا شربت
الماء السخن ، فقلت الحمد لله ، تقولها بكزارة .

واذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله .. استجاب كل عضو منك بالحمد
لله ..

كن يلبس الفاخر من الثياب ، ويركب الفاره من الدواب .. ويتخذ الخيل
الجياد . واذا ركب في المواسم ، يعشى اكبر القراء واكبر الدنيا حوله . وتنتشر
الاعلام والبيارق فوق راسه وتضرب الكسكسات بين يديه .

مذهب هذا الرجل كن صرخة جديدة غيرت المفاهيم ، او هي اعدتها الى
اصولها . دعا الى طريق متعدد .. طريق الله ، واصبح شيخه وقطبه . وكن
طريقه كما وصفه ، ليس بالرهبانية وياكل الشعير والنخالة ، ولا ببقية
الصناعة .. وانما هو بالمصير على الاوامر ، واليقين في الهداية ..

ساح في دنيا الاسلام في القرن السابع الهجرى . ولم تكن سيلاحته من اجل
تغيير هواء ، او مغامرات للتسلية .. كانت تلك السيلاحات هجرة الى الله . ليربى
الرجل ، ويتزود بالزاد .

وفي سيلاحته ، سكن المغارات وتسلق الجبال وخاض الصحراوات واكل
العشب والحشائش ، كما اكل طيب الثمار .

حين زار مصر ، إهتزت الدنيا لزيارته .. وحين استقر بها في مختتم حياته ..
سكن احد ابراج سور الاسكندرية .. وكان المریدون يتزاحمون حوله .. وحين كان
يجلس في الاسكندرية في جامع العطارين ، او يجلس في القاهرة في المدرسة
الكاملية .. يتكوب على مجلسه اكابر العلماء ، لازمين الادب والصمت ،
مصيخين السمع فاتحين العقول والقلوب .. لانهم تكدوا بان كلامه « قريب
العهد من الله »

ثلاثة وستون عاما عاشها هذا الرجل بين ولادته في المغرب ، وموته على
ساحل البحر الاحمر .. وداخله نفس صافية ، أمنت بالله وتعمقت الايمان .

كان كما وصفوه في العلم في الغاية ، وفي الزهد في النهاية .
وكان يقول لتلاميذه ومريديه : « إلزم بابا واحدا ، تفتح لك الابواب ..
واخضع لسيد واحد ، تخضع لك الرقاب ،

وحين كف بصره في أخريات حياته .. لم يعقه هذا .. لأنه كما قال : قد
انعكس بصره في بصيرته ، فصار كله مبصرا .

إخترته العناية الالهية ليدعو الى الله على هدى الكتاب والسنة ويحرص
على كل مظاهر الدين القويم ، المثبت بسياج الشرع المكين الرجل هو الشريف ،
المالكي المذهب ، والقطب الفوث ، ابو الحسن الشاذلي رضى الله عنه ، مؤسس
الطريق الذي نسب اليه ، والذي تفرعت عنه عشرات الطرق .

« الشاذلي » معناه الحرقي هو : المفرد لخدمتي ومحبتى .



الرحلة .. طويلة ومثيرة ، كلها مجاهدة .. منذ ولد هذا القطب

في قرية صغيرة بالمغرب الاقصى اسمها « غمارة » .. القرية من سبته ، في عام
٥٩٢ الهجرى « ١١٩٦ الميلادى » .. وحتى لاقى وجه ربه في « خميثر » او
« خميثره » على ساحل البحر الاحمر بين « قنا » و« القصير » عام ٦٥٦ الهجرى
« ١٢٥٨ الميلادى »

وخلال هذه السنوات - ٦٣ عاما - كتب التاريخ دقائق حياة هذا الشريف المسلم ،
أحد أحفاد الامام الحسن بن الامام علي بن ابي طالب .. رضى الله عنهم جميعا . لهث
التاريخ وراء سيرته العطرة في غمارة ، وبغداد ومكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وشاذله
، وتونس ، والاسكندرية ، والقاهرة . كما لهث التاريخ وراءه أيضا في الصحارى
وداخل القرى والمدن ، وفي بطون المغارات ، وعلى سفوح الجبال وقممها ، وعلى
شواطئ البحار .. وبين هذى وتلك تجمع سفر على اقيم ما يكون يضم صولات الرجل
وجولاته .. حين عقدت له الولاية والقطبانية .. وصور مجالسه العلماء والسلاطين ،
وعلاقاته بالفقراء كما صور لقطات كثيرة من مجالسه في العلم والمناظرات والمناجيات .

وبقى من هذا الولي الصالح بعد موته في « خميثر » .. مريدون كتبوا شذرات
من سيرته وحياته وصلت إلينا .. أهمها ماكتبه « ابن عطاء الله السكندري » تلميذ
تلميذه « ابي العباس المرسى » ..

له مقام في تونس .. كذكرى فوق جبال « زغوان »

وقبته التي تظلل جسده الطاهر في « خميثر » على شاطئ البحر الاحمر
بالإضافة الى انه أيضا له مملكة وسلطان داخل وجدان وقلوب ملايين المؤمنين
والمريدين ، والخلفاء ، والأتباع .

سيدى « ابو الحسن الشاذلى » ، رضى الله عنه وأرضاه ، ينتمى الى قبيلة
« عمران » في المغرب ، وهى ذات القبيلة التى ينتمى اليها سيدى « عبد الرحيم
القنائى » المدفون في صعيد مصر ، وهو من اسرة شريفة علوية .. هاجرت مع من
هاجروا من المشرق الى المغرب بعد مأساة كربلاء التى استشهد فيها سبط الرسول ،
ﷺ .. الامام « الحسين بن علي » في عام ٦١ للهجرة . وهذا يتضح من شجرة نسبه
التي أوردها - بعد تحقيقها - « ابن عطاء الله السكندري » في كتابه « لطفاء المنن »
فهو ابو الحسن الشاذلى الحسنى : علي بن عبد الله عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن
حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطل بن احمد بن عيسى بن محمد بن
الحسن بن علي بن ابي طالب . هذا من ناحية ابيه .. اما من ناحية أمه فهى تنسب الى
الامام الحسين بن علي بن ابي طالب .

في قرية « غملرة » نجياً في رحاب الايمان ، وأخذ يدرس العلوم الدينية ، وسائل
وغليات . وفتح الله عليه فبرع في هذه العلوم بزيادة كبيرة ، شددت اليه . وهو حدث
صغير - الاثمن ..

لكنه لم يكتف بهذه العلوم . فقد أيقن ان العلوم الظاهرة ، مهما بلغت بها الدقة ،
ومهما بلغ بها العمق ، لا تقضي بالنفوس الطموح الى التطلع الى عالم الغيب ،
واستشراف آلائه واتواره . والنفوس الطموح ، كلما ازدادت علماً ازدادت شعوراً
بالتقص ، وهذا يجعلها تبحث اكثر فأكثر .. حتى ان الاجسام تنعب في مرادها ..

كانت نفس « ابي الحسن » رضى الله عنه سبلة طموح
شعر بالرغبة الملحة في القرب من الله ، وإن يستضيء قلبه بانوار المعرفة
غير الموجودة في علوم الظاهر .. وصولا الى الشفافية ، واسرار الباطن .
وتساعل في نفسه : من اجل ان يتحقق هذا الهدف ، ما هي وسائله ؟

والجواب : انه لا بد ان يبدأ طريقه من خلال استقراء خير في هذا العلم الرياني .
وفكر . وانتهى به التفكير الى عزمه على السفر الى « بغداد » ، محط انظار طلاب
المعرفة في وقته لأنها تضم كبار الفقهاء ، واعلام للحديث ، والقيم العالية من
الصوفية . كما تضم كبار الساسة والقادة للمسلمين .



وكان سيدي « ابو الحسن الشاذلي » ، قد استقر رايه على اختيار طريق
التصوف والتبحر فيه ..

وبالفعل التقى الشاب القادم من المغرب - غرب عالم الاسلام - في « بغداد »
بمجموعة من الاولياء ، وعلى رأسهم الامام ، « ابو الفتح الواسطي » ، امام زمانه
وعلم وقته ، والذي شهد له « ابو الحسن الشاذلي » ، بتبحره حين قال : « لما
دخلت العراق ، اجتمعت بالشيخ الصالح ابي الفتح الواسطي . فما رايت
بالعراق مثله ، ..

تصور هذا الشاب القادم من الغرب بقامته الطويلة ، وهو يتردد على « ابي الفتح
الواسطي » وغيره من علماء بغداد في مدارسهم وحصولهم وهو يبحث ويبحث ،
ويفتح لذهنيه لكل كلمة تقال . لقد شاهد كثيراً من الانوار على وجوه علماء بغداد ،

والصلاح يرتسم على سبيلهم . لكنه ظل قلقا في بغداد وسط هذا البحر الزاخر . تأتينا
في عاصمة العلم والطعام .. ما هو السبب ؟

السبب - كما يقول فضيلة الامام الاكبر الدكتور عبد الحليم محمود - في كتابه
« ابو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد والعارف بالله » انه لم يجد مطلبه الذي
جاء من اجله .. لم يجد القطب الذي يمكن ان ينير له « الطريق » ويأخذ بيده اليه ..
ويبدو ان « ابا الفتح الواسطي » لاحظ عليه هذا التوتر .. ولهذا كما يقول « ابن
الصباغ » في كتابه « نورة الاسرار » قال له هذا العالم ذات مرة : « يبدو انك تبحث
عن القطب بالعراق - معني ان القطب ببغداد .. ارجع إلى بلادك تجده » !!

هنا تتفرج أسارير الشاب ، ويذهب عنه التوتر ، وبعد عدة لرحلة العودة الى
بلده .. بعد ان لم يوفق في اختيار مكان للقطب ، الذي جعل معه الكبير ان يلتقى به .

ويعود الشاب من حيث أتى .. حيث يجد الرجل - والرجل هو الشيخ
« عبدالسلام بن مشيش » يسكن في مقبرة على رأس جبل ، ومعهُ تلميذه الجنيد .

يصف « ابو الحسن » اللقاء بينه وبين « ابن مشيش » ، فيقول : « اختلفت
باسأل الجبل ، وخرجت من علمي وعقلي . وطلعت اليه فقيرا ، واذا به غني
علي ، وعليه مرقعة - وعلى رأسه القنوة من خوص . فقال لي : مرحبا بعلي بن
عبدالجبيل . وتكرنسي الى رسول الله ﷺ . ثم قال : يا علي .. طلعت اليينا فقيرا
من علمك ومن عملك . فالتفت منا غني الدنيا والآخرة .. فالتفتي منه الدهش ،
فالتفت عنده ايلاما ، الى ان فتح الله علي بصيرتي » .

كانت هذه هي البداية الاصطفائية : كما تقول الصوفية ، لسيدى « ابى الحسن
الشاذلي » . فقد التقى الوارث مع الورث ، أو المرید مع شيخه .

وعلى حد وصف « ابن عيلا » صاحب « المفاتيح العلية » . فقد كان مقام ابن
مشيش في المغرب ، كمقام الامام الشافعي في مصر .

لقد كان « ابن مشيش » - كما يقول علي سالم عامر في كتابه « ابو الحسن
الشاذلي » - متمسكا بالكتاب والسنة ، علمائهما ، ملتزما لهما ، وهو القائل : افضل
الاعمال اربعة بعد اربعة : المحبة لله ، والرضا بقضاء الله ، والزهد في الدنيا

والتوكل على الله . هذه أربعة . أما الأربعة الأخرى فهي : القيام بفرائض الله ، والاجتناب لمحارم الله ، والصبر عما لايعنى ، والورع من كل شيء يلهي .

وكما يصفه صاحب « الدرر البهية » ، كان ابن مشيش الذى التقى به أبو الحسن : هو القطب الأكبر ، والعلم الأشهر ، والطود العالى السنام ، وهو البدر الطالع الواضح البرهان ، الغنى عن التعريف والبيان ، المشتهر فى الدنيا قدره ، والذى لا يختلف على « غوثيته » اثنان . فقد قضى عمره فى العبادة ، وقصد للانتفاع به أهل السعادة .

لكن .. ماذا قال « ابن مشيش » ، « للشاذلى » فى المغارة ، لكى يفتح الله عليه بصيرته ؟

من كلام « ابي الحسن الشاذلى » ، نعرف أن وصية استاذہ الاول ، تتلخص ، فيما قال له : حدد بصر الايمان تجد الله فى كل شيء ، وعند كل شيء ، ومع كل شيء ، وفوق كل شيء ، وقريبا من كل شيء ، ومحيطا بكل شيء ، بقرب هو وضعه ، وباحاطة هى نعته . بعد عن الظرفية والحدود ، وعن الاماكن والجهات ، وعن الصحبة والقرب بالمسافات ، وعن الدور بالمخلوقات .. وامحق الكل بوصفه : الاول والآخر والظاهر والباطن .. كان الله ولا شيء معه .. .

، والواقع أن المريد إنبهر بشيخه . إنبهر بعلمه المشيد على الكتاب والسنة ، وأنبهر بولايته وكراماته . لقد رسم « ابن مشيش » « لأبى الحسن » الطريق ، فيما يستقبله من ايام ، ووضع فيه البذرة التى نمت وترعرعت .

وحين اغترف « ابو الحسن » من استاذہ كل ما استطاع ان يغترف .. قال له الاستاذ : يا على ، ارتحل الى افريقية ، واسكن بها بلدا تسمى « شاذله » ، فان الله عز وجل يسميك « الشاذلى » . وبعد ذلك تنقل فى مدينة « تونس » ويؤتى عليك بها من قبل السلطة ، وبعدها تنتقل الى ارض المشرق : وبها ترث القطابه .

وقد كانت آخر وصايا « ابن مشيش » لمريده ، لما حان موعد الفراق ، هى :

« يا على .. الله الله .. والنفس النفس . نزه لسانك عن ذكرهم ، وقلبك عن التمايل من قبلهم . وعليك بحفظ الجوارح واداء الفرائض . وقد تمت ولاية الله عندك . ولا تذكرهم الا بواجب حق الله عليك ، وقد تم درعك » .

وهنا يفترق « أبو الحسن » عن استاذة ، ويسير في طريقه المرسوم .. حتى ليقول مؤرخوه ، ان كل ما قاله « ابن مشيش » « لأبي الحسن » وكل ما توقعه قد تحقق .

حث « أبو الحسن » الخطى الى « شاذله » .. وصعد هناك الى جبل « زغوان » .. وصعود الجبل هنا - كما أراه - يرمز الى بداية علوم مقدار سيدي « أبي الحسن » . أى أنه بدأ الطريق المتصاعد .

وقد وافق « أبا الحسن » في صعود الجبل ، « أبو محمد عبدالله بن سلامة الحبيبي » ، من اهل « شاذله » ، وكان رجلا تقيا صالحا .

ويفسر د . « عبدالحليم محمود » هذه الرحلة الى الجبل .. ويعود بها الى فائدتين بالنسبة لأبي الحسن الشاذلي :

الفائدة الاولى : هى اتاحة الفرصة لتفرغه للعبادة . ولابد من هذا التفرغ مادام الانسان لم يأت الاذن بالدعوة . لابد من التفرغ ، لاستكمال نقص ، او للبعد عن الفتنة او للتغلب على آثار هوى . ولابد من هذا التفرغ استجماما روحيا ، وعلاجاً نفسيا ، وبعثا لكوامن الفضائل ، ولابد للتفرغ ليرقى مدارج السالكين ، وليحقق العروج في مدارج القدس ، وليسرع الخطى متدرجا في منازل الارواح ، ولابد من التفرغ ، فرارا الى الله « ففروا الى الله » و .. « وعجلت إليك رب لترضى » .

اما الفائدة الثانية : من الذهاب الى جبل زغوان ، فانها منع اللاهين المتطفلين من الجلوس على مائدة الشيخ الروحية . ذلك انه سوف لا يذهب الى جبل زغوان لرؤيته الا محب للمعرفة ، جاد في طلبها .

والواقع ان سيدي « أبا الحسن » أخذ يتعبد في الجبل فترة طويلة ، وكان الوحيد معه في هذه الفترة ، الشيخ الصالح « أبو محمد الحبيبي » .

وكانت حياتهما في الجبل على نبات الأرض وأعشابها ، حتى انه كثيرا ما كانت اشداق « الحبيبي » تتقرح ، فيشفق عليه « أبو الحسن » ويهبط من الجبل الى « شاذله » ليجد له الغذاء الذى لايفريه . ويقال ان سيدي « الحبيبي » قد شهد فوق الجبل من استاذة احوالا ومقامات كثيرة .

وحياة كهذه ، كما يرى . . « عبدالحليم محمود » ، لا بد لها من أن تثمر .
لا بد لها من ثمارها من الكرامات ، ومن شفافية النفس ، ومن القرب من الله ومن
رضوانه سبحانه ، ويقال أن الله سبحانه أتبع لسيدى « أبى الحسن » وسيدى
« الحبيبي » في الجبل عينا تجرى بماء عذب ليشرىا منها .. وهذا ليس بغريب في مثل
هذه الحالة .

إن المريدين الصادقين ، في أول طريقهم إلى الله - كما يرى الإمام « الغزالي » ،
في « المنقذ من الضلال » ، تتبدى لهم المكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم لا يفتنهم
بشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منها أصواتا ، ويقتبسون منها
فوائد .. وهذا وأكثر منه حدث « لأبى الحسن » .. رَوَاهُ سِيدِي « أَبُو مُحَمَّد
الحبيبي » .

وتنتهى فترة العزلة ، فترة التدريب والصقل الروحي ، لينزل « الشاذلي » من
جبل زغوان إلى تونس ، حين سمع النداء : « يا علي : اهبط إلى الناس ، ينتفعوا
بك » . وفي « تونس » سكن « الشاذلي » في مسجد « البلاط » دارا تفتح للقبلة .

والحقيقة التاريخية ، أنه بمجرد أن دخل « تونس » ، التف حوله جماعة من
الفضلاء ، ومنهم الشيخ أبو الحسن علي بن مخلوف الصقلي ، وأبو عبد الله
الصابوني ، وأبو محمد عبدالعزيز الزيتوني ، وأبو عبد الله البجائي الخياط ، وأبو
عبد الله الجارحي . هؤلاء كلهم ، ومن بينهم الشيخ ماضى أبو العزائم تلميذ الشيخ
وخادمه - كما وصفهم ابن الصباغ - أصحاب كرامات ومكاشفات .

ويوما بعد يوم كثر المريدين حتى اجتمع على أبى الحسن خلق كثير ...

وفي « تونس » أيضا .. دخل أبو الحسن علي « أبى سعيد الباجي » ، رحمه
الله ، فلخبره بحاله قبل أن يبيده « أبو الحسن » وتكلم عن سره .. حتى أن « أبا
الحسن » وصف هذا الشيخ بقوله : « قعلمت أنه ولي الله تعالى ، فلازمته وانتفعت
به كثيرا » .

لكن كثرة المرادين أوغرت صدر قاضي قضاة تونس « ابن البراء » ، مما جعله يحقد على « أبي الحسن » ، ويعلم الحرب عليه ويكيد له . وكان « ابن البراء » في تونس فقيها ، ويعتبر نفسه زعيما بلا منازع في عهد السلطان « أبي زكريا » . كان يتخيل أن له شعبية ، مع ماله من منصب رسمي . وصور له خياله المريض ، أن « أبا الحسن » إنما جاء « تونس » لينتزع منه جاهه وزعامته .

وقال « ابن البراء » للسلطان : - أن ملكك في خطر من هذا الرجل . ويبدو أن « أبا زكريا » أراد أن يتحقق من كلام قاضي القضاة ، فجمع كوكبة من الفقهاء في « القصبة » وجلس هو خلف حجاب يسمع ما يقوله « أبو الحسن » وما يقرئ له . وقد خرج « أبو الحسن » من هذا الامتحان شيخا مهيبا ، وإن كان لا يزال في شرح الشبَاب والفتوة . شعر السلطان - ومعه الفقهاء - في كلام « أبي الحسن » نضجا في العلم والتفكير ، وروحانية في الحديث ، وشفافية في البصيرة . ولذلك قال « ابن البراء » : هذا رجل من أكبر الأولياء ، وملك به طاقة .

لكن « ابن البراء » لا يستسلم ، ويلوح للسلطان بالخطر على عرشه من « أبي الحسن » ، ويقول له : « والله لئن خرج في هذه الساعة ، ليدخلن عليك أهل تونس ، ويخرجونك من بين أظهرهم ، فهم مجتمعون على بابك » .

ويخاف السلطان ، فيستبقى « أبا الحسن » ، ويأتين للفقهاء بالخروج . هنا يجلس « أبو الحسن » ساكنا هادئا ، ويطلب ماء وسجادة ، فيتوضأ ويصلي .

لكن تحدث أشياء في قصر السلطان . تموت جاريته المفضلة لديه . ثم بينما هو يسير في جنازتها تحرق النار كل ما في قصر السلطان . وهنا - كما يقول الدكتور « عبدالحليم محمود » - يدرك السلطان أنه أصيب من قبل هذا الولي .

وفي رواية أخرى ، يقولون أن السلطان حين أبقى « أبا الحسن الشاذلي » ، جاءه أحد طلابه يبكي ، فقال له « أبو الحسن » : والله لولا أنني أتأب مع الشرع ، لخرجت من هنا ومن هنا . وأشار بيده . وكلما أشار إلى جهة انشق الحائط . ثم قال لمريده : إنتنى بإبريق وسجادة ، وسلم على أصحابي ، وقال لهم ما تغيب عنكم إلا اليوم ، وما نصلي المغرب إلا معكم ، ثم تأتي بقية القصة التي ذكرناها ...

ومن عجب أن اخا السلطان ، وكان من مريدي « ابي الحسن » كان قد خرج إلى اطراف المدينة لقضاء بعض الوقت ، فلما عرف بما حدث للشيخ غضب على أخيه السلطان ، وأخذه إلى « ابي الحسن » ، ليسترضيه .

لكن ماذا عن « ابن البراء » ؟ . يقولون انه في أخريات حياته منى بالكثير ، ولم يختم له بخير . إذ ان « ابن البراء » لم يكف عن الايذاء ، حتى كان « ابو الحسن » يقابله ويلقى اليه السلام فلا يرد عليه .. وكان « ابو الحسن » أيضا يقابل الاساءة بالمعروف والصفح ..

عزم « أبو الحسن » على أداء مريضة الحج ، فأمر أصحابه بالنقلة إلى المشرق قبل موعد الحج بزمان طويل لتتاح له فرصة يمكث فيها بمصر فترة ، قبل الذهاب إلى الديار المقدسة . ولما علم السلطان « أبو زكريا » بعزم « ابي الحسن » على الرحيل ، ذهب يرجوه العودة بعد الحج . وقد وعده « ابو الحسن » ، وقال له : ماخرجت إلا بنية الحج ان شاء الله ، ولكن اذا قضى الله حاجتي اعود ان شاء الله . ونهضت تونس تودع الشيخ وركبه .

لكن قبل ان يدخل « ابو الحسن » وأصحابه « الاسكندرية » ، كان قد سبقه عقد من « ابن البراء » إلى سلطان مصر ، يقول فيه إن القادم اليكم شوش علينا بلادنا ، وكذلك يفعل في بلادكم . وهذا العقد موقع عليه من شهود ولذلك فبمجرد ان نزل « ابو الحسن » الاسكندرية ، حددوا إقامته هناك .

على ان « ابا الحسن » لم يعبأ بذلك ، حتى أنه حين أتى اليه بعض العربان يشكون له جور السلطان ، وعدمه خيرا . وقد خرج « ابو الحسن » من « باب سدرة » يقصد السلطان بالقاهرة ، أمام جند الحراسة .. دون أن يشعروا به وبرجاله . وفي القاهرة ذهب « ابو الحسن » إلى القلعة ليلتقي بالسلطان .. الذي قال له : جئت تشفع في القبائل .. اشفع في نفسك ؟ وأطلعه على خطاب « ابن البراء » اليه .

وتقول الرواية ان ابا الحسن رد على السلطان بقوله : « انا وافت والقبائل في قبضة الله » . ثم قام ومشى قدر العشرين خطوة . فلما حركوا السلطان لم يتحرك أو ينطق .. فهرولوا على الشيخ يقبلون يده ويطلبون الصفع . فرجع إلى السلطان وحركه فتحرك . وهنا ينزل السلطان من على كرسيه معتذرا لأبي الحسن ، ويكتب لواليه على الاسكندرية ان يرفع الغبن عن القبائل ، ويرد اليهم جميع ما أخذ منهم .

لم يمكث « أبو الحسن » كثيرا بالقاهرة .. وانما واصل الرحلة الى الحج حيث ادى الفريضة ، وقام بزيارة رسول الله ﷺ ، ويقول « ابن الصباغ » ، إن « أبا الحسن » حين قدم الى المدينة ، وقف على باب الحرم من أول النهار الى نصفه عريان الرأس حافي القدمين ، يستأذن رسول الله ﷺ . فستل لماذا ؟ فقال : حتى يؤذن لي . ثم سمع النداء فدخل . ووقف خاشعا أمام الروضة الشريفة يصلي ويسلم على رسول الله .. كما يصلي ويسلم على أبي بكر وعمر ...



وبعد رحلة الحج عاد الى تونس .. حيث لم تهدأ فيها ثورة « ابن البراء » عليه بل انها - كما يقول الدكتور « عبدالحليم محمود » - زادت بنسبة زيادة انوار الشيخ ، وزيادة اتباعه !

وفي تونس هذه المرة التقى بـ « أبي العباس المرسى » . وحينما راه قال قولته الشهيرة : « ما ردتني إلى تونس الا هذا الشاب » .. يعنى هذا أنه كان زاهدا في العودة . ولذلك فبعد ان عثر على خليفته .. استمر الشيخ لايبالي بمكاند « ابن البراء » حتى اذن له بالسفر الى الديار المصرية .. بعد أن رأى النبی ﷺ في المنام يقول له : « يا علي انتقل الى الديار المصرية ، تربي فيها اربعين صديقا » .

في الاسكندرية اقام الشيخ ببرج من أبراج السور ، حبسه السلطان عليه وعلى ذريته تبركا ، وقد تزوج الشيخ من الاسكندرية ، وانجب ذرية صالحة . وقد عاش في الاسكندرية ، هادىء النفس منقطعا لعبادته ودعوته . وفي خطاب بعثه إلى بعض أصحابه يصف « أبو الحسن » مقامه في الاسكندرية ، يقول : « الكتاب اليكم من الثغر حرسه الله ، ونحن في سوايغ نعم الله نتقلب .. واما الأهل والأولاد والاصهار والاحباب ، ففي سوايغ نعم الله يتقلبون ، وبإحسانه ظاهرا وباطنا مغمورون » .

لقد كانت اقامة « أبو الحسن » في مصر ، مصداقا لما نودى به حين دخلها : يا على ، ذهب ايام المحن ، واقبلت ايام المنن . عشر بعشر ، اقتداء بجدك ﷺ .

وكانت مصر تعتز حينئذ بمجموعة من أكرم العلماء ، وأفضلهم علما وخلقا وصلاحا ، مجموعة وهبت نفسها لله وأسلمت قيادها له ، فأحاطها الله بعنايته وتكفلها برعايته . وقد استقبلت هذه المجموعة « أبا الحسن » أجمل استقبال ، ورافقته متلمذة عليه ومتأخية .. وتيسرت السبل ليقوم « أبو الحسن » بدعوته في الكثير من مدن مصر . وكان يحضر مجلسه أكابر العلماء من أهل مصر ، ويرافقونه في جولاته ،

مثل العزيز بن عبدالسلام وبقى الدين ابن دقيق العيد ، وعبدالعظيم المنذرى ، وابن الصلاح ، وابن الحاجب ، وجمال الدين بن عصفور . ونبيه الدين بن عوف .. وغيرهم .. وهؤلاء كانوا - على الأخص - يواظبون على حضور درسه بالمدرسة الكاملية بالقاهرة ملازمين الادب ، مصيخين له ، متلمذين عليه .

كانت اقامة الشيخ في مصر .. فترة خصبة من حيث الدعوة ، ومن حيث الرجال . وفي اخريات حياته إمتحنه الله بكف بصره ، ولكنه استقبل الدنيا بالرضا والتقبل . وصور ذلك بصورة رائعة حين قال لتلميذه أبى العباس المرسى : « لقد انعكس بصرى في بصيرتى ، فصرت كل مبصرا » .

وقبل أن يلقى ربه .. كان يخرج الى الحج في كل عام . وفي طريقه الى الحج آخر مرة ، وعند قنا ، قال لخادمه : استصحب قاسا وقفه وحنوطا ، وما يجهز به الميت ، وفي خميثرنا سوف ترى .

ولما أحس الشيخ بدنوا أجله : أوصى أصحابه بأشياء ، كما أوصاهم بحزب البر ، وقال لهم : « حفظوه لأولادكم ، فإن فيه اسم الله الأعظم » .

وفي ليلة وفاته .. أعطى القطبانية « لأبى العباس المرسى » ، ولم يعطها لواحد من ابنائه . ثم بات ليلته متوجها الى الله تعالى ذاكرا .. وكان أصحابه يسمعون وهو يردد « الهى .. الهى » .. فلما كان السحر سكن ، ولفظ أنفاسه . فجاء « أبو العباس » ، وغسله وكفنه ، وصلى الجميع عليه .. ثم استأنفوا رحلة الحج تنفيذا لوصيته ..

وفي موت الشيخ .. حدث حادث جلل في بلاد الإسلام ، فقد هجم « التتار » على عاصمة الخلافة الإسلامية .. بغداد .. وقتلوا الخليفة وذبحوا المسلمين ، وحرقوا مكتبة بغداد الزاهرة ، وألقوا بكتبتها في نهر « دجلة » وكانت محنة في عالم الاسلام .

.. فهل هناك خيط يربط بين صعود روح أبى الحسن الشاذلى الى الملأ الأعلى ، وبين حادث بغداد ؟ ! .. ربما ، وهذا يحتاج لتعليل .

دخل على « أبى الحسن » فقير « صوفى » ، وعليه لباس من شعر . وأمسك الاعرابى بملابس « أبى الحسن » ، وقال له : « ياسيدى .. ما عبد الله بمثل هذا

اللباس عليك . - يقصد لماذا لا يلبس « أبو الحسن » الخشن من الثياب . ولا عبد الله بمثل هذا اللباس عليك ، ليلسى يقول : أنا غنى عنكم فلا تعطوني . ولباسك يقول : أنا فقير اليكم فاعطوني .

وكما يعقب « ابن عطاء الله السكندري » في « لطائف المنن » على هذه الواقعة فيقول : وهكذا طريق الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن رضى الله عنهما ، وطريقة أصحابهما . الإعراض عن ليس زى ينادى على سر اللباس بالإفشاء ، ويفصح عن طريقه بالابداء ، ومن لبس الزى فقد ادعى .

وليس معنى ذلك أن الشاذلية تنتقد أزياء الفقراء ، وإنما لاجرج على هذا الزى « ما على المحسنين من سبيل » .

وفي إحدى المرات أراد « أبو العباس المرسى » ، أن يأكل الخشن ويلبس الخشن . فقال له شيخه أبو الحسن : « أعرف الله وكن كما شئت .. ومن عرف الله فلا عليه أيضا إن أكل هنيئاً وشرب مريضاً » .

ومن كلام « أبي الحسن » المشهور عنه : يا بني يرد الماء .
وفلسفة أبي الحسن من أخذ من الطيبات تتضح فيما يقوله لمريده : « يا بني يرد الماء ، فإنك إذا شربت الماء السخن فقلت الحمد لله ، تقولها بكزارة . وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله ، استجاب كل عضو منك بحمد الله » .

وهذه الفلسفة ، في الواقع ، تهدف الى إتاحة الأسباب لكل مسلم إلى أن يؤدي حق الله تأدية على أكمل وجه .

ولذلك يقول الأستاذ « سالم عمار » في كتابه : « كلن الشاذلى يلبس الفاخر من الثياب ، ويركب الفاره من الجياد ، ويتخذ الخيل الجياد » . « والله جميل يحب الجمال » .. ويجب أيضا أن تظهر نعمته عليكم .

والهم أن مذهب « الشاذلية » ، لكل من يتعمق ويتقصى في تتبعه ، هو الاعتدال .. ولا اسراف . ويقول « أبو الحسن » : « لا تسرف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها ، أو تنحل أعضاءك لها فتخرج لمعانقتها بعد الخروج منها بالهمة أو بالفكرة أو بالإرادة أو بالحركة » .

وكان الهم الأكبر لـ « أبي الحسن » ، كما يرى سيدي « عبد الوهاب الشعراني » في « طبقاته » ، أنه جهد جهادا شاقا .. من أجل الفتاة في اختباره مع الله .. ومن أجل

الوصول الى هذه المرتبة ، التى لايتأتى أن ينالها فى بدء حياته السائرة الى الله . وانما يأتيتها بعد المجادة ، وتواصل الجهد والاجتهاد .

ولقد كان الجانب العلمى من العناصر الأولى ، التى حددت شخصية « ابو الحسن » وفى نفس الوقت ، فان مجموع جهوده فى هذا المجال تدلل على ما ذكرناه . لقد بدأ الدراسة والتحصيل صغيرا . تتقف على الطريق العادى فحفظ القرآن ودرس السنة كما درس العلوم الدينية . وتدرج فى هذه العلوم سلما وراء آخر .. ثم أخذ يختار الكتب التى يدرسها ويشرحها وينصح بقراءتها لمن يريد أن يصل .

ومن الكتب التى كان « ابو الحسن » يعيش معها وفيها ويهتم بها كما يقول د . عبد الحليم محمود :

١ - كتاب « ختم الاولياء » للحكيم الترمذى . وهو الكتاب الذى اقام الجو الثقافى عند صدوره ، وكان سببا فى صعوبات كثيرة واجهها مؤلفه ، بسبب الآراء التى احتوى عليها . وقد بلغ هذا الكتاب فى اهميته ، حتى أن محيى الدين بن عربى ، أقر له كتابا خاصا ، وصفحات آخر فى كتابه « الفتوحات » ... حاول فيها أن يجيب عما ورد فيه من أسئلة وقضايا وكان « ابو العباس المرسى » لأهمية هذا الكتاب بالنسبة اليه خاصة ، والصوفية بعامة .. يحرص على حضور دروس « الشاذلى » وتفسيراته فى موضوع هذا الكتاب .

٢ - كتاب « المواقف والمخاطبات » للنفرى . وهو كتاب فريد فى بابيه . فهو يعبر عن حالات روحية عالية .. لايتأتى لغير ذوى الاذواق العالية فهم الكثير منها . ولهذا كان ابو الحسن دائما يحاول التيسير على تلاميذه .. بفتح مغاليق هذا الكتاب ، لكل من يعزم على استشراف عالم الحكمة .

٣ - كتاب « قوت القلوب » لابن المكى . وهو الكتاب الذى وصفه أبو الحسن وصفا يدل عليه ، اذ قال عنه انه « يورث النور » .

٤ - ومثله كتاب « الإحياء » .. للامام الغزالى .. وهو يورث العلم .

٥ - الرسالة القشيرية .. وفيها ما فيها من أبواب ، مثل الجهاد والحرية وكل ما يهم المسلم الصحيح .

٦ - وكتاب « الشفاء » للقاضى عياض .. وهو الكتاب البلسم .

٧ - وكتاب « المحرر الوجيز » لابن عطية .. ويعرفه أغلب الصوفية .

كان العلم عند « أبى الحسن » من عناصر شخصيته .. لدرجة أنه اعتبر الجهل به ،
والرضا بهذا الجهل من الكبائر ، لهذا فمن المحاذير عند الشاذلية « لاكبرية عندنا اكبر
من اثنين .. حب الدنيا بالإيثار ، والمقام على الجهل بالرضا » .. لأن حب الدنيا أساس
كل خطيئة ، والمقام على الجهل أصل كل معصية .

لقد أفاض المؤرخون والكتاب والأدباء والشعراء في علم « أبى الحسن الشاذلى »
وسياحاته ومجاهداته ، بل مجالداته في تحصيله من كل مصادره واشادوا أيضا بأصالته
« أبى الحسن » وعمقه . فان « ابن عطاء الله السكندرى » يصف « أبى الحسن » بأنه
في علوم المعارف الإلهية كان قطب رحاها وشمس ضحاها ، كما كان عالما عارفا بالعلوم
الظاهرة . جامعا لدقائق فنونها ، ومفتضا لأبكار المعاني .. !

و « ابن عياد » صاحب المفاخر العلية يصفه بأنه هو صاحب الإشارات العلية
والعبارات السننية . جاء في طريق القوم بالأسلوب العجيب والمنهج الغريب الذى
جمع بين العلم والحال أو الهمة والمقال . وتخرج بصحبته جماعة من الأكابر ، مثل
أبى العباس المرسى ، وأبى العزائم ماضى .. وغيرهما .

والامام « البوصيرى » يصف « أبى الحسن » بأنه « بحر العلم » وقال فيه قصيدة
تعبّر عن ذلك ، نجتزئ منها هذه الأبيات التى تقول :

أما الامام الشاذلى طريقه
في الفضل واضحة لعين المهتدى
قطب الزمان وغوثة وإمامه
عين الوجود لسان سر الموجد
ساد الرجال فقصرته عن شأوه
همم المساب للعلا والسؤدد
أوما مررت على مكان ضريحه
وشممت ريح الند من ترب ندى
ووجدت نعظيما بقلبك لو سرى
في جلمد سجد الورى للجلمد
فقل السلام عليك يا بحر الندى
الطامى وبحر العلم ، بل والمرشد

الصوفية ، ليست انعزالا ، وليست خوفا من الموت . وهي ليست كسلا وتواكلا ، كما يحاول أعداء الإسلام أن يشيعوا عنها ذلك . إنها ببساطة عكوف على العبادة الاصيلية تستهدف مرضاة الله ، ومرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. إنها المعرفة والتوحيد .

وكما يرى « ابن خلدون » في التصوف ، فهو يقول : وأصله العكوف على العبادة والانتقطاع الى الله ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاء ، والافتراء عن الخلق للعبادة . كان ذلك عاما في الصحابة والسلف .. ولما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني للهجرة وما بعده . وجنح الناس الى مخالطة الدنيا ، إختص المقلون على العبادة باسم الصوفية ..

ويقول الدكتور محمد مصطفى حلمي ، رحمه الله : إن التصوف علم الاخلاق وعلم النفس كذلك .. كما كان الإمام الغزالي يقول عن التصوف : إنه يؤدي الى السعادة ، التي وعد الله المتقين بها ، وهي المعرفة والتوحيد .

ويقول احمد توفيق عياد في كتابه « التصوف الإسلامي » : إنه فلسفة الإسلام الدينية ، وهو أقوى للحركات الروحية في تاريخ التمدن الإسلامي وتطور العقلية الإسلامية .

فالصوفية إذن عمل ، وعمل دائم ومتواصل ..

وهي كفاح وصبر وجهاد . كما أنها عزة نفس

وهي هجرة دائمة الى الله

وهي كذلك تدريب النفس على العبودية ، وردها لاحكام الربوبية ، كما يقول

« الشاذلي » .

وحياة « أبي الحسن » وعلمه .. قد ظهرت ، وكانت معلول يهدم ما بينه أعداء التصوف من شبهات حوله . ويستدل بـ « عبد الحليم محمود » ، على ذلك بما حدث أيام جاء « أبو الحسن الشاذلي » ليقوم في مصر . لقد كان وجود أبي الحسن في مصر ، في منتصف القرن السابع الهجري ، عاملا هاما في تصحيح المفاهيم الخاطئة التي رسخت عن الصوفية والطريق ، ويأتي الاستدلال على ذلك .. مما قاله الشيخ مكي الدين الأسمر ، بعد أن شاهد أبا الحسن وجلس اليه واستوعب فكره ورسالته ، يقول الشيخ مكي الدين الأسمر : « مكثت أربعين سنة يشكك على الأمر في طريق القوم ، فلا أجد من يتكلم عنه ، أو يزيل عني إشكاليه .. حتى ورد الشيخ أبو الحسن الشاذلي ، فأزال عني كل شيء أشكك على .. انهم يدعون الى باب الله . وأبو الحسن يدخلهم على الله تعالى ،

لقد جاء « أبو الحسن » بالصحيح ، وغير المفاهيم الخاطئة عن الصوفية والطريق .



ولقد عاصر « أبو الحسن » عصر « الظاهر بيبرس » وهو عصر تهددت فيه مصر بجيوش الصليبيين في أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجرى . وكانت حملة الصليبيين بقيادة « لويس التاسع » ملك فرنسا ، قد احتلت مدينة دمياط ، وتعد العدة لاحتلال المنصورة في الطريق إلى القاهرة . وهبت مصر تستعد لدفع الخطر الصليبي ، وتجهز الجيوش لملاقاته .. في المعركة الفاصلة التي أعد لها الظاهر بيبرس ، الذي لم يكن يغمض له جفن ، ولا يذوق النوم إلا غاراً .

.. وقد كان جند المسلمين في المنصورة على روح معنوية عالية ينتظر ملاقات جيوش أوربا الصليبية . والروح المعنوية التي علت ، لم تأت فقط لأن الجنود كانوا يشعرون أنهم تحت قيادة قائد همام ... وإنما جاءت كذلك بفضل طريق آخر هو « التعبئة المعنوية » بمفهوم العصر الحديث . والتعبئة للمعنوية من اختصاص الطماء والأولياء ورجال الله . وكانت مصر وقتها تضيء بشعوس الكثيرين منهم ، وعلى رأسهم العزيز عبد السلام ، ومجد الدين القشيري ، ومحيى الدين بن سراقه ، ومجد الدين الأحمسي .. وأبو الحسن الشاذلي بالطبع .. وغيرهم كثير .

هؤلاء العلماء لم يقعدوا في بيوتهم وصوامعهم بعيداً عن الخطر ، وإنما هبوا للجهاد في سبيل الله . هاجروا إلى قلب المعركة ، إلى المنصورة ، ليكونوا وسط الجنود . ومع أن أبا الحسن الشاذلي كان قد كف بصره ، وإيمانه بأن الإسلام دين كفاح وجهاد - كما يقول على سالم عمارة - فقد ظل مع قرنته من العلماء يسكرون بالنهار وسط الجند بسمتهم الملائكي ، يحثونهم على الجهاد ويبشرونهم بإحدى الحسنين : النصر أو الجنة .

هذا في أوقات النهار ..

أما في الليل فقد كان لهؤلاء العلماء الأفاضل عمل آخر . كانوا يجتمعون في مجلس بإحدى الخيام ، يتعبدون ويتجهون إلى الله بدعائهم وصلواتهم يلتمسون منه النصر ، فلذا ما قرعوا ظلوا يتدارسون الكتب .. كانوا في الواقع جنداً بالنهار وجيشاً بالليل .

وفي إحدى الليالي وكانوا يتدارسون « الرسالة القشيرية » .. وفيها ما فيها من أبواب ، مثل باب الحرية ، وباب الفتوة .. وهم مشغولون بالمعركة إذ يقص عليهم

« أبو الحسن » رؤيا شاهدها حول حالة المسلمين في المنصورة وملخص هذه الرؤيا ، أنه رأى « فسطاطا » لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وان الرسول عليه الصلاة والسلام قال له : لانهتم كل هذا الهم من أجل ثغر دمياط .. وطمانه بان النصر حليف المسلمين ..

وبالفعل كان نصر المسلمين المؤزر في معركة المنصورة . وتم أسر « لويس التاسع » وكبار قادة الحملة الصليبية . وقد وضع « لويس » أسيرا مكبلا بالقيود في دار « ابن لقمان » - الشهيرة - بالمنصورة ، التي خلدها الشاعر « ابن مطروح » بقصيدته العصماء .

والواقع ان الصوفية كان لهم دور كبير في معارك الجهاد الإسلامى .. كانوا دائما يعلنون بقدسية الجهاد في ساحات القتال .. لأن الجهاد من الفضائل الكبرى . وصدق « أبو الحسن الشاذلى » حين قال : « من ثبتت ولايته من الله ، لا يكره الموت » . وبالفعل فان الصوفى الحق هو الذى يستشهد في سبيل عقيدة الاسلام ، وفي سبيل رفع راية الاسلام عالية خفاقة ..

ومثل الكفاح في الحروب .. يتوازى الكفاح في العمل .

كان شيوخ الصوفية يكرهون المريد المتعطل ، والمريد الذى يسأل الناس .. وكانوا يحثون على طريق ابواب العمل .. فالمؤمن المجاهد ، خير من المؤمن القاعد .. ولهذا كانت حياة « أبو الحسن » نموذجا لمريديه . فقد كان يعمل بالزراعة على نطاق واسع في ثلاثة مواقع .. وكان يربى حيوانات الحرث والدرس . وكان دائما يقول لمريديه : « عليكم بالسبب ، وليجعل احدكم مكوكه سبحته » .. أى عليكم بالعمل والسعى وراء الرزق ، وليجعل احدكم تحريك اصابعه في الخياطة او الضفر سبحته ..

ومع العمل كانت عزة نفس المؤمن : « والله العزة ولسوله وللمؤمنين » . ومن هنا ما اثير عن « أبى الحسن » - كما جاء في كتاب على سالم عمار - من أنه كان يلبس فاخر الثياب ويركب فاره الدواب ، ويقتنى الخيل الجياد . فلباس الفقير ينادى على صاحبه بالفقر ، كأنه يقول للناس اعطونى . وواجب الصوفى أن يكون عزيز النفس بالله ..

والصوفية ليست رهبنة إنعزالية .. يقول « أبو الحسن » : « ليس هذا الطريق بالرهبانية ، ولا باكل الشعير والنخالة .. وانما هو بالصبر على الاوامر واليقين في الهداية » .

ولقد اضاف « الشاذلى » للصوفية شيئا آخر .. هو ضرورة السعى في مصالح الناس . ولهذا لم يكن يتورع أو يقعد عن نجدة مظلوم . ومن أجل ذلك كثرت شفاعات « أبى

الحسن « عند الأمراء والسلاطين للذين لاجاه لهم وللضعفاء وذوى الحاجات على مختلف ألوانهم ، وحتى الطلبة منهم . صار هولهم محاميا وشافعا ومدافعا . حتى أنه من كثرة شفاعاته ومدافعاته - كما يقول « ابن دقيق العيد » - جهل ولاية الأمور بقدر الشيخ .. »

وكان أبو الحسن - كما روى عنه - قبل أن يتشفع في مظلوم أو فقير ، ويمشى في شفاعته يردد دائما : « اللهم اجعل مشيى اليه - الى من عنده الشفاعة - تواضعا لوجهك وابتغاء لفضائلك ونصرة لك ولرسولك ، وزينى بزينة الفقراء المهاجرين ، الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون »

وطريقة التشفع هذه عند « أبى الحسن » .. يمكن أن يكتب عنها كتاب للشفاعات فهي شفاعات الصدق . فهو مثلا حين يقول « وزينى بزينة الفقراء المهاجرين » .. يطلب من الله أن يكون في حالة التشفع ، وهو سائر الى الشفاعة .. حتى يحس بإحساسه وتكون شفاعته على أكمل وجه .. وهكذا .

وهو يطلب من الله أن يكون متواضعا هادئا في عرض الشفاعة .. حتى لا تنقلب الشفاعة الى ضدها فيتخذ السلطان من الفقير موقفا أقسى مما اتخذه .

وهو كذلك ... حينما يسير الى الشفاعة .. يسير الى نصرة الحق ...

ومن واجب كل مسلم أن يهب لهذه النصرة .. والاصرار متقاعسا عن واجب ، وهذا ليس من الخلق الاسلامى فى شىء ..

ولا يعتقدن أحد .. أن أبا الحسن - على كثرة ما قام به من شفاعات ... أنه قام بها للسمعة وللشهرة .. فهم يقولون إنه قبل أن يتشفع كان يتحرى الدقة ويدرس قضية المتشفع .. ويرصد الأحوال ، ويختار الحال المناسب ... وهكذا .



يخصص الإمام الأكبر ، الدكتور « عبد الحليم محمود » فى كتابه عن أبى الحسن ، فصلا عن « جو » أبى الحسن الروحى .. حاول أن يعطى فيه للقارئ صورة تعب هو فى رسم أطرها لقلة المصادر عن أبى الحسن . فقد كان أبو الحسن عندما يسأل : أين كتبك ؟ .. يجيب : « كتبى اصحابى » . لكن الصحاب يعيشون حياة ، والحياة تنتهى والتاريخ لا يسجل الا المكتوب بين الصحائف ...

ومما يذكر الدكتور « عبد الحليم محمود » عن « اجواء » أو « اشعارات » سيدي
« ابي الحسن الشاذلي » ، اليك بعضا منها ، وهي بالاضافة الى انها تقترب من فكر ابي
الحسن وحياته ، فهي ايضا تعتبر هاديا ومرشدا للمسلمين في جميع العصور . ومن
هذه « الاجواء » .. أو « الاشعارات » :

● سئل ابو الحسن ، رضى الله عنه عن تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » .. فقال
« النقض لما انبرم » .

● قال ابو الحسن :

- أن أردت للصدق في القول ، فأكثر من قراءة « أنا أنزلناه في ليلة القدر » .
- وإن أردت الاخلاص في جميع أحوالك ، فأكثر من قراءة « قل هو الله أحد » .
- وإن أردت تيسير الرزق ، فأكثر من قراءة « قل أعوذ برب الفلق » .
- وإن أردت السلامة من الشر ، فأكثر من قراءة « قل أعوذ برب النفس » .
- إذا كثرت عليك الخواطر والوساوس ، فقل : سيحان الملك الخلاق « أن يشأ
يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز » .

● إذا انقل الذكر على لسانك ، وكثر اللغو في مقالك ، وانبسجت الجوارح في شهواتك ،
وانسد باب الفكرة في مصالحك ، فاعلم ان ذلك من عظيم أوزارك ، أولكمون ارادة التفاق في
قلبك . وليس لك طريق إلا التوبة والاصلاح والاعتصام بالله ، والاخلاص في دين الله تعالى ،
الم تسمع قوله تعالى : « إلا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله ، وخلصوا دينهم
الله ، فأولئك مع المؤمنين » .

● اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم ، فإن شرهم يصيبك في بدتك وخيرهم
يصيبك في قلبك ، ولأن تصب في بدتك خير من أن تصاب في قلبك .

● من سوء الظن بالله ، ان يستتصر يغير الله من الخلق . قال تعالى : « من كان يظن
ان لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع ، فليظن هل
يذهبن كيده ما يغيظ » .

● من التفلق : التظاهر بفعل السنة ، والله يعلم منه غير ذلك .

● ومن الشرك بالله : اتخاذ الاولياء والشفعاء من دون الله .

قال الله تعالى : « مالك من دونه من ولي ولا شفيع الا لتذكرون »

● مراكز النفس اربعة :

مركز الشهوة في المخالفات

ومركز للشهوة في الطاعات

ومركز في الميل الى الراحة

ومركز في العجز عن أداء المفروضات

« فاقبلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن نلوا والقوا الصلاة وآتوا الزكوات فخلو سبيلهم ، إن الله غفور رحيم » .

● العارف ، من عرف شدائد الزمان في الألفاظ الجارية من الله عليه ، وعرف إسماء نفسه في إحسان الله اليه : « فاذكروا الله لعلكم تفلحون » .

● إلق بنفسك على باب الرضا ، وانخلع عن عزائمك وأرادتك حتى عن قوتك بقرينة . قال الله تعالى : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » .

● إن أردت أن تتظرب بصر الإيمان والايقان دائما ، فكن لنعم الله شاكرا ويقضائه راضيا ، ومليكم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجارون » .

● العلوم التي وقع الثناء على أهلها وإن جلت فهي ظلمة في علوم ذوي التحقيق ، وهم الذين غرقوا في تيار بحر اللذات ، وغموض الصفات . فكانوا هناك بلا هم ، وهم الخاصة العليا الذين شاركوا الأنبياء والرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، في أحوالهم .. فلهم فيها نصيب على قدر إرثهم من مورثهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » ، عليهم الصلاة والسلام ، أي يقومون مقامهم على سبيل العلم والحكمة ، لأعلى سبيل التحقيق بالمقام والحال . فإن مقامات الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، قد جلت أن يلح حقائقها غيرهم .

● الكاملون : حاملون لأوصاف الحق ، وحاملون لأوصاف الخلق . فإن رأيته من حيث الخلق ، رأيت أوصاف البشر ، وإن رأيته من حيث الحق ، رأيت الأوصاف التي زينهم بها . فظاهرهم الفقر ، وباطنهم الغنى ، تخلقا بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : « ووجدك عائلا فأغنى » . أفتراه أغناهم بالمال ؟ . وقد شد الحجر على بطنه من شدة الجوع ، وأطعم الجيش كله من صاع ، وخرج - عليه الصلاة والسلام - من مكة على قدميه ، ليس معه شيء يأكله فؤكبد إلا شيء يواريه ابطلال .

● أهل الله وخاصته ، هم قوم جذبهم عن الشر وأصوله ، واستعملهم بالخير وفروعه ، وحبب إليهم الخلوات ، وفتح لهم سبيل المناجاة ، فتعرف إليهم فقره ، وتحبب إليهم

فأحبوه ، وهداهم السبيل اليه فسلكوه ، فهم به وله ، لا يدعهم لغيره ، ولا يحبون عنه . بل هم محجوبون به عن غيره . ولا يعرفون سواه ، ولا يحبون الا اياه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الالباب .

● الصوفي فيه أربعة أوصاف :

التخلق بأخلاق الله عز وجل
والمجاورة لأوامر الله
وترك الانتصار للنفس حياء من الله
وملازمة البساط بصدق البقاء مع الله



ونختتم الحديث عن سيدى « أبى الحسن الشاذلى » .. حول أدعيته وأذكاره وأحزابه .. ولأهمية الذكر والدعاء فى الاسلام .. كان « أبى الحسن » يستفيض فى الذكر وفى الدعاء . وكانت طريقته فى أكثر الاحيان ان يمزج الذكر بالدعاء . وما روى عن « أبى الحسن » فى هذا الباب كثير ، سواء منه ما يتعلق بالأحزاب ، أو بغيرها من ابواب الذكر والدعاء .

ولأبى الحسن فى ذلك « الحزب الكبير حزب البر » .. الذى وصفه بقوله ، « من قرأه كان له مالنا وعليه ما علينا » .

و « الشاذلى » له أكثر من حزب .. لكنها كلها تجمع بين إفادة العلم ، وأداب التوحيد ، وتعريف الطريقة ، وتلويح الحقيقة ، وذكر جلال الله تعالى وعظمته وكبريائه . وذكر حقارة النفس وخستها ، والتنبيه على خدعها وغوايتها .

وفى الأحزاب أيضا الإشارة لوصف الدنيا والخلق ، وطريق الفرار من ذلك ووجه حصوله . والتذكير بالذنوب والعيوب والتنصل منها .. مع الدلالة على خصائص التوحيد . فالأحزاب إذن تعليم فى قالب التوجيه ، وتوجيه فى قالب التعليم .

ويقول « أبو الحسن » ناصحا الذاكرين والداعين ، الذين يرجون قبول الله لدعائهم :

« إذا أردت أن يستجاب لك أسرع من لمح البصر ، فعليك بخمسة أشياء هي :
الامتنال للأمر ، والاجتناب للنهي . وتطهير السر . وجمع الهمة ، والاضطرار ، .

ومن أحزاب الشيخ « أبى الحسن الشاذلى » . « الحزب البر » أو « الحزب الكبير » .
وحزب الفتح ، وحزب البحر ، وحزب الآيات .. وهناك حزب يسمى « حزب الشيخ أبى
الحسن » وهذا الحزب الأخير وضعه أبو الحسن ، ولم يضع له عنوانا .

وهذه الأحزاب كما يصفها « ابن عياد » في « المفاز العلية » : « وأحزاب أهل
الكمال ممزوجة بأحوالهم ، مؤيدة بعلومهم ، مسددة بإلهامهم ، مصحوبة
بكراماتهم » .

ولـ « أبى الحسن » كثير من الادعية والاذكار .. موجودة في المصادر عنه .
وكما يقول د . « عبد الحليم محمود » ، فإن الدعاء يصح في كل وقت ، بيد أن هناك
أوقاتا وأماكن أرجى في الدعاء من غيرها .. مثل « جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات
المكتوبة » .. وكذلك أثناء السجود . ومن الأماكن الأرجى في استجابة الدعاء الأماكن
الطاهرة ، وأشرفها بالطبع الحرم المكى والحرم المدنى .

وأخيرا نقول مع « أبى الحسن » في دعائه المشهور وحزبه الكبير المعروف : « اللهم
إننا نسالك لسانا رطبا بذكرك ، وقلبا منعما بشكرك ، وبدنا هينا لبنا بطاعتك . واعطنا
من ذلك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . واغننا بلا سبب ،
واجعلنا سبب الغنى لأوليائك ، وبرزخا بينهم وبين أعدائك ، انك على كل شيء قدير ..

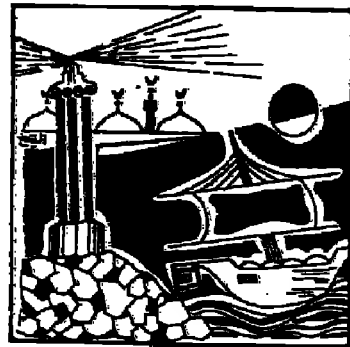
« اللهم انا نسالك ايمانا دائما ، ونسالك قلبا خاشعا ، ونسالك علما نافعا ،
ونسالك يقينا صادقا ، ونسالك ديننا قيما ، ونسالك العافية من كل بلية ، ونسالك تمام
العافية ، ونسالك دوام العافية ، ونسالك الشكر على العافية ، ونسالك الغنى عن
الناس ...

« لا إله الا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين »

أعلام
التصوف
الاسلامي

سيدي أبو المباسم المرسي

حارس الاسكندرية
وقطبها « الفوث »



●● الاسكندرية بالذات - فضلا عن القاهرة - من ارض الاسلام المباركة
تعلو على ارضها القباب ، وتتعانق المآذن .. وتتناثر - كالجواهر - داخل ثراها
كثير من اجساد اولياء الله تعالى .. او جند الله ..

لكن لماذا الاسكندرية بالذات ؟

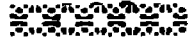
الواقع ان هذه المدينة المصرية ، او العاصمة الثانية لمصر .. كانت تشاهد
الكثير من الاجانب القادمين من الساحل الاوربي او الاسيوى للبحر المتوسط ،
الذى يقابل الساحل الافريقى ... ولذلك ما اكثر الجاليات الاجنبية التى جاءت
الى الاسكندرية ، ومكنت فيها بعض وقت او استوطنتها الى الابد .. وهى ايضا
كميناء .. تفرغ البواخر فيه كل يوم مختلف الجنسيات . ثم انها كمعبر لاهل
المغرب الى بلاد الحجاز .. شاهدت على طول تاريخها الكثير من المؤمنين
وعلمائهم .. منذ ان بدأت دولة الاسلام فى الاندلس ، فى اواخر القرن الاول
الهجرى ..

ولقد افاض كثير من المؤرخين فى ذكر الاحاديث الواردة فى فضل الاسكندرية ،
والمرابطة فيها .. حتى يقال ان من رابط فيها اربعين يوما كتب الله له براءة من
النار وامن العذاب . وقيل حول اهل الاسكندرية ، ان خيار اهلها افضل من خيار
اهل غيرها ، وشرار اهلها خير من شرار اهل غيرها . وان المرابط فى سبيل الله عز
وجل على ساحل البحر ، له فى كل يوم دعوة مستجابة .. وغير هذا كثير مما
اشتملت عليه الكتب المؤلفة فى فضل المرابطة فيها ..

العلامة « ابن خزيمة » ، الذى رابط فى الاسكندرية اربعين يوما ابتداء من
سنة ٥٦٠ هـ ، ١١٦٤ م ، يقول عنها : « اهلها للخير فاعلون ، لا تبطل القراءة
منها وطلب العلم ليلا ونهارا ، ايمان ساطع ، ونور لامع ، بها اولياء اسرارهم
واضحة وكراماتهم باهرة ، وبها مائة وثمانون مدرسة لتعليم العلم ومائة
وتسعون مسجدا للجماعة » .

ويصفها القاضى الفاضل .. بانها الثغر المحروس حماء الله ، الرفيع المقدار ،
الذى هو قرّة العين للاسلام ، ومحله مما تتطامن له معاقل التوحيد وحصونه ،

وهو مشتمل على الفقهاء والصلحاء والمرابطين وأهل الدين .. ولذلك - وكما يقول الأثرى حسن عبدالوهاب رحمه الله - إن الاسكندرية منذ سكنها الإمام السلفى سنة ٥١١ هجرية ، ١١٧ ميلادية ، كانت من أهم مراكز التحصيل ، كعبة المستفيدين ، يحج إليها العلماء من أقطار الأرض ، واتخذها عدد كبير من الأندلسيين والمغاربة وطنا لهم



الاسكندرية اذن مملكة ايمان .. سلطانها المشهور القطب الصوفى سيدى « أبو العباس المرسى » ، أو « المرسى أبو العباس » ، كما يشتهر بذلك بين أهل بحرى . وإذا كان أبو العباس المرسى رضى الله عنه سلطان الاسكندرية .. فهو سلطان له مكانة فى قلوب المصريين - حتى أقصى الصعيد . يدل على ذلك اسم « مرسى » .. الذى تسمى به عشرات بل مئات الالوف من أبناء مصر تبركا بهذا القطب الصوفى .. ولذلك لم اتعجب حين سمعت فى الصعيد مرة اغنية شعبية تعيش فى وجدان الشعب منذ سنين وسنين ، تقول هذه الاغنية :

خاين يا زمانى	وديت حبيبى فين
ولا جواب جانى	وبعت له جوابين
سوده وعجبانى	عيون حبيبى يا ناس
يا ابو مقام على	مرسى يا أبو العباس

« أبو العباس المرسى » .. أو « المرسى أبو العباس » سيظل علم الاسكندرية وسلطانها وحارسها .. كما ستظل الاسكندرية أرض أولياء الله .. حتى ليقال انه مدفون فى أرضها عشرات الاسماء الطاهرة ، وان حول مسجد أى العباس وحده مدفون أكثر من خمسين وليا من أولياء الله ومن أئمة التصوف .

و « أبو العباس المرسى » ، هذا القطب الكبير ، صاحب الطريقة .. هو تلميذ « أبى الحسن الشاذلى » رضى الله عنهما ، وخليفته الاوحد من بعده .. وهو من العرب الذين عاشوا فى الاندلس ، واسمه هو « شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن على الخزرجى الانصارى » . ويتصل نسبه بالانصار ، الذين اخبر رسول الله ﷺ ، ان حبه من علامات الايمان . ونسبه يتصل لسعد بن معاذ ، سيد الخزرج .

ولقد ولد سيدى « أبو العباس » فى « مرسية » ونشأ بها ، حيث كان والده يعمل فى التجارة . وكما يقول الامام الاكبر الدكتور « عبد الحليم محمود » فى كتابه « العارف بالله أبو العباس المرسى » .. إنه يبدو ان حالة والده كانت من اليسر بحيث مكنته من ارسال ابنه الى مؤدب لتعلم القرآن الكريم ، والتفقه فى امور الدين ..

ولقد بان فى ابي العباس خصائل اللماحية والذكاء غير العادى ، والمهارة والفهم منذ سنواته الاولى .. حتى لقد كان ما فيه ، لا يوجد فى اطفال المكاتب . كما ان كل من شهد صغيرا كان يتوسم فيه الاتجاه الى الصلاح والتقوى منذ هذه السن المبكرة .

وهناك قصة تدل على ذلك يحكيها « أبو العباس » ، حيث يقول : « كنت وأنا صبى عند المؤدب ، جاء رجل فوجدنى اكتب فى لوح ، فقال : الصوفى لا يسود بياضا . فقلت : ليس الامر كما زعمت ، ولكن لا يسود الصحائف بسود الذنوب » . كما ان هناك بعض الاضواء عن هذه الفترة من حياة ابي العباس فى المسرحية التى كتبها الاستاذ « محمود يوسف » ونشر حلقاتها فى جريدة الجمهورية عام ١٩٦٨ .. وهى تفاصيل لاشك فيها جهد .. لكن فيها اجتهاد .

لقد كانت نشأة هذا القطب على الصلاح والتقوى فى هذه السن المبكرة ، او بتعبير أدق ، فان هذا المؤدب الفاضل صقل فطرته الصافية ، وثبتها على الصلاح والتقوى . ويحكى « أبو العباس » عن هذا المؤدب الفاضل قائلا : عمل الى جانب دارنا خيال الستار ، وأنا ذاك صبى ، فحضرت ، فلما أصبحت أتيت الى المؤدب ، وكان من أولياء الله تعالى ، فأنشد حين رأى :

يا ناظرا صور الخيال تعجبا

وهو الخيال بعينه لو ابصرا

وقد خجل « أبو العباس » ، وعزم في نفسه ان يأخذ في حياته مسلك الجد .
ويقولون إن « أبا العباس » حين بلغ الشباب ، ودرجة الاستقلال بنفسه في التفقه
والدراسة ، أخذ في معاونة والده في الاعمال التجارية ، فكان التاجر الصدوق . لكن حياته
منذ الشباب « في مرسية » الى ان التقى بشيخه « أبي الحسن الشاذلي » في زاوية
« زغوان » يلفها الغموض ، الامن شذرات قليلة لا تشفى الغلة . وهذا يعود الى ان « أبا
العباس » - كما يقول مؤرخوه - لم يكن معنيا بالحديث عن نفسه ، ولم يكن مهتما
بالتاريخ لحياته . انه لم يتحدث عن أسرته ، ولم يتحدث عن نفسه ، ولم يشد بأفعاله .
إنه - كما يرى الدكتور « عبد الحليم محمود » : قد فنى في أبي الحسن ، فلم يكن في آفاقه
« فراغ » للحديث عن نفسه ، ثم فنى في الدعوة الى الله بعد أبي الحسن ، وما فناؤه في
الدعوة الا فناء في الله ورسوله وفي حبهما ، وفي العمل جاهدا على مرضاتهما .. ومن كان
كذلك لا يهتم بالحديث عن نفسه .

ان المعلومات قليلة عن « أبي العباس » قبل عام ٦٤٠ الهجرى .. وفي هذا العام ،
كما أثر ، حزم والده أمره ، ورتب شئونه على ان يقوم بالحج الى بيت الله الحرام ، وأخذ
الاسرة معه ، وركبوا البحر - وكان عمر أبي العباس ٢٢ سنة - لكن شاعت إرادة الله
سبحانه وتعالى ، ان تهب عليهم عاصفة بالقرب من شاطئ « بونة » فاستشهد والده
ووالدته غرقا في البحر ، ونجا هو واخوه « محمد » ، فيما شطر « تونس » . اما اخوه
فاتحه نحو الاعمال التجارية على غرار والده . اما هو فلم يكن حنينه الى التجارة ، وانما كان
حنينه الى مهنة المؤدب ، الذي كان من أولياء الله ، وكان هواه هو تعليم القرآن الكريم ،
والاغتراف من انوار القرآن . فاتخذ - في تونس - من زاوية الفقيه « محرز بن خلف » ،
مكانا يعلم فيه القراءة والكتابة ، ومبادئ الدين والقرآن الكريم .

لقد جاء « أبو العباس » من « مرسية » الى « تونس » وهو متسلح بالعلم ..
ومتسلح ايضا بما مارسه مع ابيه في التجارة ، من الاخذ والعطاء بحيث اطلع عمليا على
فنون المعاملات ووسائل التفاهم مع خلق الله ، مما اطلعه على معرفة الاتجاهات الانسانية
ووقفه على كوامن النفس البشرية .

في « تونس » كان اللقاء .
لقاء بين « أبي الحسن الشاذلي » وبين « أبي العباس المرسى » رضى الله عنهما .
هذا تعبر عنه صورة رمزية لطيفة ، جاءت في « لطائف المفن » وتعبر في عمق عن مكانة

العارف بالله سيدى « أبى العباس المرسى » من شيخه « أبى الحسن الشاذلى » .. ونقلها الامام الاكبر الدكتور « عبد الحليم محمود » فى كتابه .

تقول هذه الصورة :

« وأخبرنى بعض أصحابنا قال : رأى إنسان من اهل العلم والخير ، كانه بالقرافة الصغرى والناس مجتمعون يتطلعون الى السماء ، وقائل يقول : الشيخ ابو الحسن الشاذلى ينزل من السماء ، والشيخ ابو العباس مرتقب لنزوله ، متأهب له » .

« فرأيت الشيخ ابا الحسن قد نزل من السماء ، وعليه ثياب بيض . فلما رآه الشيخ ابو العباس .. ثبت رجله فى الارض وتهيأ لنزوله عليه . فنزل الشيخ ابو الحسن عليه - اى على أبى العباس - ودخل من رأسه حتى غاب فيه .. ثم استيقظت » .

هذا الرمز يوضح الصلة التى ستبدأ فى تونس ، بين الشاذلى وأبى العباس . وهذا الرمز ايضا يشير الى الاتحاد بين الشاذلى وأبى العباس فى المنهج والفكر والسلوك ، يجارىه ويسير فى نسق واحد .

ويدلل على ذلك ابن عطاء الله السكندرى - المصدر الوحيد تقريبا عن حياة أبى العباس - بقصة يرويها ويقول فيها : « من المشهود بين اصحاب الشيخ أبى الحسن وغيرهم ، ان الشيخ كان يوما فى القاهرة فى دار الزكى السراج ، وكتاب « المواقف » للنفرى يقرأ عليه . فقال الشيخ ابو الحسن : أين أبو العباس ؟ » .

فلما جاء ابو العباس ، قال : يا بنى تكلم ، بارك الله فىك ، تكلم ولن تسكت بعدها ابدا . فقال الشيخ ابو العباس : « فأعطيت فى ذلك الوقت لسان الشيخ » .

ويجارى ذلك ويتطابق معه ، ما قاله سيدى « أبو الحسن الشاذلى » لتلميذه وخليفته أبى العباس ، حيث قال له : يا أبى العباس ، ما صحبتك الا لتكون انت انا ، وانا انت » .

وقد بلغ من بعض الصوفية .. انهم قالوا حين مات « الشاذلى » ، انه لم يمض حين مات ، وانما غاب فى أبى العباس ، اوبقى فى « أبى العباس » .. لقد كان « أبو العباس » امتدادا « للشاذلى » ، فقد غاب الأخير فيه ، وكان لسانه ، بل كان هو هو . كان « الشاذلى » هو الحلقات الاولى فى الطريق ، وأخذت هذه الحلقات تتسلسل متجددة لالة

على مر الزمن ، فكانت مدرسة بدأها « أبو الحسن الشاذلي » في قوة ، وتابعه وترسم خطاه على هدى وبصيرة من تبعه ، وكان على رأس التابعين « أبو العباس » .

لقد كان « الشاذلي » يحب « أبا العباس » ، كما يحب الانسان صورة لنفسه ، أو كما يحب أثرا من آثاره ، أو كما يحب إينا من أبنائه .

لقد وجد « أبو الحسن الشاذلي » في « أبي العباس » مرآة ذاته وأهلية خلافته ، والرجل الثاني في قطبانيته ، فاختصه بأسراره ، وأفضى اليه بما وهبه الله من علوم ومعارف ..

لكن كيف كان اللقاء الأول بين « أبي الحسن » و « أبي العباس » في تونس ؟

يقص أبو العباس كيفية اتصاله بشيخه ، فيقول :

« لما نزلت بتونس وكنت أتيت من مرسية ، وأنا اذ ذاك شاب ، سمعت بذكر الشيخ أبي الحسن الشاذلي . فقال لي رجل : تمضى بنا اليه . فقلت : حتى استخير الله . فمنت تلك الليلة ، فرأيت كأنني اصعد الى رأس جبل . فلما علوت فوقه ، رأيت هنالك رجلا عليه « برنس » اخضر . وهو جالس . وعن يمينه رجل ، وعن يساره رجل . فنظرت اليه ، فقال : عثرت على خليفة الزمان . قال - أي أبو العباس - فانتبهت .

« فلما كان بعد صلاة الصبح ، جاعنى الرجل الذى دعانى الى زيارة الشيخ فسرت معه ، فلما دخلنا عليه ، رأيته بالصفة التى رأيته بها فوق الجبل ، فدهشت . !!
« فقال لي : عثرت على خليفة الزمان .. ما اسمك ؟ فذكرت له اسمى ونسبى . فقال لي : رفعت لي منذ عشرين سنين . » .

والواقع ان « الشاذلي » قد بهر « أبا العباس » بحديثه المنطلق ، والهاماته المتدفقة ، وسلوكه الربانى .. فلأزمه « أبو العباس » ملازمة المريد الصادق لشيخه العارف . وقد رأى « الشاذلي » في « أبي العباس » فطرة طاهرة ونفسا خيرة ، واستعدادا طيبا للإقبال عليه ، فممنحه وده ، وغمره بعنايته وأخذ في تربيته تربية تؤهله ليكون خليفة من بعده .

ولقد استمر « أبو العباس » مع « الشاذلي » يسير في ضوء تربيته ، وينهج طريقه ، لا يحيد عنه قيد شعرة ، الى ان كانت وفاة « الشاذلي » . وقبل أن يموت « الشاذلي » ، خلا بأبى « العباس المرسى » وحده ، وأوصاه بأشياء ، واختصه بما اختصه الله به من

البركات . وقال لأصحابه : « اذا انامت فعليكم بأبى العباس المرسى ، فإنه الخليفة من بعدى وسيكون له بينكم مقام عظيم ، وهو باب من ابواب الله سبحانه وتعالى » .

الشاذلية من الطرق المعروفة في عالمنا الاسلامى ..

وأربابها من أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن رجال ألزهد في الدنيا ، وطلاب الحلال من كل وجه . وهم كما يرى « محمد محمود زيتون » في كتابه عن « أبى العباس المرسى » ممن يزهدون في التقرب الى السلطان بل ممن لا يستنكفون من المواجهة الصريحة معه لدرء ضرر عام أو جلب نفع عام .

وأهم ما يميز الشاذلية كما أرى علمهم الغزير ، حتى أن أحدهم وصف « أبا العباس المرسى » بأنه بحر لاساحل له ، ووصفه « ابن عطاء الله السكندرى » في مؤلفه « لطائف المنن في مناقب العباس وشيخه أبى الحسن » « كنت لا تتحدث في علم من العلوم ، الا تحدث معك فيه ، حتى يظن السامع أنه لا يحسن إلا هذا العلم ، لاسيما علمى الحديث والتفسير ، فقد كانت آراؤه سديدة في تفسير القرآن العزيز » . ومع هذا العلم الغزير ، لم يؤلف أبو العباس كتباً ، وكان يقول « كتبى اصحابى » .. بمعنى أن « أبا العباس » كان صاحب دعوة ومريدين ، يأخذون عنه وينشرون ما يأخذونه على عباد الله وكان « أبو العباس » يردد ويقول دائماً : « علوم هذه الطائفة علوم تحقيق وعلوم التحقيق لاتحملها عقول عموم الخلق » . و « أبو العباس » هو الذى قال : « جميع ما فى كتب القوم عبرات دموع من سواحل بحر التحقيق » .



ولأن إيمان الشاذلية بالعلم كطريق موصل جيد ، فإنه وكما يقول سيدى « على الخواص » : « كانت القاعدة عند الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، والشيخ أبى العباس المرسى ، ومريديهما مثل ابن عطاء الله ، والشيخ ياقوت العرش ، في قبول الطلاب .. » الا يدخل أحد الطريق إلا بعد تبخره في علوم الشريعة والالتها .. بحيث يقطع العلماء في مجالس المناظرة بالحجج الواضحة ، فإذا لم يتبحر كذلك ، لا يأخذون عليه العهد » .

فالعلم .. كما يراه « أبو العباس المرسى » - ومن قبله استاذة « أبو الحسن » - هو زاد رحلة البحث عن الحقيقة . والعلم أولاً ، هو أن يعرف الانسان نفسه أو يجد في محاولة معرفتها . فكما يقول : « من عرف نفسه ، عرف ربه . ومن عرف نفسه بذلها وعجزها عرف ربه بعزه وقدرته » .

يقول « ابن عطاء الله السكندري » ، عن علم « ابي العباس » : « هو الجامع بين علم الاسماء والحروف والدوائر .. مشرق شمس المعارف بعد غروبها ، ومبدى أسرار اللطائف بعد غروبها » .. وكان ابا العباس - كما يقول الدكتور عبدالحليم محمود - « من كبار العلماء في علوم الظاهر ، ومن كبار الملهمين في علوم الباطن » .

وتحت عنوان « العالم » يقول الشيخ عبدالحليم في كتابه عن « ابي العباس » إن رجال المدرسة الشاذلية يعرفون أنه رضى الله عنه هو الذى بث علوم الشيخ ابي الحسن رضى الله عنه ، ونشر أنوارها ، وأبدى أسرارها .. وكان لابي العباس من العلوم الظاهرة كتب معينة ، يؤثرها ويدوم مذاكرتها وتدارسها .

● ففى أصول الدين : كان كتابه « الارشاد » وهو كتاب فى التوحيد والجدل والنقاش ، والانتصار لمذهب الاشاعرة وأهل السنة ، لايسهل تناوله على العاديين من الناس ، بل ولاعلى الكثير من المثقفين لانه يحتاج الى ممارسة طويلة فى علم الكلام والجدل .

● وكان كتابه فى الحديث « المصابيح » وهو كتاب على غرار كتاب « الترغيب والترهيب » .

● أما فى الفقه فكان يعنى بكتابه « التهذيب » .. و « الرسالة » .. وهما فى الفقه مشهوران .

● وكتابه فى التفسير هو كتاب « المحرر الوجيز » لابن عطية

● أما فى التصوف ، فقد كانت كتبه المفضلة هى : « الرسالة القشيرية » ، وكتاب « قوت القلوب » ، وكتاب « ختم الاولياء » للحكيم الترمذى ، وكتاب « الحقائق » للسلمى .

وبالإضافة الى علمه المتبحر ، فى علوم المعارف والأسرار وعلوم المعاملة ، كان « ابا العباس » شاعرا ، وشعره كما يوصف شعر معان ، وشعر تحليق فى سماء الروح ، ومن أمثله هذه القصيدة التى تعبر عن النفس وتعلقها بالبدن وتقيدها بالحظ وانبعاثها بالشهوة :

إذا كنت سائلنا عن خالص المنن
وعن تعلق ذات النفس بالبدن
وعن تشبثها بالحظ مذ الفت
أدراؤها فغدت تشكو من العطن

وعن تنزلها في حكمها ولها
علم يفرقها بالقبح والحسن
وعن بواعثها بالطبع ماثلة
تهوى بشهوتها في ظلمة الشجن
وعن حقيقتها في أصل معدنها
لا يثنى وصفها منها الى وثن
فاسمع هديت علوما عز سالكها
عن العيان ولا يغرك ذو لسن

ومن قصيدة أخرى كتبها الى أبي « عبدالله جمال الدين » يحثه على التمسك
بالفضائل يقول فيها :

واذا اردت من السلوك اجله
فالزهد في الدنيا مع السمات الحسن
واعبد إلهك حيث كنت على الرضا
تحظى بما قد ناله اهل المنن
اهل الولاية والهداية والتقى
هم سادتي منهم اصول على الزمن

وفي كتاب « ابن عطاء الله » قصيدة أكد انها وحدها بخط شيخه « ابي العباس
المريسي » يقول فيها هذه الابيات الرقيقة :

اعندك من ليلي حديث محرر
بايراده يحيا الرميم وينشر ؟
فعهدى بها العهد القديم وإننى
على كل حال في هواها مقصر
الى ان يقول :

ومن وجه ليلي طلعة الشمس تستضي
وفي الشمس ابصار الوري تتحير
وما احتجبت الا برفع حجابها
ومن عجب ان الظهور تستر !

لقد كان « ابوالعباس » رضى الله عنه عالما فى اللغة ، مادتها ونحوها وصرفها وعالما فى التفسير ، وفى الحديث ، وفى الفقه ، وفى السيرة ، وفى التصوف وهذا ماينبغى أن يكون عليه الصوفى .. فشعاره « وقل رب زدنى علما » .

من « تونس » الى « الاسكندرية » ، كانت الرحلة المقدسة « لآبى العباس » وشيخه « أبى الحسن » رضى الله عنهما وقدس روحيهما ..

والرحلة .. دفعت اليها احداث نجمها .

وفى زاوية « زغوان » بتونس حيث كان يقيم « ابوالعباس » مع القطب الغوث « أبى الحسن الشاذلى » .. كان مقر الدعوة الى الله ، فكانت الحشود الهائلة من المريدين وطلاب الحقيقة على اختلاف مستوياتهم .. من علماء وتجار وعامة ، يغشون - كما يقول « جودة ابواليزيد الشاذلى » فى بحث له فى مجلة « منبر الإسلام » - مركز الاشعاع الشاذلى ، وينهلون من أقباسه زاد الحكمة والتوجه الى الله .

ويرتفع شأن الامام « أبى الحسن » ، وتعظم منزلته فى قلوب العامة والخاصة الى حد أثار حقد قاضى القضاة « ابن البراء » ، وأقلق على مركزه فى نفوس العامة ، اذ رأى أن منزلته بدأت تتهاوى امام عظمة الامام « أبى الحسن » . فلجأ الى الايقاع به لدى السلطان « أبى زكريا » ، سلطان « تونس » . وكانت النتيجة هى ارتحال الامام « الشاذلى » الى بلاد المشرق ، حيث توجه الى الاسكندرية ، ثم الى بيت الله الحرام ، ثم كانت العودة الى تونس ثانية .

ويجربى التساؤل عن سر العودة الى تونس مرة ثانية .

والاجابة على لسان الامام الشاذلى : « هاردنى الى تونس الا هذا الشاب » .. ويقصد به بالطبع « آبا العباس المرسى » .

ثم يعود « ابوالحسن » الى الاسكندرية مرة اخرى ، ومعه فى هذه المرة « ابوالعباس المرسى » وارثه ، ومجموعة من مريديه .

يقول « ابوالعباس » ، وهو فى الطريق من تونس الى الاسكندرية مع شيخه ويلقى أضواء على منهاج القربىة التى كان يبعثها فيه شيخه « ابوالحسن » : « كنت مع الشيخ فى السفر . ونحن قاصدون الاسكندرية ، حين مجئنا من الغرب ، فأخذنى ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله . فأتيت الى الشيخ أبى الحسن ، فلما احس بى قال : أحمد . قلت : نعم ياسيدى . قال : « آدم خلقه الله بيده وأسجد

له ملائكته واسكنه جنته ، ثم نزل الى الارض . والله ما انزل الله آدم الى الارض لينقصه ، ولكن نزل به الى الارض ليكمله . ولقد انزله الى الارض قبل ان يخلقه بقوله : « انى جاعل فى الارض خليفة » ، ما قال فى السماء ولا فى الجنة . فكان نزوله فى الارض نزول كرامة لانزول إمانة ، فانه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف ، فأنزله الى الارض ليعبده بالتكليف فلما توفرت فيه العبوديتان إستحق ان يكون خليفته ، وانت ايضا لك قسط من آدم . كانت بدايتك فى سماء الروح ، فى جنة التعريف ، فأنزلت الى ارض النفس لتعبده بالتكليف ، فاذا توفرت فيك العبوديتان استحققت ان تكون خليفة .

هكذا اخذ سيدى « ابوالحسن » بيد سيدى « ابي العباس » ليوصله الى الله ، وليفرغ فيه سره الالهى ليكون خليفته من بعده ، ولقد توحدت روحاهما حتى صبح لكل منهما ان يقول للآخر : « يا انا » . ويغالى بعض الصوفية فيستوحون من الاتحاد الروحى بين الشيخ ومريده اولية سيدى « ابي العباس » فى تأسيس الطريقة الشاذلية ، ويدللون على ذلك بأن « ابا الحسن » كثيرا ما صرح لاصحابه بما بلغه « ابوالعباس » من منزلة سامقة فى الولاية . وبتحقيقه بأعلى المقامات . كان « ابوالحسن » يردد : « هذا ابوالعباس منذ نفذ الى الله لم يحجب عنه ، ولو طلب الحجاب لم يجده »إنها قمة الوصول وقمة الولايات وقمة التحقق .

وللتدليل على ذلك يذكرون ان ابا الحسن قال لمريده سيد زكى الدين الاسوانى :

« يازكى : عليك بأبى العباس ، فوالله انه لياتيه البدوى يبول على ساقيه فلايمسى عليه المساء الا وقد وصله الى الله . يازكى : عليك بأبى العباس فوالله مامن ولى لله كان او هو كائن الا وقد اطلعه الله عليه . يازكى : ابوالعباس هو الرجل الكامل » . وقد وقع بين الشيخ « ماضى بن سلطان » وبين « ابي العباس » جدال . سمعه الشيخ « ابو الحسن » ، فقال للشيخ ماضى : الزم الادب مع ابي العباس ، فوالله إنه لأعرف بأزقة السماء أكثر مما تعرف انت أزقة الارض

ولقد ظل « ابو العباس » ملازما لأستاذه فى الاسكندرية منذ عام ٦٤٠ الهجرى ، وكان عمره حوالى ٢٤ عاما . وقد جلس « ابو الحسن » وتلميذه فى جامع العطارين .. وبين الفينة والفينة يسافران الى مدن مصر ، يشعان بعلمهما على اهل مصر ، ويحملان الحقيقة .

وفى ذات يوم من عام ٦٥٦ هجرية قررا الحج الى بيت الله الحرام .. واصطحب الشيخ مريده مع من اصطحبهم . وفى الطريق بمكان يسمى الحميثراء .. بصحراء عذاب على

ساحل البحر الاحمر ، تولى الله عبده « الشاذلى » فدفنه مريده هناك .. ثم واصل رحلة الحج ، وعاد الى الاسكندرية .

حين عاد « ابو العباس » بعد وفاة شيخه ، جلس في مسجد صغير داخل باب البحر وحوله تلاميذه واتباعه من المريدين .. وقد عمر المسجد بذكر الله وحسن بايمانهم .. حتى اطلق على المسجد « القلعة » وكان مجلس « ابي العباس » مجلسا بهيا ، وصف كثيرا في مؤلفات مريديه « ما على وجه الارض مجلس في الفقه ابهى من مجلس الشيخ عز الدين ابن عبدالسلام . وما على وجه الارض مجلس علم ابهى من مجلس الشيخ زكى الدين عبد العظيم المنذرى . وما على وجه الارض مجلس في علم الحقائق ابهى من مجلس ابي العباس المرسى » .

كما كان « ابو العباس » يتفقد المريدين ، ويتتبع احوالهم بالهام من الله وفراسة المؤمن وبالسؤال عن احوالهم . ومن دقته في مراعاة الكرامة الانسانية للمريدين ، انه كان يكره للاشيخ اذا جاءهم مريد ان يقولوا له قف ساعة ويقول : ان المريد يأتى الى الشيخ بهمته المتوقدة ، فاذا قيل له قف ساعة ، طفىء ما جاء به . وكان اذا رأى مريدا يفتخر بزمه في الدنيا ، يقول : يا اخى لقد عظمت الدنيا حين رأيت لها وجودا ، حتى زهدت فيها ، فقدرها اصغر من ذلك .

وكان بعض المنتمين الى التصوف يحبون لبس المرقع ، وغليظ الطعام والشراب .. فماذا كان موقف ابي العباس ؟

يقول « ابن عطاء الله السكندرى » : طريقة الشيخ ابي العباس ، وشيخه ابي الحسن رضى الله عنهما ، وطريقة اصحابهما .. الاعراض عن لبس زى ينادى على سر اللابس بالافشاء ، ويفصح عن طريقه بالابداء ، ومن لبس الزى فقد ادعى .

ويقول ابو العباس : لن يصل الولي الى الله تعالى ، حتى تنقطع عنه شهوة الوصول الى الله تعالى . كما يقول ابو الحسن : لن يصل الولي الى الله ، ومعه شهوة من شهواته ، او تدبير من تدبيراته ، او اختيار من اختياراته .

ويشرح ما سبق الامام « ابن عطاء الله السكندرى » : « انه لن يصل الولي الى الله ، حتى تنقطع عنه شهوة الوصول الى الله ، اى انقطاع ادب لا انقطاع ملل ،

وكن عبده والبق القياد لحكمه

وايسك تدبيرا فما هو نافع

اتحكم تدبيرا وغيرك حاكم
 انت لاهلكم الاله تزلزع
 فمحو ارادات وكل مشيئة
 هو الفرض الاقصى فهل انت سميع؟
 كذلك سائر الاولون فادركوا
 على ائهم فليمش من هو تابع

ولم ينس سيدى « ابو العباس » ان يوجه مرديه الى فضائل معينة يلتزمون بها في
 انفسهم ، وتكون اساسا يرشدهم الى صداقة من يتحقق بها . ومن بين ما كان يقول للمريد :
 لا تصحب الا من تكون فيه اربع خصال : الجود من القلة ، والصفح عن المظلمة ،
 والصبر عند البلية ، والرضا بالقضية .

كان فكر « ابي العباس » ، ينحصر في اصلاح العبد في ثلاثة اشياء : معرفة الله
 ومعرفة النفس ومعرفة الدنيا . فمن عرف الله خاف منه . ومن عرف نفسه تواضع لعباد الله
 . ومن عرف الدنيا زهد فيها . ويقول : ان الله تعالى جعل من العبد ثلاثة اجزاء : فلسانه جزء
 ، وجوارحه جزء ، وقلبه جزء . وطلب من كل جزء وفاء .. فوفاء القلب الا يشتغل بهم الرزق .
 ولا مكر . ولا خديعة . ووفاء اللسان .. الا يغتاب ولا يكذب . ولا يتكلم فيما لا يعنيه . ووفاء
 الجوارح الا يسارع بها قط الى معصية ، ولا يؤذى بها احدا من المسلمين . فمن وقع من قلبه
 فهو منافق . ومن وقع من لسانه فهو كافر . ومن وقع من جوارحه فهو عاص .

ولقد ظل « ابو العباس المرسى » في الجامع او « القلعة » يشع نور العلم والمعرفة
 ويرسى طريقة الشاذلية ، ويبتعد عن اهل البدع . حتى كان يقول لاصحابه ويكررها دائما :
 « مخالطة اهل البدع تميت القلب . من كان فيه ادنى بدعة ، فاحذر مجالسته ، لئلا
 يعود عليك شؤمها بعد حين »

ومجلس « ابي العباس » في « القلعة » .. او الجامع كان مجلسا مهيبا . كان كما
 يقول ابن عطاء الله السكندرى : « ما كنت تجلس بين يدى ابي العباس الا والرعب يملأ
 قلبك » .. وكيف لا خاصة و « ان لله عبادا محق افعالهم بافعاله ، واوصافهم باوصافه
 ، وذاتهم بذاته .. وحملهم من اسراره ما يعجز عامة الاولياء عن سماعه »

كما يقول الامام الاكبر الدكتور « عبد الحليم محمود » في تاريخ تفسير القرآن ..
 فان الرسول ﷺ لم يمل تفسيرا للقرآن مطولا او مختصرا . وانما اثر عنه ﷺ كلمات

شريفة وجيزة عن هذه الآية أو تلك . وقد كان سلوك رسول الله ﷺ وقد قالت السيدة عائشة عن الرسول ﷺ « كان خلقه القرآن » وقال البعض ان الرسول ﷺ ، كان قرآنا يمشى على قدمين . فقد كانت حياته كلها ﷺ ، تت رسم في تفاصيلها وفي إجمالها النهج القرآنى ، وهى من هذه الوجهة تفسير للقرآن ..

ولقد سئل احد المفكرين عن خير تفسير للقرآن ، فقال : « الزمن » .
ولقد كان للصوفية في مسألة تفسير القرآن إلهامات وإشراقات بتوفيق الله رائعة . وهم في هذا الميدان يسمون إلهاماتهم « إرشادات » ، يعنون بذلك ان الآيات القرآنية لها تفسير - جاء فيما بعد - بحسب اللغة واسباب النزول ، وحوادث التاريخ . وهو تفسير يتفاوت دقة وجمالا ، ولكنه لا يستنفد كل ما تعطيه الآيات القرآنية من إرشادات ، وما يشع عنها من أنوار ، وما يتضوع منها من عبر طيب .

ومن اجل ذلك فان إلهامات الصوفية في الآيات القرآنية فياضة دائما ، سيالة باستمرار .

ولأبى العباس المرسى دقائق وإلهامات في استنباط أسرار القرآن الكريم ، لم تسمع إلا منه . ومن بين هذه التفسيرات التى نسبت لسيدى أبى العباس المرسى ، نجتزئ بعض النماذج :

يفسراتة الكتاب فيقول :

« الحمد لله رب العالمين » : علم الله عجز خلقه عن حمده ، فحمد نفسه بنفسه في أزه ، فلما خلق الخلق إقتضى منهم ان يحمده بحمده ، فقال الحمد لله رب العالمين ، أى قولوا الحمد لله رب العالمين ، أى أن الحمد لله الذى حمد به نفسه بنفسه هوله لا ينبغى ان يكون لغيره ، فعلى هذا تكون الالف واللام للعهد .

ويقول « ابن عطاء الله » . سمعت « أبا العباس » يقول في قوله عز وجل « اياك نعبد واياك نستعين » .. اياك نعبد ، شريعة واياك نستعين ، حقيقة اياك نعبد اسلام . واياك نستعين ، احسان . اياك نعبد ، عبادة . واياك نستعين عبودية اياك نعبد فرق واياك نستعين جمع .

وإما « إهدنا الصراط المستقيم » - كما يقول « أبو العباس » - بالثبوت فيما هو حاصل ، والارشاد ليس بحاصل - عموم المؤمنين يقولون : « إهدنا الصراط المستقيم » .. أى بالثبوت فيما هو حاصل . والارشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم حصل لهم التوحيد . وفاتهم درجات الصالحين .

والصالحون يقولون : « إهدنا الصراط المستقيم » .. ومعناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل ، والارشاد لما ليس بحاصل ، فانهم حصل لهم صلاح وفاتهم درجات الشهداء .

والشهداء يقولون : « إهدنا الصراط المستقيم » .. أى التثبيت فيما هو حاصل ، والارشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم لهم درجات الشهداء وفاتهم درجات الصديقين . والصديقون يقولون : « إهدنا الصراط المستقيم » أى بالتثبيت فيما هو حاصل ، والارشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم حصل لهم درجات الصديقية وفاتهم درجات القطبية .

والقطب يقول : « إهدنا الصراط المستقيم » .. أى بالتثبيت فيما هو حاصل ، والارشاد لما ليس بحاصل .. فانه قد حصل له رتبة القطبانية ، وفاته علم اذا شاء الله أن يطلع عليه ، أطلع .

وفى قوله تعالى : « إن تعذبهم ، فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » من سورة المائدة . سأل سائل الامام « ابا العباس » : لم قال عيسى عليه السلام هذه الآية ، ولم يقل « الغفور الرحيم » بدل « العزيز الحكيم » ؟ . وقد اجاب « ابو العباس » يقول : إنما عدل عن قوله « انك انت الغفور الرحيم » الى قوله « فانك انت العزيز الحكيم » .. لانه لو قال « وإن تغفر لهم فانك انت الغفور الرحيم » لكان شفاعا من عيسى عليه السلام لهم فى المغفرة . ولا شفاعا فى كافر ، ولأنهم عبدوا من دون الله ، فاستحى من الشفاعا لهم عنده وقد عبدوا غيره .

ويفسر الآية الكريمة : « سبحانه الذى اسرى بعبده ليلا » من سورة الاسراء فيقول : لم يقل الله جل شأنه : اسرى بنبيه ولا برسوله وهو نبيه ورسوله وانما كان كذلك ، لانه اراد ان يفتح باب السريان للاتباع ، فأعلمنا بأن الاسراء من بساط العبودية . فالنبي ﷺ كان له كمال العبودية ، فكان له كمال الاسراء ، اسرى بروحه وجسمه وظاهره وباطنه . فالاولياء لهم قسط من العبودية ، فلهم قسط من الاسراء ، يسرى بأرواحهم .. لا بأشباحهم .

وبالاضافة لتفسير القرآن .. فقد وجدنا « لأبى العباس » تفسيراً منفرداً للأحاديث النبوية .

فمثلاً كان أبو العباس يفسر حديث الرسول « إنما أنا رحمة مهداة » .. بقوله :

« إن الانبياء الى امهم عطية ، ونبينا ﷺ هدية . وفرق بين العطية والهدية ان العطية للمحتاجين ، اما الهدية فـللمحبيين . »
وفي قوله ﷺ « السلطان ظل الله في الارض ، يقول « ابو العباس » : هذا اذا كان السلطان عادلا . اما اذا كان جائرا ، فهو ظل النفس والهوى ،
ويفسر « ابو العباس » قوله عليه الصلاة والسلام : « يسروا ولا تعسروا »
فيقول : اى دلوهم على الله ، ولا تدلوا على غيره . فان من ذلك على الدنيا فقد غرك ، ومن ذلك على الاعمال فقد اتعبك ، ومن ذلك على الله فقد نصحك .



كان « ابو العباس » يقول لتلاميذه : « إن لحوم الاولياء مسمومة ولولم يؤخذوك .. فاياك .. و ثم اياك » . وكان يقول ايضا : « اذا ضاق الولى هلك من يؤذيه في الوقت » . ولذلك فقد فرض هذا الولى القطب الغوث احترام الاولياء الصادقين على الناس .

ولقد اقام « ابو العباس » في الاسكندرية ثلاثا واربعين سنة ينشر العلم ويهذب النفوس ، ويضرب المثل بورعه وتقواه الى ان انتقل الى جوار ربه في الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٥ هـ « ١٢٨٧ الميلادية » . ودفن بقبره خارج باب البحر في منطقة رأس التين . وقبره مشهور بإجابة الدعاء ، وقد قال احد المؤرخين ، إن قاضى الاسكندرية حدثه ، قال : « إن قبر سيدى ابي العباس المرسى عندنا ترياق مجرد ، ما قصد الله عنده احد في شيء الا استجاب له » .



مات القطب الذى كان يدفع مريديه الى العمل ، ويرى ان العمل هو عين التسبيح ، وانه كمال المجاهدة . وكان كثيرا ما يقول لمريديه « عليكم بالسبب .. وليجعل احدكم مكوكه سبحته ، او قلدومه سبحته ، او تحريك اصابعه في الخياطة او الضفر سبحته » . وكان يدفع مريديه الى العمل ، ويقول : « فوالله ما رايت العزالا في رفع الهمة عن الخلق ، ولا السلامة في الدنيا الا بترك الطمع في المخلوقين » ، يقول المقرئ في « نفح الطيب » .. إن « ابا العباس » كان لا ينظر من الناس الا الى ما يبدو عليهم او يصدر عنهم من تقوى وصلاح . فقد يدخل الى مجلسه رجل غير موصوف عند الناس بالصلاح والتقوى فيحتفى به . لان الرجل الصالح ربما افضى الى هذا المجلس وعليه اثر مباهاة بعمله الصالح ، اما سواه من غيره الصالحاء ، فيدخل المجلس بكسر معصيته وذل مخالفته ،



ولقد ظل قبر « ابي العباس » دون بناء عليه حتى عام ٦٠٧ هـ . حيث اقام عليه كبير تجار الاسكندرية الشيخ « زين الدين بن العطلان » ضريحا وقبة ، وبني بجواره مسجدا ، وحبس عليه بعض الاملاك .. بعد ان رأى رؤيا فى المنام فحققها .

وقد خضع المسجد لتطورات كثيرة بعد ذلك ، حيث اعاد بناءه الى الاسكندرية الامير « قجماش » فى اواخر القرن التاسع الهجرى ، وبني لنفسه قبرا فيه . وفى عام ١٠٠٥ جدد بناءه الشيخ « ابو العباس السنفى » . ودفن فيه بعد وفاته . وفى سنة ١١٨٩ زار الاسكندرية الشيخ « ابو الحسن على بن عبد الله الخزرجى » ، وجدد معظم اجزاء المسجد ، ووسع بعض نواحيه ثم جدد فى عام ١٢٨٠ هـ « احمد الداخنى » شيخ طائفة البنائين ، وأوقف عليه اوقافا كثيرة .

وكما تقول الدكتورة « سعاد ماهر » فى كتابها « مساجد مصر » .. وائل القرن العشرين اعادت وزارة الاوقاف بناء المسجد على مساحة تبلغ ٣٠٠٠ متر ، وبارتفاع ١٨ مترا . اما تصميم المسجد فهو يشبه الى حد كبير تصميم قبة الصخرة .. فهو يتكون من مئمن خارجى يبلغ طول كل ضلع من اضلاعه ٢٢ مترا ، بداخله مئمن آخر يكون من ثمان دعائم وستة عشر عمودا من الجرانيت ، وفى الوسط ثمانية اعمدة تقوم عليها قبة مئمنة يبلغ محيطها ٥١ مترا .

وللمسجد ثلاثة مداخل رئيسية كلها معلقة ، اذ يصعد اليها الصاعد بدرج ، احدها فى الجهة الشمالية فى مواجهة حائط القبلة التى تقع فى الضلع الجنوبى ، والآخر فى الجهة الشرقية ، والثالث وراء حائط القبلة .

كما اقيم فوق الاضحية قبتان : الغربية منها فوق ضريح ابي العباس رضى الله عنه وولديه . والشرقية تعلو ضريح ابن ابي شامه ، وابن الحاجب ، والفكهانى ، وابن اللبان . والامير قجماش . والخزرجى . وفى الضلع الجنوبى للمسجد توجد المئذنة التى يبلغ ارتفاعها ٧٣ مترا ، ولها اربعة طوابق .. وقد بلغت تكاليف انشاء المسجد ما يقرب من ربع مليون جنيه مصرى .

هذا المسجد الذى تسمق مئذنته العالية فى حى رأس التين بالاسكندرية ، له قصة مع المهندس الذى بناه ، والقصة تمتزج فيها البركات مع الكرامات مع المفارقات فى تلك البقعة الطاهرة المدفون فيها سيدى « ابو العباس المرسى » رضى الله عنه .. حارس الاسكندرية ، والذى يعشقه اهل مصر ، ويعتبرونه مصدر خير ، خاصة التجار منهم .. وتجار الاسكندرية على وجه الخصوص ..

والقصة المذكورة في كتاب الدكتور « حسين مؤنس » بعنوان « احاديث منتصف الليل » ، وسأذكرها بلا تعليق .. وإنما اتركه للقارئ الكريم :
في حوالى سنة ١٩٢٨ ، وفد على مصر مهندس إيطالى شاب إستدعته الحكومة المصرية للاستعانة به في اعمال تعمير المساجد ، الذى كانت تقوم به وزارة الاوقاف في ذلك الحين . كان اسمه « ماريو روسى » ، وكان مهندسا معماريا ، وعالما ، رغم صغر سنه .

كان « روسى » طرازاً موهوباً من الرجال ، وكان طويل الصمت والفكر مغرماً بالبحث في العمارة الماضية واكتشاف كنوزها ، وانشاء عمارة جديدة على اساسها .

والى جانب ماكانت وزارة الاوقاف تكلفه به من أعمال ترميم وبناء .. مضى « روسى » يزور المساجد والبيوت الاثرية التى كانت في مصر ، وينقل كل ما فيها من نقوش اسلامية على ورق . وأستمر في ذلك العمل سنوات طويلة ، أنشأ فيها مجموعات هائلة من اللوحات .. وهذه اللوحات المحفوظة الآن في محفوظات وزارة الاوقاف المصرية أعظم ذخرفنى في العمارة الاسلامية في مصر .

وبينما كان « روسى » يقوم بهذا العمل .. طلبت اليه وزارة الاوقاف ان يعد مشروعاً لاعادة بناء مسجد ولى الاسكندرية وحارسها ابنى العباس المرسى .

ونھض « روسى » بالعمل .. فعمل مشروعاً بديعاً لبناء المسجد ، يعتمد على الاصول والنماذج الفنية التى درسها ، وابتكر في هذا المشروع عناصر معمارية جديدة تمثل العقد المديب المستطيل الى أعلى .. وفوق البلاطة - اى المربع الذى يقوم امام المحراب - اقام « روسى » قبة رائعة رفعها على اعمدة من الرخام وعقود مستطيلة ، وتعتبر هذه القبة من اجمل قباب المساجد المصرية الحديثة و

وبعد ان انتهى المسجد تبين للناس ان « روسى » قام بأجمل عمل معمارى دينى في العالم الاسلامى منذ قرون طويلة .. وأصبح مسجد ابنى العباس المرسى موضع إعجاب المعمارين جميعاً ، واتخذوه أساساً لانشاء المساجد الاسلامية الجديدة في مصر والعالم العربى .

- في أثناء ذلك كان « ماريو روسى » يقترب من الاسلام شيئاً فشيئاً ، من دراسة الآثار الاسلامية ، تنتقل الى دراسة الاسلام ، فلم يلبث ان مال قلبه اليه ، فقد وجد فيه راحة النفس التى كان ينشدها منذ زمن طويل ، فدرس العربية حتى اتقنها ، أخذ يقرأ القرآن فازداد حبا للاسلام وقرباً منه .. وتمكن الاسلام من قلبه .

و ذات ليلة كان يتمشى على شاطئ البحر في الاسكندرية .. توجه الى مسجد ابي العباس ، وسال عن شيخ المسجد فأتاه ، فقال له :
- أريد ان اعتنق الاسلام .

ونظر الشيخ اليه في شيء من الدهشة ، ولكنه رأى في وجه هذا الايطالى ايمانا بالغاً .
فقال له : لابد لنا من شهود .. لنجعل ذلك بعد صلاة العشاء .
وانقضت صلاة العشاء .

فلما انصرف الناس ، اقبل شيخ المسجد ، ومعه صاحبان له ..
وفي صحن المسجد اعلن « روسى » إسلامه ، وقرأ القرآن ، ثم قام فصلى مع المشايخ صلاة شكر لله ، ثم قال لهم انه يريد ان يقضى بقية الليل في المسجد .
كان ذلك في منتصف ليلة من ليالى مايو ١٩٤٦ ..
قام « روسى » على قدميه ، فصلى لله ، ثم جثا على ركبتيه ودعا الله دعاء طويلاً .. وترحم على ابي العباس ولى الاسكندرية وحارسها

إنتهت قصة المهندس الذى شيد جامع ابي العباس .
لكن لاتنتهى قصة هذا المهندس ، الذى اسلم بعد بنائه جامع ابي العباس .. فللقصة في ذهن كل مفكر تساؤلات وتساؤلات .. لكن في ذهن « روسى » قد يكون لها اسباب .. هى التى دفعته الى ان يعلن اسلامه .. ربما شاهد الكثير من « كرامات » ولى الله ، ابي العباس المرسى ...



نختم هذا الفصل عن « ابي العباس المرسى » بايراد بعض فقرات من حزبه الذى ذكره الامام « تاج الدين بن عطاء الله السكندرى » ، في كتابه « لطائف المفنن » .

والحزب يبدأ بالفاتحة ، وبعض الآيات والصور ، ومنها سورة المدثر وسورة اقرأ ، وآية من سورة الرحمن ، والصمدية ... ثم أدعية منها :

« اللهم يا بديع السموات والأرض ، يا قيوم الدارين ، ويا قيوم بكل شيء ، يا حي يا قيوم يا الهنا ، لا اله لنا الا أنت ، كن لنا ولياً ونصيراً وأميناً ، وأماناً بك من كل شيء حتى لانخاف الا أنت ، واجعلنا في جوارك ، واحببنا بالذى حبيب بك أوليائك ، فترى ولا يراك أحد من خلقك ، واصبب علينا من الخير اكمله وأجمله ، واصرف عنا من الشر اصغره واكبره ، طس ، حم ، عسق ، مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان » .

« اللهم إنا نسألك الخوف منك ، والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق اليك . والانس بك ، والرضا عنك . والطاعة لأمرك على بساط مشاهدتك . ناظرين منك اليك ، وناطقين بك عنك ، لا اله الا انت سبحانك ربنا ظلمنا انفسنا ، وقد تبنا اليك قولا وعقدا فتب علينا جودا وعطفا ، واستعملنا بعمل ترضاه ، واصلح لنا في ذرياتنا إنا تبنا اليك ، وإنا من المسلمين » .

« ياغفور ، ياودود ، يابر ، يارحيم ، اغفر لنا ذنوبنا وقربنا بودك ، وصلنا بتوحيدك . وارحمنا بطاعتك . ولاتعاقبنا بالفترة . بالوقفة من كل شيء دونك واحملنا على سبيل القصد ، واعصمنا من جائرها ، إنك على كل شيء قدير .

وختام حزب ابي العباس المرسى هو :

« يا الله ، ياقدير ، يامريد ، ياعزيز ، ياحكيم ، ياحميد .. إنا نسألك بالقدرة العظمى . وبالمشيئة العليا . وبالآيات والأسماء كلها . وبهذا العظيم منها . ان تسخر لنا هذا البحر . وكل بحر هولاك في الارض والسماء والملك والملكوت . كما سخرت البحر لموسى . وسخرت النار لابراهيم . وسخرت الجبال والحديد لداود . وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان . وسخرنا كل شيء . يامن بيده ملكوت كل شيء . وهويجير ولايجار عليه . ياعليم ياعظيم . يااحليم .. »

ونختتم الحديث عن سيدى ابي العباس ، ندعومه .. بعض ماكان يدعوبه الله العلى القدير .

« يا الله ، يانور ياحق يامبين : احي قلبى بنورك ، وائتمنى بشهودك ، وعرفنى الطريق اليك . رب اغفر لى واجعلنى لك عبدا ذائب النفس بأنورك . مطموس الحس بجلالك ، واغفر لى وللمؤمنين والمؤمنات .

« اللهم اغفر لى واسترنى ولاتفضحى فى الدنيا والآخرة ، وعلمنى وذكرنى وارحمنى وفرحنى ويرنى وفرغنى من كل شيء الا من ذكرك وطاعتك ، وطاعة رسولك ، ومحابك ومحاب رسولك صلى الله عليه وسلم .

« اللهم كن بنا رعوفا ، وعلينا عطوفا ، وخذ بأيدينا اليك اخذ الكرام عليك ، اللهم قومنا اذا اعوججنا ، وأعنا اذا استقمنا ، وخذ بأيدينا اذا عثرنا وكن لنا حيث كنا » .

« يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، اجمع بينى وبين طاعتك على مساعدتك وفرق بينى وبين هم الدنيا وهم الآخرة ، ونب عنى فى امرهما ، واجعل همى انت ، واملا قلبى بمحبتك

وبهجة بانوارك ، وخشع قلبي بسلطان عظمتك ، ولا تكلني الى نفسى طرفة عين ولا اقل من ذلك » .

ونقول مع ابي العباس ، ونردد .. آمين آمين ..

ونقول ايضا ان هذه الادعية وغيرها .. وكذلك « حزبه » نقلناها عن كتاب الامام الاكبر الدكتور « عبد الحليم محمود » .. وغفر الله لكل من ابان شيئا عن حياة شارس الاسكندرية ابي العباس المرسى رضى الله عنه .

ونختتم الحديث برواية للإمام الشاذلى قال فيها : لن تهلك طائفة فيها امام وولى وصديق وشيخ . ثم قال : فالامام .. ابو العباس .

ولن نتحدث عن الكرامات .. فهى ملموسة ومحسوسة ، ولكن نقول ونذكر ان ابا العباس كان يقول : « والله ماجلست حتى جعلت جميع الكرامات تحت سجادتي » ..

أعلام
التصوف
الاسلامي

البوصيري

امام المادحين
وسلطان العاشقين



● ● كاننى المبح هذا الرجل ، بعوده النحل ، وقوامه الاقرب من القصر الى الطول وهو يسير فى شوارع القاهرة القديمة حول الجامع الازهر بالقرب من المشهد الحسينى .. او فى حى باب سدره القديم بالاسكندرية .. يخطو خطوات يظن من يلحظه اثناءها انه سىكبو ويتعثر .

لكن هذه المشية صارت عادية عند الكثيرين الذين يعرفونه .
انما الذى كان يثير الناس ، ويخطف ابصارهم ، ويجعل بعضهم يهرول اليه ، ليقبل يديه .. ما اشيع عنه من ان جسده ينثر عطرا من نوع خاص .. وان الشيب فى لحيته تنبعث منه شعاعات من نور .. وثغره ياخذ سمت الرضا والابتسام دائما لم يكن شيخ طريقة .. ولا صاحب نظرية فى التصوف .

هو مصرى متدين . كانت امنيته ان تكون حياته خالصة للتصوف . مصرى يمثل خصائص البيئة المصرية الاصيله ، بالايمان المتاصل فى النفس المصرية عموما حتى النخاع .. ومع الايمان « سخرية » انضجتها الايام والاحداث التى سبقت عصره بقرون وقرون ...

وهو فنان بمفهوم العصر الحديث ..
لكنه فنان ملتزم بعصره واحداثه . فنان مؤمن شديد الايمان ، عاش فى عصر كفىل بان تنبثق من احشائه عشرات مثله من الفنانين الصادقين الموهوبين .. او سمهم العباقرة ان شئت .

ولوحات هذا الفنان تتوزع بين غرضين .. الاحتجاج الساخر .. والتعبير الدينى الصادق .. لكن الغرض الاخير ، ولو انه استغرق فترة من حياته فقد عرف به واشتهر .. وصار من الائمة والاولياء .

ورغم ان اهل مصر ، وغير مصر ، صاروا يرددون فنه .. الا انه عاش انسانا عاديا بسيطا متصوفا على الكفاف ، يعانى شظف العيش وكثرة الاولاد .

وكان الامراء والولاة والسلاطين يعرفون قدره ويخطبون وده لكنه كان يحفظ عن ظهر قلب ما قاله قطب فى التصوف من ان « لحوم الاولياء مسمومة » .. فلم يكن

هو بالذى يسكن على ضيم او يغمض عينه على معصية ، او يتهاون فى حق وطنه .. من اجل اغراء الاصفر الرنن .

بلاده .. مصر اقتطعت الامن والامان ، واستشرت فيها الانتهازية والمرتزة . ووطنه المسلم تهددته الحروب والكوارث والاوبئة والمجاعات .. والانتهازية بدأت انيلها تبرز ومخالبها تنشبها فى كل من يقول كلمة حق .

لكنه بايمانه القوى لم يخف ، ولم ترتعد فرائصه ، بل خصص فنه وعبقريته لكشف هؤلاء ، ولتعقبهم فى كل مكان . وشجاعته هذه جلبت عليه الكثير من المسغبة وشظف العيش . حتى صار انسانا « مكافحته » واجبة .

لكنه ظل صامدا ، صابرا ، اصيلا رغم كثرة العيال ، ورغم ظروفه التى لم تقدر رسالته . فى عصر خلا من المبادئ والقيم والاخلاق لدرجة ان بعض الفقهاء والقضاة لم يرعوا حق الله .

وكمؤمن صلب . ظل على مبدئه مهما عبس الزمان وقطب فى وجهه .. اقتحم اسوار كل عمل شريف ياتى بلقمة حلال ولو جاع العيال .. ثم كانت « خبطته » الكبرى .. او ضربة العمر فى بحر البسيط .. قصيدته التى تخاطف ابياتها الناس ، وصارت هى محور الاهتمام والبركات ، و« مرفا » نفسيا .. فى بحر الحياة المتلاطم بامواجه ..

قلبت هذه القصيدة المفاهيم ، واثرت على الوجدان .. هذه القصيدة انهت غربته ، ورفعت اسمه وصيته فى كل مكان ..

لقد صار بها هذا الرجل تاجا على رعوس المؤمنين من البسطاء وقطب « غوثيا » عند المؤمنين من المتصوفة .. وهو بين الشعراء صار اماما للمادحين وسلطانا للعاشقين للرسول ﷺ واهل بيته الكرام .. انه « البوصيرى » الشاعر القطب المؤمن .. الانسان المصرى المؤمن ..



شهدوا جميعا .. بانه امام المادحين للنور المحمدى ..

وعقدوا له لواء اماره الشعر الدينى ..

فلقد جاءت قصيدته فى مدح رسول الله ﷺ آية فى البركات والنفحات مؤججة للوجدان الدينى .. كما ان فى القصيدة - التى تحوى مائة وستين بيتا - اشياء اخرى كثيرة .. حتى ان الدكتور « زكى مبارك » - او الدكاترة « زكى مبارك » ، والذى

لا يعرف قدره ابناء هذا الجيل ، كتب يقول : « والبوصيرى بهذه البردة هو الاستاذ الاعظم لجماهير المسلمين . ولقصيدته اثر في تعليمهم الادب والتاريخ والاخلاق . فعن البردة تلقى الناس طوائف من الالفاظ والتعابير غنيت بها لغة التخاطب . وعن البردة عرفوا ابوابا من السيرة النبوية . وعن البردة تلقوا ابلغ درس في كرم الشماثل والخلل . وكذلك استطاع البوصيرى ، بتصوفه ، ان يؤثر في الادب والاخلاق تأثيرا لا يدرك كنهه الا من رأى كيف تدور البردة على السنة العوام ، وكيف تهذب ماطبعوا عليه من عنجهية الخصال . وليس من القليل ان تنفذ هذه القصيدة بسحرها الاخاذ الى مختلف الاقطار الاسلامية ، وان يكون الحرص على تلاوتها وحفظها من وسائل التقرب الى الله والرسول » ..

لقد انعم الله على الامام « البوصيرى » بهذه القصيدة .. بعد رحلة معاناة طويلة ومثيرة لحياته ، ظلت تعزف الشعر ، وتتناغم فيها الكلمات .. لفترة تربو على اكثر من نصف قرن من الزمان ، وفي حياة امتدت ثمانية وثمانين عاما . فجاءت البردة تاجا لشعره .. ونموذجا طيبا للشعراء العاشقين ، المادحين للرسول ﷺ ..

لقد قال « البوصيرى » في حياته الطويلة المثيرة شعرا كثيرا ..

وخاض « البوصيرى » كل اغراض الشعر .. كما خاض اغلب بحوره .. كانت حياته شعرا في شعر ، في كل مكان في مصر زاره او عمل فيه .. لكن « البردة » .. انست الناس جميع شعره .. وهى التى خلدت ذكره ، ورفعت صيته ، وجعلته على راس شعراء المديح المحبين العاشقين للرسول ، واهل بيته الكرام .. كما انها - القصيدة - التى رفعت من شأنه عند المتصوفة ، الذين رفعوه بهذه القصيدة الى مقام « القطبانية » .. و« الغوثية » ..

ورغم ان هذه القصيدة لم تكن اولى قصائد المديح لرسول الله ﷺ في الشعر العربى .. او هى القصيدة الوحيدة « للبوصيرى » .. كما لم تكن هى آخر قصائد المديح ايضا ، ولن تكون كذلك .. فان هذه القصيدة بظروف عصرها الذى قيلت فيه ، وبالوجدان المسلم التقى وبالملايسات والمناخ الذى ظهرت فيه .. كل ذلك جعلها « درة » شعر المديح النبوى ..

ولذلك ، فان امير الشعراء « احمد شوقى » ، رغم انه كتب « نهج البردة » ، والتى تعتبر من عيون الشعر العربى ، ومن اجود القصائد التى قيلت في المديح .. كما كتب الهمزية في مدح الرسول ﷺ ، وهى كما جاء في كتاب الدكتور « حسين مؤنس » « احاديث منتصف الليل » .. احلى واجود من همزية البوصيرى ، حين اعترف شوقى

بذلك .. وايدة الشاعر عبدالرحمن صدقى .. اقول رغم ذلك كله .. فلقد شهد شوقى نفسه للبوصيرى وبايعة قائلا بالامارة ، واعتذر له مؤكدا انه لم يكتب معارضا للبوصيرى :

الملاحسون وارباب الهوى تبعوا
لصاحب البردة الفجاء فى القدم
مبيحه ليه حب خالص وهوى
وصائق الحب يمل صائق الكلام
الله يعلم انى لا اعرضه
من ذا يعرض سبيل العرض العرم
وانما انا بعض الغلطين ، ومن
يفبط ولبك لم يذمم ولم يلم
هذا مقل من الرحمن مقتبس
ترى مهلتك سحبان بالكلام

« شوقى » هنا يعترف « للبوصيرى » بأنه امام المادحين ، وامام الشعراء المجيدين فى مدح الرسول ﷺ . ويعترف له ايضا بأن كل الشعراء الذين خاضوا بحر المديح للرسول عليه الصلاة والسلام قبل « البوصيرى » ، وبعده ، هم « اتباع » لهذا الامام .. فهو - اى البوصيرى - كالسيل العرم ، وهو صادق ، وان هذا الصدق يأتى بصادق الكلام والشعور . او صدق « بردة البوصيرى » .

وهذه الابيات التى قالها « شوقى » فى « البوصيرى » ، هى من قصيدته « نهج البردة » ، التى نظمها واهداها للخديو .. تكفيرا له عن هروبه من رحلة الحج الى بيت الله الحرام ..

فلقد كان الخديو ، قد أصدر فرمانه ، بأن يسافر شاعره معه فى هذه الرحلة المقدسة .. ووقع شوقى فى « مطب » كبير .. يبدو انه لم يكن مهيا نفسيا للحج الى بيت الله الحرام . لكنه بالفعل ركب القطار المسافر من القاهرة الى الاسماعيلية . وحين وصل الى هذه المدينة ونزل منه الخديو استعدادا لركوب السفينة .. تسرب الشاعر واختفى ، دون ان يراه او يدرى به احد .. وعاد للقاهرة . وفى الطريق الى رحلة الحج ووسط مياه البحر ، سأل الخديو عن شاعره ، وبحثوا عنه فلم يجده . فغضب الخديو على شوقى لمخالفة امره .. ووصل هذا الخبر الى شوقى . وفكر شوقى فى اعتذار رقيق

للخديو على ما يدر منه . كانت قصيدة « نهج البردة » التى قدمها ، والتى تقع فى مائة
وثمانين بيتا من أجود الشعر وأرصنه ، واحفله بالتراكيب الموسيقية ..

ولقد نشرت « نهج البردة » .. لأول مرة فى جريدة « المؤيد » التى كان يرأس
تحريرها الشيخ « على يوسف » فى العدد الصادر فى ٢٦ يناير ١٩١٠ كما نشرت فى
كتيب مستقل ، مشروحة بقلم الشيخ « سليم البشرى » . وهذه القصيدة مطلعها :

ريم على القاع بين البلى والعلم
احل سفك دمي فى الاشهر الحرم
رمى الفضاء بعيني جؤذر اسدا
يا سكن القاع اترك سكن الاجم
لما رنا حشنتنى النفس قلالة
يلويح جنبك بلسهم المصيب رمي
جحدنها وكنت السهم فى كبدى
جرح الاحبة عندي غير ذى الم
رزقت اسلمح ما فى النفس من خلق
اذا رزقت التماس العذر فى الشيم

والواقع انه ما اكثر القصائد العصماء - الحافلة بالمدائح النبوية - التى قالها
الشعراء منذ بدء الرسالة وحتى الآن .. ونحن قد قدمنا قصيدة « نهج البردة » لأمير
الشعراء « احمد شوقي » لانه قريب العهد بنا ..

وكل من يقرأ فى تاريخ الشعر الدينى العربى الاسلامى ، يستطيع ان يحصى
الآلاف المؤلفة لشعراء أجادوا فى مدح الرسول ، ولم تسعفهم وسائلهم الى ان ينالوا
الشهرة كما نالها البوصيرى .. لكن يبقى ان نقول عن هؤلاء الشعراء انهم قالوا
قصائدهم فى مديح رسول الله ﷺ من نبع الحب للرسول ولآل بيته الكرام . ولا نشك فى
محبة هؤلاء لرسول الله واهل بيته الشريف .. وانما الحب درجات بالطبع .. وهذا هو
سبب تفضيل شاعر على آخر ، وقصيدة على مثيلتها ..

والواقع انه يقف بجانب « بردة » البوصيرى ، و« نهج البردة » لشوقي قصيدة
اخرى ثالثة .. هى التى ينبغى علينا كمنصفين متجردين ان نعقد لها الريادة فى شعر
الديح ، وهى قصيدة الشاعر « كعب بن زهير بن ابي سلمى » ..
وقبل ان نتحدث عن هذه القصيدة .. ينبغى ان نلفت الانتظار اولا .. الى ان
الاعمال الكبار ، او التى نعتبرها كذلك - ومهما كانت صفة صاحبها .. لاتكون كذلك

الا من خلال مناخات وظروف وملابسات .. هي التي تعطى هذا العمل ، او ذاك ، تلك الشهرة العالية ، او غير العالية ..

فالمناسبة والموضوع والظروف .. من الممكن ان تنفذ عملا فنيا جيدا .. ومن الممكن ايضا ان تعطى لواء الشهرة والذيعوع لعمل عادى ..

ففى عصر الصدر الاول من الاسلام قيلت قصائد كثيرة وجيدة في مدح الرسول ﷺ .. وهذه القصائد لشعراء كبار مشهورين ، مثل « الاعشى » ، و « حسان بن ثابت » وغيرهما من الذين امتلا باسمائهم وقصائدهم ديوان الشعر العربى ، على مدى اربعة عشر قرنا من الزمان .. لكن القصيدة التي اشتهرت اكثر من غيرها في تلك الفترة هي قصيدة « كعب بن زهير » .. والسبب كما قلت هو الظروف والملابسات التي عايشتها .. وهذه القصيدة مطلعها :

بانت سعد فطلبى اليوم مكيول
متيم اثرها لم يفد مكبول
وما سعد غداة البين اذ برزت
الا اغنى غضبيض الطرف مكبول
نبئت ان رسول الله اوعى دنى
والعفو عند رسول الله مامول

وهذه القصيدة ، لها قصة ترويحها الكتب .. فهذا الشاعر الذى شاهد ظلام الجاهلية ونور الاسلام واليقين ، كان شاعرا فذا ، ورث الشعر عن ابيه « زهير بن ابي سلمى » . ولقد ظهر نبوغ « كعب » عند اشراقة شمس الاسلام - اوقبله - وفي مفتتح الاسلام اضاء الله قلب اخ له واسمه « بجيرا » .. الذى اقبل على الاسلام وذهب الى الرسول ﷺ واشهر اسلامه ، فكان هذا - على ما يبدو - مما اثار « كعبا » ، وجعله يتورط في هجاء اخيه ، وهجاء الدين الجديد .

وكما كان الشعر هو اعلام العصر .. فقد كان لقصيدة كعب تأثير كبير ، خاصة والرسالة النبوية الشريفة في بدايتها . ويقال ان الرسول ﷺ حينما علم بالقصيدة اهدردم قائلها ، وبعث اليه بأخيه « بجيرا » يحذره وينذره .

لكن يبدو ان « كعبا » في تلك الفترة مس شغاف قلبه نور الايمان ، فقدم على الرسول ﷺ محبا ، وداخلا في الدين ، طالبا من الرسول الصفح والعفو عما بدر منه من جهالة .. وانشد بين يدي الرسول ، وعلى رعوس الاشهاد قصيدته « بانت سعد » ..

ويقول الرواة ، ان هذه القصيدة اعجبت الرسول عليه الصلاة والسلام .. ولذلك فانه
ﷺ ، لم يكتف باظهار العفوعن « كعب » ، وانما خلع عليه برده .. او عباة .. فكان معا
اشهر « كعبا » على شهرته واشهر قصيدته بين العرب اجمعين .

والروايات تتسلسل وتتصل .. زيادة في الشهرة ، فتزعم ان « معاوية بن ابي
سفيان » اراد ان يشتري « بردة » الرسول ﷺ من « كعب » واغلى له الثمن ، لكن « كعبا »
ابي ان يبيعها « لمعاوية » . وانه لما مات « كعب » - فيما بعد - راجع « معاوية » اهله ،
واستطاع ان يشتريها منهم بثمن ضخم ، وان هذه « البردة » . هي التي توارثها
الخلفاء .. وكانوا يخرجون بها الى الناس ، في مواكب العيدين . وربما في مواكب الحرب
تبركا ، وطلبا للنصر ..

ظروف هذه القصيدة اذن ، تلك التي صارت قصة تتصل بالرسول ، اشاعتها على
مرور الايام ، وكانت سببا في ذيووعها الى الان ، بل ان الدكتور « زكى مبارك » يرى ان
« بانث سعاد » لولاماني الفاظها من الوعورة ، لشاعت في البيئات الصوفية ، واصبحت من
جملة الاوراد ، وكان لها ماضار للبردة من السيورة بين العوام والخواص . وبهذا يضيف
« زكى مبارك » شيئا اخر الى ما اصفناه عن الظروف والملابسات .. وهو نوعية العمل الفنى
وسلاسته ..

وبالطبع ، فان لبردة الامام « البوصيرى » ظروفها كانت السبب في ذيووعها وتداولها ..
وان كان ذلك لاينفى ان الموضوع نفسه ، والنظم الجيد والصدق .. لها تأثير عند المتلقى
المسلم . ويؤكد ذلك .. ان « للبوصيرى » ، نفسه عدة قصائد في المديح النبوى الشريف ،
يريوعددها على تسع قصائد ، منها « الهزيمة » في ٤٥٧ بيتا ، والتي سماها « ام القرى في
مدح خير الورى » كما ان لـ « احمد شوقى » كذلك قصائد نبوية كثيرة .. لكن لم يشتهر من
اشعار « البوصيرى » سوى « البردة » .. ولم تشتهر من اشعار « شوقى » الاسلامية -
او الاسلاميات - سوى « نهج البردة » ..

والسؤال هو : ماهى الظروف التي لابتست ذيووع « بردة » البوصيرى ، التي حملت
اسم « الكواكب الدرية في مدح خير البرية » .. قبل ان يطلق عليها « البردة » .. بعد ان
بدأت تذيب وتشتهر بين جماهير المؤمنين ؟ ..
الواقع انه كما ان لبردة « كعب بن زهير » قصة .. فقد نسجت حول بردة
« البوصيرى » اقاويص وروايات .. وهذه القصص لم تأت على لسان احد ، وانما رواها
« البوصيرى » نفسه ..

يقول الامام « البوصيرى » ، فيما يشبه قصة « كعب بن زهير » مع الرسول ﷺ .. مع الاختلاف طبعاً :-

« كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله ﷺ ، منها ما كان اقترحه على صاحب زين الدين بن يعقوب بن الزبير . ثم اتفق بعد ذلك ان صاحبنى فالج فابطل بنصفى ، ففكرت في عمل قصيدتى هذه فعملتها واستشفعت بها الى الله تعالى ان يعافينى ، وكبرت إنشادها ، ودعوت وتوسلت ، ونمت ، فرأيت النبى ﷺ ، فمسح وجهى بيده المباركة ، وألقى على بردة . فانتبهت ووجدت فى نهضة ، فقممت وخرجت من بيتى ، ولم أكن بذلك قد اعلمت احداً ، فلقينى بعض الفقراء ، فقال لى : اريد ان تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله ﷺ ..

فقلت : ايها ؟ . فقال : التى انشأتها فى مرضك وذكر اولها . وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشد بين يدى رسول الله ﷺ ، ورأيت رسول ﷺ يتمايل وقد أعجبه ، وألقى على من انشدها بردة فأعطيته إياها ، وذكر الفقير الصوفى ذلك وشاع المنام .

* * *

ويتصل بهذه القصة ، قصة أخرى تضاف الى سابقتها للتأكيد على أن هذه القصيدة إحدى البركات . فقد روى « البوصيرى » ايضا .. انه وهو يقرأ القصيدة - فى المنام - على حضرة الرسول ﷺ ، وحين وصل الى الشطر الاول من البيت الذى فيه « فمبلغ العلم فيه انه بشر » ، لم يستطع تكلمة البيت . فتوقف ، فقال له ﷺ : اقرأ . فقال : إنى لم أوفق « للمصراع » ، أى الشطر الثانى للبيت . فقال له الرسول ﷺ ، قل : « وانه خير خلق الله كلهم » .. فكان أن ادرج البوصيرى هذا « المصراع » الذى قاله النبى ﷺ ، وجعله صلاة مكرورة بعد كل بيت ، حرصاً على لفظ النبى عليه الصلاة والسلام ، فكان يقرأ بعد كل بيت من أبيات البردة ، كما يلى :

مولأى صل وسلم دائماً ابداً

على حبيبك خير الخلق كلهم

* * *

وقصة ثالثة تتصل بها سبقها من قصص حول « بردة البوصيرى » ، او هى تنبنى عليها .. وقد روتها كتب كثيرة ، منها كتاب « محمد بن شاذان الكتبى » ، « الوائى بالوفيات » .. والذى جعله مؤلفه ذيلاً لكتاب « وفيات الاعيان » ، « لابن خلكان » .

وهذه القصة تروى على لسان « البوصيرى » .. بعدما اعطى « البوصيرى »
البردة للفقير الصوفى .. يقول :

« .. فأعطيت إياها ، وذكر الفقير ذلك ، وشاع المنام الى أن اتصل بالصاحب بهاء
الدين محمد بن حسن ، وزير الظاهر بيبرس ، فبعث اليّ وأخذها وحلف ألا يسمعها الا
قائما حافيا مكشوف الرأس . وكان يحب سماعها هو واهل بيته ..

« ثم انه بعد ذلك ادرك سعد الدين الفارقى رمد أشرف منه على العمى ، فرأى في
المنام قائلا يقول له : إذهب الى صاحب . وذهب ، وذكر منامه . فقال صاحب :
مأعرف عندى بردة من أثر النبى ﷺ . ثم فكر ساعة ، وقال : لعل المراد قصيدة
البوصيرى . يا ياقوت : افتح الصندوق الذى فيه الاثار ، وأخرج قصيدة البوصيرى
وات بها . فأتى بها ، فأخذها سعد الدين ، ووضعها على عينيه ، فعوفى .. »
هذه القصص وتلك الحكايات تعطى للبردة بركات وأهمية خاصة .. فقصيدة
البوصيرى هنا .. تمتزج ببردة الرسول .. مما يجعلها مطلبا لكل مسلم .. تبركا أو
شفاء ..



وكما ان للبردة البوصيرية قصصا وروايات متسلسلة ..
فكذلك التسمية نفسها .. فهذه التسمية للقصيدة « بالبردة » ، هى من نسج
« البوصيرى » نفسه .. تبركا « ببردة » ، « كعب بن زهير » ، تلك القصيدة التى
يعرف « البوصيرى » قيمتها اكثر من غيره كشاعر فنان متذوق وشاعر مديح من
الدرجة الاولى .

وهذه القصص فى الواقع تحتاج الى وقفة موضوعية .

وانا هنا لا اقصد مناقشة الرؤيا التى شاهدها « البوصيرى » ، فأهل الله مع
الصوفية لهم رؤاهم ، « والبوصيرى » كان رجلا صوفيا ، خاصة فى السنوات
الاخيرة من حياته الحافلة ، كذلك فانا لا أناقش قصة مرضه بالفالج أو الشلل
النصفى ، ومرض سعد الدين الفارقى .. وما لقيه الاثنان من شفاء . انما انا هنا
أناقش تلك اللقطة التى قالت فى الرؤيا ان الرسول ﷺ قد استكمل الشطر الثانى من
احد ابيات قصيدة « البوصيرى » .. خاصة وان هناك خلافا بين مؤرخى
« البوصيرى » ، على ماهو هذا البيت الذى اكمله الرسول ﷺ فى المنام :

هل هو البيت الذى يقول :
محمد سيد الكونيين والنقلين
والفريقين من عرب ومن عجم
أم هو البيت الذى ورد فى قصة « البوصيرى » ، التى ذكرناها ؟

والواقع أن هذين البيتين لمن يتمعن فى قراءة « بردة » « البوصيرى » ، رغم أنهما جيدان ، فإنهما ليسا خيراً ما فى القصيدة من أبيات ، حتى يمكن أن نجد لهذه الحكاية سنداً يمهّد للاقتناع بها . ويوافقنا على ذلك « عبد العليم القباني » ، صاحب كتاب « البوصيرى حياته وشعره » . فرغم أن الرسول ﷺ معصوم عن قول الشعر بنص الآية القرآنية التى تقول : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » - من سورة يس - فإن التكملة لا ترقى إلى مرتبة جيد الشعر ، وليس فيهما من الاشرار والبلاغة مما اتصف به الرسول ﷺ .

ويؤكد من رأينا أو يدعمه .. أن أبيات « البردة » ، برغم حلاوتها وطلاوتها .. فإن التكملة التى قال « البوصيرى » ، إنما جاءت فى المنام فى البيت ... « وأنه خير خلق الله كلهم » .. هذه التكملة وردت فى قصيدة لشاعر اسمه « الصرصرى » المتوفى ٦٥٦ . وقد أورد البيت الاستاذ « محمد سيد كيلانى » فى مقدمته لديوان « البوصيرى » . بمعنى أن « البوصيرى » لم يأت بجديد فى هذا البيت . وحتى « البوصيرى » نفسه ، جاء ببيت شبيه بالبيت الذى قال أن النبى ﷺ أكمله .. جاء به فى قصيدة له قبل « البردة » .. وهى قصيدة « نذر المعاد » .. التى وجدها الاستاذ « محمد سيد كيلانى » فى ديوان « البوصيرى » : فقصيدة « نذر المعاد » فيها بيت يقول :

والمصطفى خير خلق الله كلهم

له الرسل ترجيح وتفضيل

هذه بعض الملاحظات .. أوردتها ، ولا ينبغي أن يفهم منها أنها تحاول انقاص شاعرية ، أو صدق .. أو قيمة الامام « البوصيرى » .. أو « بردته » . فالعمل الجيد دائماً يحير ، ويلتصق به عشرات القصص والروايات ، والتى تصبح موروثة على مدى القرن .. تزيد وتنقص وتجعل النقاد فى حيرة التقديرات أمامها .

وهناك ملاحظات أخرى على بردة البوصيرى ، ليست هى من ملاحظتنا . وإنما هى واردة فى الكتب ، اردنا ان نذكرها هنا عملا بالصدق العلمى .. وهى انما تدل على أن « بردة البوصيرى » كانت فتحا كبيرا اقام الدنيا وشغل الناس .

فهناك بعض الافكار فى القصيدة لقيت اعتراضات من بعض المتمسكين بحرفية النصوص ، وعلى رأسهم الامام « ابن تيمية » . فلقد قيل ان بعض أبيات القصيدة تجاوز الحد الى الدرجة التى يمكن ان تكون شطحات شاعر . وقد أنكروا على « البوصيرى » بعض الاغراق الذى وصل الى حد التجاوز المسموح لرجل مسلم . وذكروا عدة أبيات من البردة تدل على ذلك وتشهد عليه . مثل البيت الذى يقول :

فان من جودك الدنيا وضرتها
ومن علومك علم اللوح والقلم

والبيت الذى يقول أيضا :

لو ناسبت قدره آياته عظاما

احيا اسمه حين يدعى دارس الرمم

فبالنسبة للشطر الاول من البيت الاول .. انكر المنكرون على « البوصيرى » ان تكون الدنيا والآخرة ، وهما مجلى ملكوت الله عز وجل ، من جود سيدنا « محمد » ﷺ . وهو على آية حال تساؤل لاترى الصوفية فى اجابته مايمس العقيدة . اذ انهم يؤمنون - أو على الأقل - كما يقول « عبد العليم القباني » - يؤمن اكثرهم بأولية النور المحمدى للكائنات ، وأنها منه وجدت . كذلك أنكروا على الامام « البوصيرى » قوله فى الشطر الثانى من البيت الاول .. أنه كيف يكون علم اللوح والقلم من علوم سيدنا رسول الله ﷺ ... بينما ان هذه العلوم المثبتة باللوح « علم الغيب » ما لا يعلمه الرسول حسب النص القرآنى « ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » . وهنا يجيب المدافعون عن البوصيرى ، فيقولون بأن علم اللوح المذكور فى قصيدة « البوصيرى » انما يعنى العلم القرآنى : « بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ » . ويقول البعض كذلك ان هذا يعود الى مسألة أهل الظاهر وأهل الباطن . والرسول كان يعلم الغيب فعلا بمقدار ، لانه ﷺ أخبر ببعض ما أذن له ان يخبر به ، مثل قوله فى عمار بن ياسر « تقتله الفئة الباغية » ، وقوله ﷺ فى أبى ذر الغفارى « سيموت غريبا » .

وبالنسبة للبيت الثانى الذى ذكرناه ، يعترض المعارضون على شطره الاول بأنه لايجب على المسلم ان يلوذ بغير الله ، وبخاصة فى هذا الموقف الصعب ، يوم الحشر العظيم : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه .. » ويدللون على ذلك بأن الرسول ﷺ يقول لابنته السيدة « فاطمة الزهراء » رضى الله عنها : « يا فاطمة بنت محمد اعملى ، فانى لا اغنى عنك من الله شيئاً » . لكن يرد البعض على المعارضين بطائفة من احاديث الرسول ﷺ ، المعروفة بأحاديث الشفاعة .. وكذلك يردون ببعض التفسيرات لآيات بينات من القرآن الكريم .

اما الشطر الثانى ، فيقول المعارضون ، إنه من المبالغة غير المطلوبة أن يكون اسم النبى الكريم ﷺ ، وسيلة لاهياء الموتى . وان المسيح عليه السلام انما احيا الموتى باذن الله . ويرد البعض عليهم منصفين « البوصيرى » بأن حرف « لو » الذى يفيد الامتناع ، ينفى معقول المبالغة .. وإذن لاشئ فى هذا البيت « للبوصيرى » مما يتناقى مع العقيدة الاسلامية هذا من جهة ..

ومن جهة اخرى فان هناك دائما من يحاولون النيل من كل عظيم . فالبعض حاول ان يقول ان « البوصيرى » .. فى برده كان ناقلا ، أو هو متأثر بقصائد غيره من الشعراء . وقد ذكرنا ماكان له مع قصيدة « كعب بن زهير »

ونذكر هنا من يقول أيضا إن « البوصيرى » تأثر بميمية « ابن الفارض » التى مطلعها :

هل نار سلمى بدت بذى سلم
أم بارق لاح فى الزوراء فالعلم

فهذا المطلع يكاد يتطابق مع مطلع بردة الامام « البوصيرى » :

امن تذكر جيران بذى سلم
مزجت دمعا جرى من مقله بدم

والبعض أيضا يرى أن الكثير من المعانى الواردة فى « البردة » .. تتطابق أيضا مع مقاله « ابن الفارض » ، خاصة فى البيت الذى يقول فيه :

يالائما منى فى حبههم سفها
كف الملام فلو احببت لم تلم

هذا البيت شبه به بيت « البوصيرى » الذى يقول فيه :

يا لائى فى الهوى العذرى معذرة

منى اليك ، ولو انصفت لم تلم

نحن هنا نعترف بالتشابهات .. فى الابيات التى اتينا بأمثلة عليها .. لكننا نقول إن « البوصيرى » هنا يتضح حفظه للتراث الشعرى الدينى فى قلبه ووجدانه .. وكثيرا ما تلتقى أفكار الشعراء وأساليبهم بدون تعارف بينهم سواء فى عصورهم .. أم فى غير عصورهم ..

هذا بعض ماثير حول بردة الامام « البوصيرى » .

على أن المؤرخين المنصفين للامام « البوصيرى » يعترفون انه مهما قيل فى هذه القصيدة المباركة ، وعلى فرض ثبوت المبالغات ، وثبوت الاقتباسات او التأثيرات بقصائد أخرى .. فان قصيدة « البوصيرى » كانت تعتبر فتحا جديدا فى وقتها . كما انه لا ينقص من قيمة « البوصيرى » او شعره او قدرته انه كان مخلصا وكان صادقا فى مدحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. « فالإخلاص - كما يقول د . زكى مبارك - هو الذى مكن البوصيرى من ناصية المجد الادبى ، وهو الذى رفعه الى منزلة الخلود .. » .

والدليل على قيمة « بردة » « البوصيرى » انها نالت من الاهتمام ما لم تنله قصيدة أخرى فى تاريخ ديوان الشعر العربى ، لقد كان نصها مباركا يحفظ فى الخزائن الامينة فى البيوت تبركا وتوسلا الى الله ورسوله وتبارى أصحاب الخطوط الجميلة ، فكتبوا نصها برقائق الذهب .. وصنعوا منها - وكانوا هم من الفنانين الكبار - لوحات متنوعة زينت الجدران .. ومنها جدران مسجد « البوصيرى » نفسه بالاسكندرية .

وهناك نسختان من « البردة » مخطوطتان شاهدتهما فى مكتبة محافظة « الاسكندرية » .. وهما نموذجان حيان للعناية التى كانت « للبردة » وصاحبها .. والنسختان مكتوبتان بماء الذهب .

والنسخة الخطية الاولى - مكتوب فى آخرها بشكل هرمى مقلوب « برسم خزانة مولانا السلطان الظاهر ، خدمة مملوكه تولى المحكى الظاهرى » .

أما النسخة الثانية فمكتوب على صفحتها الأخيرة « برسم الست المصونة الكبرى عائشة ابنة اسماعيل الخازن صان الله جمالها . أمين » .

وبالإضافة الى هاتين النسختين .. ففي مكتبة « الاسكندرية » عشرات النسخ المخطوطة بعشرات الشروح لها .. بالإضافة الى المعارضات والتخميسات والتسبيعات لها .. وقد استطعت تصوير الكثير منها .. وقمت بنشرها بمناسبة إقامة « أمسية البوصيري » في الاسكندرية في صيف عام ١٩٧٧ .

وعلى سبيل المثال ، لا الحصر .. فهناك شروح للبردة ، قام بها الكثيرون منهم الشيخ ابراهيم الباجوري .. والشيخ خالد الأزهرى ، والشيخ حسن العدوى الحمزاوى ومحيى الدين زاده ، ومحمد رضوان .. وهذه الشروح مطبوعة في كتب .

هذا بالإضافة الى شروح مازالت مخطوطة مثل شرح « البردة » لابن العماد الافقهس ، « واطهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة » لابن مرزوق التلمساني .. وهذان الشرحان يعودان الى القرن التاسع للهجرة .

وتتنمى لهذا القرن أيضا شروح مخطوطة للبردة مثل شرح جلال الدين المحلى .. و « الزبدة الرائقة في شرح البردة الفائقة » لابی يحيى زكريا الانصارى المتوفى في القرن العاشر . و « شرح البردة » لخير الدين خضر ابن عمر العطوفى . وشرح آخر للبردة للشيخ محيى الدين محمد بن مصطفى المعروف بشيخ زاده المتوفى عام ٩٥١هـ . هذا بالإضافة الى « الدرة المضيئة في شرح الكواكب » تأليف ملا محمد بن ابى بكر الكرارى . و « شرح البردة » للشيخ عبدالرحمن القدسى « أبوشامه » . و « الزبدة في شرح البردة » تأليف ملا على بن سلطان محمد القارى و « الدرة الفريدة في شرح القصيدة » للشيخ محمد الشافعى العناني .. وهى من القرن الحادى عشر الهجرى .

لكن يبقى السؤال .. حول الأثر الذى تركته البردة فيما جاء بعدها من شعر عربى ...

لقد حاول كثير من الشعراء معارضتها ، أو تشطيرها أو تخميسها أو تسبيعها ، الى غير ذلك . فقد عارضها الكثيرون ، ومنهم ابن حجة الحموى من القرن التاسع وعائشة الباعونية

من القرن العاشر ، وصفى الدين الحلي من القرن الثامن .. وغيرهم كثير مما حصره عبد العليم القباني ، مثل جلال الدين السيوطي ، وبهاء العامل وعبد الغني النابلسي .. هذا بالاضافة الى معارضات البارودي وشوقي .. وتخمينات شمس الدين الفيومي « القرن الثامن الهجري » ومحمد بن ابي السعيد السخاوي « القرن العاشر » والعشري السبكي « القرن الحادي عشر » . ثم تسبيحات حارث بن الرومي ، وناصر الدين البيضاوي .. بالاضافة الى المحدثين مثل الساعاتي ، وجبر ، وعبد المجيد شوقي والسقا .

أما أهم المعارضات ، فهي معارضة شوقي بقصيدته « نهج البردة » وهناك معارضة البارودي بقصيدته « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » وهي تقع في ٤٤٧ بيتا . وقد نظمها في جزيرة سيلان وهو في منفا بعد إخفاق الثورة العرابية . وهذه القصيدة مطلعها :

يارائد البرق يمم دارة العلم

واحد الغمام الى حي بذى سلم

وهذه القصيدة لا ترقى لقصيدة « البوصيري » ، لا من ناحية النظم او الصور البلاغية .. كما انها ايضا لا ترقى « لنهج البردة لشوقي » ، على ان اهم ما فيها هو الصدق الذي كتبت به .

والاثر الديني للبردة إن صح هذا التعبير .. يعتبر اثرا لامثيل له ، ولم تنله قصيدة أخرى . فبعض الصوفية اتخذوا منها « وردا » يقرأ في الخلوات او في حلقات الذكر .. أو تقرأ في المساجد ايام الجمع وبعد صلاة الجمعة .. او بعد صلاة العشاء .

ولقد اشترط بعضهم شروطا قبل قراءة البردة .. مثل الطهارة والوضوء واستقبال القبلة . بل ان البعض يعتقد في شفاؤها من الأمراض جريا على رواية « البوصيري » ، نفسه من انها كانت السبب في علاجه من الفالج ، أو الشلل . والبعض احتفظ بها في البيوت معلقة على الجدران لإبعاد الأذى ودفع النكد . ونسبت اليها الكثير من الكرامات .

والمهم ان « البردة » استطاعت ان تحول البوصيري من شاعر عادي ، الى شاعر في الضوء .

بل ان « البردة » وحتى وقت قصير .. كانت تتردد أبياتها - خاصة في القرى - اثناء سير الجنازات تيمنا بها ووسيلة الى الله ان يدخل الموتى الجنة وان يجنبهم النار .

إذا قلنا ان البردة تقع في مائة وستين بيتا من الشعر الراقي حسب نص
البوصيرى .. فان البوصيرى قد اضاف اليها حوالى سبعة ابيات البعض يضيفها الى
البردة ، والبعض يفصلها عنها .. ومنها هذان البيتان اللذان يقولان :

وهذه بردة المختار قد ختمت
والحمد لله في بدء وفي ختم
أبياتها قد اتت ستين مع مائة
فرج بها كربنا يا واسع الكرم

* * *

والبردة (١) تبدأ على طريقة الشعراء القدامى بذكر الاطلال والديار وشكوى الحب
والغرام . وهو استهلال من العادات الراسخة في القصيدة العمودية . وفي هذا الاستهلال
يورد « البوصيرى » ذكر الاسماء التى لها صلة بمولد الرسول ، حيث يقول :

امن تذكر جيران بذى سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

ثم ينتقل الشاعر من العزل إلى الحديث عن النفس . فالشاعر يحذر من هوى
النفس ويتحدث بحديث من فاض إناءه بالحكمة والعلم .. ولذلك ، فان بعض الابيات فيه
الكثير مما يجرى مجرى الامثال ، فيقول « البوصيرى » :

فان امارتى بالسوء ما اتعظت
من جهلها بنذير الشيب والهزم
فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها
ان الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل ان تهمله شب على
حب الرضاع وان تطفمه .. ينفطم

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك الى جوهر القصيدة ، وهو مدح النبى صلى الله عليه وسلم .
وهذا الجزء هو لب القصيدة وجوهرها ، وفيه يبلغ « البوصيرى » قمة الصديق الفنى وقمة
الشاعرية :

ظلمت سنة من احيا الظلام الى
ان اشتكت قدماء الضر من ورم
وشد من سغب احشاء وطوى
تحت الحجارة كشحا مترف الادم
وراودته الجبال الشم من ذهب
عن نفسه فاراها ايماشمم

ثم يتابع « البوصيري » مديحه : ويقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم :

هو الحبيب الذى ترجى شفاعته
لكل هول من الاهوال مقتحم
دعا الى الله فالمستمسكون به
مستمسكون بحبل غير منقسم
لو ناسبت قدره آياته عظما
احيا اسمه حين يدعى دارس الرمم
فمبلغ العلم فيه انه بشر
وانه خير خلق الله كلهم

وختام جوهر قصيدة « البوصيري » ، او الجزء الذى يمدح فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، هذا البيت الذى يقول :

لاطيب يعدل تربا ضم اعظمه
طوبى لمن تشق منه وملقتم

ثم يتبع « البوصيري » ، هذا المديح بمجموعة من الابيات تتحدث عن مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث عاصر ميلاده الكريم صلى الله عليه وسلم تصدع ايوان كسرى ، وخمود نيران الفرس ، وجفاف بحيرة « ساوه » ، وانطلاق الشهب فى اثر الشياطين . ويبدأ هذا الحديث بالبيت الذى يقول فيه :

ابان مولده عن طيب عنصره
ياطيب مبتدا منه ومختتم

ثم يواصل قوله :

يوم اتفرس فيه الفرس انهم
قد انذروا بحلول البؤس والنقم
وبات ايوان كسرى وهو منصدع
كشمل اصحاب كسرى غير ملتئم

وبعد ذلك يتحدث الشاعر عن معجزاته ﷺ .. وهذا الموضوع يقول فيه :

جاءت لدعوته الاشجار ساجدة
تمشى اليه على ساق بلا قدم
كانما سطرت سطرًا لما كتبت
فروعها من بديع الخط باللقم

وفي نهاية الموضوع حول المعجزات يأتي « البوصيري » بهذه الابيات الرائعة :

تبارك الله ما وحى بمكتسب
ولا نبي على غيب بمتهم
كم ابرأت وصبا باللمس راحته
واطلقت اربا من ربة اللمم
واحيت السنة الشهباء دعوته
حتى حكى غرة في الاعصر الدهم
بعارض جاد او خلت البطاح بها
سيب من اليم او سيل من العرم

ثم يتحدث « البوصيري » عن القرآن الكريم حديثا طويلا يبدأ بهذا البيت :

دعنى ووصفى آيات له ظهرت
ظهور نار القرى ليلا على علم

وينتقل من وصف القرآن الى الرسول في معراجه :

**سريت من حرم ليلا الى حرم
كما سرى البدر في داج من الظلم**

بعدها يأتى الحديث عن جهاد الرسول ﷺ ، ويصور الفتوحات في مشاهد حربية
صاخبة ، فالرسول القائد الأعظم والمسلمون من حوله أسود وادعة مطمئنة :

**راعت قلوب العدا انباء بعثته
كنبأة أجفلت غفلا من الغنم
مازال يلقاهم في كل معترك
حتى حكوا بالقنا لحما على وضم**

ثم يبدأ « البوصيرى » في التوسل الى الرسول ﷺ ، ويتناجيه بأبيات هي صلوات
حارة ، من نفس مؤمنة تعيش زمنا صعبا وظروفا غير طبيعية ..

يقول « البوصيرى » متوسلا :

**خدمته بمديح استقيل به
ذنوب عمر مضى في الشعر والخدم**

ويقول ايضا في المناجاة :

**يا اكرم الخلق مالى من الود به
سواك عند حلول الحادث العمم**

الى ان يختتم ذلك بالبيتين ، متوجها فيهما الى الله بالدعاء :

**واذن لسحب صلاة منك دائمة
على الغيبى بمنهل ومنسجم
مارنحت عذبات البان ريح صبا
واطرب العيس حادى العيس بالنغم**

الامام « البوصيرى » هو الامام شرف الدين ابو عبد الله محمد بن سعيد . أصله من بنى جنون ، الذى هم فرع من قبيلة صفهاجة المغربية .. يؤكد ذلك اعتزاز « البوصيرى » بأصله ، ويشيد به فى شعره .. رغم أنه مصرى النخاع ويعتز بمصريته .

ولد « البوصيرى » عام ٦٠٨ الهجرى ، وتوفى عام ٦٩٦ الهجرى .. أى أنه عاش عمرا يربو على ٨٨ عاما . والبوصيرى ولد من أم تنتمى الى مدينة « دلاص » غربى الصعيد ، كما يقول المقرئى .. لكن البعض يرى أنه ولد فى « بهشيم » من أعمال البهنسا يوم الثلاثاء أول شوال سنة ٦٠٨ هجرية .. كما يؤكد ذلك ابن تفرى فى « المنهل الصافى » .. والعماد الحنبلى : فى « شذرات الذهب » الجزء الخامس .

اما والد « البوصيرى » فمن بلدة « بوصير » التى تقع بين الفيوم وبني سويف .

وقد عاش البوصيرى فى هذه المدينة أيام طفولته ، واستمد منها الاسم الذى عرف به . ويقولون انه فى البداية حاول « البوصيرى » أن ينحت لنفسه لقباً يجمع فيه بين نسبته الى « دلاص » و « بوصير » .. فكان أن سمي نفسه « الدلاصيرى » ، لكنه لم يشتهر به ..

وقد روى صاحب المنهل الصافى ، كما أورده عبد العليم القبانى أن « البوصيرى » كان مغرماً بمثل هذه المنحوتات ، حتى لقد سمي كساءه « كساط » فلما سائل عن سبب هذه التسمية ، قال : « ذلك لاني ارتديه كساء ، وافرشه بساطا ، والواقع أن هذا الاتجاه فى « البوصيرى » .. يشير الى ظرفه ، ومحاولته اظهار البراعة والتظرف .. كما يشير الى عشقه للغة وتمكنه فيها .. وانها وصلت الى حد أن تكون طوع بنائه فى التعبير .



فى حياة « البوصيرى » الطويلة المثيرة حكم خمسة من سلاطين دولة الايوبيين هم : العادل سيف ، والكامل ناصر الدين ، والعادل الثانى والصالح نجم الدين ايوب ، والمعظم توران شاه ، ثم شجرة الدر . وبعد هؤلاء وفى حياة البوصيرى ايضا تولى الحكم فى مصر عشرة من سلاطين المماليك البحرية ، وهم : عز الدين ايبك ، وسيف الدين قطز ، والظاهر بيبرس ، وابو المعالى محمد ، والعادل سيف الدين سلامش ، والمتصور سيف الدين قلاوون ، والاشرف صلاح الدين قلاوون ، والناصر محمد بن قلاوون ، والناصر محمد بن قلاوون فى فترة حكمه الاولى ، ثم العادل كتبغا المنصورى .

وفي هذه المساحة الزمنية من حياة « البوصيري » ، كانت هناك تيارات دينية عنيفة ، وصراع سياسى مرير ، وتهديدات صليبية وحروب دامت حوالى قرنين من الزمان .. بالاضافة الى هجوم التتار وزحفهم على مشرق العالم الاسلامى ، حيث هجموا على الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة فى بغداد وحرقوها وذبحوا ناسها والقوا بما بمكتبتها فى نهر « دجلة » .

وهذا كله كان سببا فى إلهاب الحماس الدينى ، حيث غمر الشرق بموجات من القلق ، وحالات الضياع .. وفى مصر ، كانت الامور قد وصلت الى نقطة اللاعودة بالنسبة للسلاطين والامراء من الانقلابات والتكالب على دست الحكم والاغتيالات بين الفينة والاخرى حتى ان بعض السلاطين لم يحكم سوى عدة ايام .. باستثناء بعض الفترات المستقرة ، خاصة ايام الناصر محمد بن قلاوون ، وقبله الصالح نجم الدين ايوب فى دولة الايوبيين تلك الدولة التى جاءت على انقاض الفاطميين .. واحلت المذهب السنى محل المذهب الشيعى .. من خلال اغلاقها للزهر ، وفتح مدارس لها تعلم السنة ، مثل المدرسة القمحية .

ولقد كان لهذه الاخطار التى تهددت مصر وعالم الاسلام .. تاثير فى احوالها الاقتصادية ايما تاثير ، حتى عانى الناس وجاعوا ، وساعد فى ذلك تلك المجاعات والابوة التى انتشرت والمظالم التى سادت .. حتى انقسم الناس الى فريقين : فريق منهم زانغ البصر يبحث عن نفسه فقط وبكل السبل وفريق يحاول الالتجاء الى الله والالتصاق بدينه وعقيدته لحماية نفسه ، وحماية الناس ، والدفاع عن ارض الاسلام التى باتت تهددها الاخطار .

وكان لابد ان يظهر اثر ذلك كله فيما صدر من اعمال فى تلك الفترة ، خاصة المؤلفات الادبية .. باعتبار الادب وسيلة تعبر عما يدور فى نفوس الناس . ولذلك ظهر الكثير من الاعمال التى تتحدث عن الجهاد وفضائله .. كما ظهرت آراء تفلسف النكبات التى المت بالمسلمين ، وتعود بها الى ترك المسلمين لدينهم ..

ومع هذه الاعمال المتنوعة .. ظهرت عشرات المؤلفات التى تتحدث عن جهاد صاحب الرسالة ﷺ ، وعن الدين القويم ، والاعمال الصالحة .. وهذه الاعمال كانت تتوجه الى عقول الناس ، لعل الله يقبل المسلمين من عثرتهم ويصلح احوالهم . وثمة اتجاه فكرى ، بدأ يبسط ظلاله على ارض مصر ويقوى .. ويقوده عرب جاؤوا من المغرب .. ونقصد به « التصوف » .. بحيث امتلأت مصر - فى القرن السابع الهجرى بخاصة - بأقطاب المتصوفة الكبار . ومع التصوف انتشرت نظرياتهن وأراؤهن وكتبه .

يتضح ذلك فيما أورده الدكتور « على صافي حسين » فى كتابه « الأدب الصوفي فى مصر » اذ يقول : « تصوف اهل مصر والوافد اليها فى هذا العصر على اختلاف طبقاتهم واجناسهم ومذاهبهم ونحلهم ومنازلهم الدينية والدنيوية ، فالفقير والغنى ، والحاكم والمحكوم ، كل اولئك قد تصوفوا .. إما تصوفاً نظرياً او تصوفاً عملياً . وتلك ظاهرة لم يشهد التاريخ لها مثيلاً فى اى قطر من الاقطار ، اثناء اى عصر من العصور » ولذلك ففى حياة « البوصيرى » عاش من علماء المتصوفة واقطابهم عمر بن الفارض ، والاقصرى ، وعلم الدين المنفلوطى ، وابو الحسن الشاذلى وابو العباس المرسى ، وسيدى احمد البدوى ، وسيدى ابراهيم الدسوقي .. وغيرهم كثير .. من الذين انتشرت طرقهم ، التى استقطبت الألوف من المريدين . وهذه الطرق الصوفية - بالطبع - كان لها دروها فى الجهاد العظيم ، حيث تروى كتب التاريخ ان ابا الحسن الشاذلى والسيد احمد البدوى .. ذهبا مع مريديهما الى ساحات المعارك جهاداً ضد الغزو الصليبي لمصر .. يحضون على الجهاد ويشاركون فيه بالدعاء والنصر .

و « البوصيرى » اعظم شاهد على عصره .. بل هو بحق مرآة عصره من خلال ديوانه الشعرى الذى يبرز الجانب الآخر من حياته الطويلة .. وهذا الديوان قام بتحقيقه وتقديمه الاستاذ « محمد سيد كيلانى » .
لقد كان « البوصيرى » ، كما يروى صاحب « وفيات الوفيات » وهو يرسم الصورة للامام قبل تصوفه ، وانقطاعه للعبادة ، وقبل برده ، يقول فيها :

« انه شاعر مصرى ظريف من شعراء القرن السابع ، تجرى فى شعره النكتة المستملحة ، وله فى شكوى حاله ، والتذمر من الموظفين ، قصائد لا تخلو من ذكاء . وفى شعره وصف للحالة الاجتماعية فى عصره ، فكان يذكر ان الموظفين يسرقون الغلال ، وانهم لولا ذلك مالبسوا الحرير ، ولا شربوا الخمر . وإن من الكتاب طائفة تنكست وعدت من الزهاد ، مع انها تملأ بطونها بالسحت ، وتاكل مال الايتام . والقضاة خانوا الامانة ، وبرروا خيانتهم بتاويل القرآن والحديث .. »

والواقع ان المراجع عن « البوصيرى » ، لاتلقى الضوء الباهر على طفولة البوصيرى المصرى الذى بدأ الحياة فى الصعيد .. لكن يبدو ان بدايته كانت خلقية ، وانه التحق بأحد الكتاتيب لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ..

والمؤكد انه ذهب الى القاهرة ليواصل دراسته .. وقد كان من طلبة مسجد الشيخ عبد الظاهر ، حيث كان يدرس فيه العلوم الشرعية والقرآنية ، بجانب بعض علوم اللغة التى نبغ فيها ، فيما بعد . وهذا المسجد الذى كان يدرس فيه « البوصيرى » فى القاهرة ، يبدو انه كان شبه « زاوية » من الزوايا ، والسبب انه لم يرد ذكر المصادر التى تتحدث عن المساجد . وانما عرف المسجد ، من خلال قصيدة للبوصيرى - على لسان المسجد - ويتهم فيها الفقيه « بهاء الدين المسردى » ، « لأنه أغفله من جزء من المنحة التى تبرع بها « الصالح نجم الدين ايوب » للمساجد ، والقصيدة ضمن ابياتها يقول فيها البوصيرى :

أقرانى لا استحق لكونى
جامعا شمل قارىء القرآن
وبأى الأسباب يعطى مكان
صدقات السلطان دون مكان
أنا لا أنسب « البهاء » على
ذلك إلا لقلّة الإيمان
كلما جاءت الدنانير ينقض
البهاء عليها كالشيطان

وفى الموسوعة الميسرة ، التى اصدرتها مؤسسة « فرانكلين » تحت اشراف « محمد شفيق غربال » ، نعرف ان « البوصيرى » كان فقيرا ، ولم تكن موارده أو موارد ذويه تكفيه كطالب علم فى القاهرة .. وكان خطة حسنا ، فاستغل موهبته ، وعمل بكتابة شواهد القبور لكنه لما اراد وضعها مستقرا .. سعى الى وظيفة « مباشرة » .. اى كاتب فى « الشرقية » ، وفى مدينة « بلبيس » بالذات .

يصف « المقرئى » ، الامام « البوصيرى » فى هذه الفترة « انه كان قليل المعرفة بالحساب » .. وانه « رضى المستخدمين باوابد » .. و « الاوابد » هى قصائد الهجاء التى قالها فى الموظفين ، بعد ان تبين له وجوده استغلالهم لوظائفهم وانحرافاتهم .. وظلمهم لأفراد الشعب البسطاء ، يقول « البوصيرى » ضمن « اوابده » :

حوت بلبيتس طائفة لصوصا
عدلت يواحد منهم مئينا
وكيف يلام فساق النصارى
اذا خافنت عدول المسلمينا

وقال ايضا يتهمهم بالغباء والجهل بعلمهم وعدم معرفتهم الحساب :

كتابينالو كننت مالك امرهم
لرددتهم جمعنا الى الكتاب
لايعرفون من الحساب دقيقة
سبحان رازقهم بغير حساب

ويعلق صاحب كتاب « البوصيرى حياته وشعره » قائلا : ان شعر البوصيرى
في الموظفين ونقده المرلهم ، يعتبر نظرة اجتماعية ، راحت تعلن عن نفسها في شعره :
وان هذه النظرة سبق بها البوصيرى عصره ، وهى نظرة جريئة فعلا ، تدل على
اخلاقيات البوصيرى في شبابه ، وعلى حرصه على بلده الذى يتعرض للأخطار
والكوارث ، ولقد بلغ البوصيرى من الجراة انه ارسل للوزير بالقاهرة ، صورة مكتملة
عن انحرافات الموظفين ، وكبارهم بقصيدة مطلعها :

امولانا الوزير غفلت عما
يهم الكلاب الخائنينا
اتطلق « جامكيات » لقوم
وتنفقها لقوم آخرينا

وفي هذه القصيدة يشدد « البوصيرى » ، النكير على بعض الذين يحملون اسم
الفقيه او القاضى ، وينعى عليهم بعدهم عن الدين والاخذ بسنة رسول الله ﷺ فيقول :

اذا أمناؤنا قبلوا الهدايا
وصاروا يتجرون ويزرعونا
فلم لا شاطروا فيما استفادوا
كما كان الصحابة يفعلونا

تحيلت القضية فخان كل
امانتته وسموه الامينا
وكم جعل الفقيه العدل ظلما
وصير باطلا حقا مبينا
وما اخشى على اموال مصر،
سوى من معشر يتاولونا

هذه القصيدة في الحقيقة يجب ان تقرأ اكثر من مرة من المختصين .. ففيها يتناول « البوصيرى » المال العام ، ويطالب بالعدل الاجتماعى من منطلق ايمانه ودينه القويم .

وبديهى أن تحقد على « البوصيرى » فئة المرتشين ، ولذلك عملوا على إبعاده والتخلص من فضحه لهم ، وتعرضه بهم وكشفه لالاعيبهم .. وقد كان ذلك عندما أسندت نظارة الاقليم الى « ابن عمران » فقام بفصل « البوصيرى » من وظيفته كشخص مثير غير مرغوب فيه . فكان ان عاد « البوصيرى » الى القاهرة بعد سنوات قضاها في مدينة « بلبيس » .

وفي القاهرة .. إفتتح كتابا ليعلم القراءة والكتابة وماتيسر من الدين ، وتحفيظ القرآن الكريم .. لكنه سرعان ما أغلق هذا الكتاب ، وبدأ يبحث عن وظيفة تساعد على تربية اولاده الذين زاد عددهم . فالتعليم في الكتاب أرهقه ، وجعله كما يقول في احدى قصائده يعطى للاطفال عقله ، ويأخذ منهم عقولهم ، فكان كمن يبيع نوره في مقابل ظلام غيره .. هذا بينما اولاده في البيت يصرخون من الجوع .

كيف الخلاص من البنين ومنهم
قوم ورائى وآخرون امامى
اصبحت من حملى همومهم على
هرمى كانى حامل الاهرام

لقد كان « البوصيرى » مشغولا ببلده وما يحدث فيه .. وهذا الانشغال مضافا اليه إنشغاله بإطعام اطفاله .. جعله يترك طموحه ، ويقضى وقته في البحث عن لقمة العيش .. وقد كان كما يقول : « ولو انى وخذى لكنت مريدا في رباط أو عابدا في مغارة » .. لكنه ماذا يفعل وعنده « كبشة » عيال .. يريد ان يكفيهم .. وهنا يصور حالهم بأسلوب يدل على مصريته الأصلية الساخرة فيقول :

صاموا مع الناس
كانوا لمن ابصرهم غيره
اين يشربوا فالبئر زير
لهم ما برحت والشربة الجره
لهم من الخبيز مسلوقة
في كل يوم تشبه الفشره
فارحمهمو ان عاينوا كعكة
في كف طفل او راوا ثمره
تشخص ابصارهمو نحوها
بشهقة تتبعها زفره

ثم ينتقل البوصيري من اطفاله الى زوجته الولود التي انجبت هذه الحفنة الكبيرة من
الاطفال . ولذلك فهو يصفها في شعره ، ويقول :

بلغت من الكبر العتي ونكست
في الخلق وهي صبية الارحام
ان زرتها في اعام يوما انتجت
واتت لتسعة أشهر بغلام

ولم تكن زوجته ولودا فقط ، وانما كانت مشاكسة تطالبه دائما بالنقود ، مثل أختها التي
تعيش عيشة منية ، يقول البوصيري عن حماته :

ويوم زارت امهم اختها
والاخت في الغيرة كالضرة
واقبلت تشكو لها حالها
وصبرها منى على العشرة
قالت لها كيف تكون النساء
كذا مع الأزواج يا غرة
قومي اطلبى حقه منه بلا
تخلف منك ولا فترة
وإن تأبى فخذى ذقنه
ثم انتفيتها شعرة شعرة

هذا الضغط النفسى ، وتلك القلة فى المنزل ..بالاضافة الى اهتمام « البوصيرى » بما يحدث ببلده .. جعل الضيق يكتم على انفس الشيخ الشاعر ، الذى صور لنا اصدق تصوير ، حياته .. وقد دفعه ذلك الى أن يتصوف . وقبل ذلك .. دفعه الى ان يلجا الى الوزير « الصاحب بهاء الدين على بن محمد » يستعينه ، وكان هذا الوزير يحب فى « البوصيرى » سخريته وشاعريته ، وقد اغراه بذلك - كما يروى عبدالمعطي القبانى - صديقه الشيخ « شهاب الدين ابوالغناء محمود » . وزيادة فى الاغراء - تعهد له بتقديم شكواه المنظومة الى الوزير . وبالفعل حدث ذلك ، وعينه الوزير كاتباً بالمحلة .

وفى هذه المرة عاد البوصيرى بعينه الكاشفة التى تثنى على المجيد ، وتهاجم ايضا غير المجيدين ، والمرتشين ، وتثنى على الشدة معهم .. حتى انه وكما يقول « البوصيرى » فى صورة ساخرة ايضا :

**وقد تادبت المستخدمون بهم
والغافلون اذا ماذكروا ذكروا
فعف كل ابن انثى عن خيانتته
فلم يخن نفسه انثى ولاذكر**

لكن « البوصيرى » الشاعر الفنان القلق الظريف .. لم يستمر به المقام فى المحلة الكبرى . فانتقل الى « سنى » التى تتبع محافظة « كفر الشيخ » الآن ، ليجلس بها بعض الوقت ، ثم عاد للقاهرة ، ليفتح كتابه مرة أخرى ، وكان يعتمد على ايراد الكتاب البسيط مع بعض الهبات التى كانت تصله من محبيه وعاشقيه وعاشقى فنه .. وفى هذه الفترة أوغل « البوصيرى » فى التصوف .. واكثر من مدائحه النبوية ، ورافق « ابا العباس المرسى » تلميذ « ابي الحسن الشاذلى » .. وكان فى القاهرة يجلس فى مسجد الظاهر . وفى الاسكندرية يجلس فى « القلعة » مسجد العطارين ، الذى جلس فيه ابو الحسن الشاذلى ، ومن بعده تلميذه ابو العباس .. كما كان يسافر الى اقاليم مصر مع استاذة ابي العباس ..

ولقد قيل انه فى اخريات حياته عرضت عليه وظيفة « محتسب » .. ولكنه تعففا وتقديرا لمسئولية الوظيفة لم يقبلها ، ويدللون على ذلك بقوله :

**اجلس والناس يهرعون الى
فعلى فى السوق عصابة عصابة**

اوجع زيدا ضربا واشبعه
سبا كانى مرقص السدي
ويكسب الغيظ مقلتي وخدى
احمرار كزامر القرية

مسجد الامام « البوصيرى » فى الاسكندرية والقائم فى رحاب مسجد سيدى « ابنى
العباس المرسى » .. يعتبر آية من آيات عمارة المساجد فى مصر .

كان المسجد فى البداية زاوية متواضعة .. لكن الفرصة جاءت فى عهد الوالى « محمد
سعيد » .. فقد قيل ان « محمد سعيد » باشا اراد كتابة بيت من الشعر فى صدر احدى
قاعات قصره .. فاختار له احدى رجال حاشيته بيتا للامام « البوصيرى » من قصيدته
« الهمزية » .. يقول هذا البيت :

واذا سخر الاله اناسا
لسعيد ، فانهم سعداء

وقد اعجب الوالى ببيت الشعر ، وامر بكتابته ، واهتم بصاحبه ، والبحث عن ضريحه ..
فلما جاءوا اليه وقالوا هو زاوية صغيرة قرب رأس التين ، امر بانشاء المسجد الحالى على
الضريح ، وكتابة البردة على الجدران برقائى الذهب .. على ارضية زرقاء .

وهذا المسجد كما يروى « على باشا مبارك » فى « الخطط التوفيقية » ، انشئ عام
١٢٧٤ الهجرى وان القسم الخارجى منه ، وهو الدرج الرخامى الموجود بالواجهة المطلة على
شارع السيد محمد كريم . والمواجهة للبحر ، وكذلك بعض الغرف الملحقة به ، تم انشاؤها
عام ١٢٠٧ الهجرى .

وكما تصف « الدكتورة سعد ماهر » مسجد الامام البوصيرى « ملاح الذات
المحمدية وصاحب البردة والهمزية » فى كتابها « مساجد مصر » : « فان المسجد يتكون
من مربعين منفصلين .. الاول يشمل صحن المسجد ، وتتوسطه نافورة من الرخام ، وتحيط به
الأروقة من جميع الجهات . والثانى وهو مرتفع قليلا عن الاول هو ايوان القبلة . ويتقدم
الايوان دهليز مغطى بمظلة يؤدى الى ضريح الامام البوصيرى اولا ، ثم الى ايوان القبلة ثانيا .

اما الضريح فهو عبارة عن غرفة مربعة معطاة بقبة تقوم على مقرنصات في الاركان ،
والقبة من الصاج وليست من الخشب او من البناء .

ويتوسط ايوان القبلة ستة اعمدة ، تقوم عليها قبة مرتفعة من الصاج ، وبه دور ثان
مخصص للسيدات يعرف باسم « الصندرة » . وبهذا الايوان يوجد مدخلان رئيسيان
احدهما في الجهة الشرقية ، والاخر في الجهة الجنوبية ، كما يوجد مدخل ثالث رئيسي من الجهة
الغربية يؤدي الى صحن الجامع . وخلف الرواق الشرقي للمسجد توجد ثلاث غرف مغطاة
بثلاث قباب كانت في الاصل عبارة عن زاوية ملحقة بالمسجد ، وتحتوي على صف من الدعائم
تفصلها الى رواقين . ثم جددت الزاوية سنة ١٣٠٧ هـ . وسدت اروقته فتحوّلت الى غرف
خصصت للمكتبة ، وللمشرفين على المسجد .

وفي الركن الشمالي لايوان القبلة توجد منئذنة المسجد ، وهي على شكل مسلة ، والمسجد ،
وكذلك المنئذنة يمثلان الطراز التركي في القرن التاسع عشر الميلادي احسن تمثيل .

انتهى كلام الدكتورة « سعد ماهر » ..

والواقع ان المسجد غاية في الاناقة والرشاقة بأرضيته الخشبية .. وبغنى الرخام الموجود
فيه .. وايضا النجفة المورقة والمزهرة التي تتوسط ايوان القبلة ثم بالمنبر الرقيق الذي يختلف
عن بقية منابر المساجد .

وتعلو حوائط الصحن والضريح ازارات زرقاء مكتوب عليها ، وبالخط الفارسي البارز نص
« البردة » ، والتي تبدأ من يمين المحراب .. بالاضافة الى انه تتناثر على جدران المسجد
لوحات من الايات القرآنية .. وداخل ضريح الامام البوصيري قصيدة في لوحة تمدح
البوصيري عميد المديح النبوي وتقول :

محمد بن سعيد جاز منزلة
في صادق الشعر اعيت كل تحرير
والناسجون على منوال برده
باعوا بعجز وابدوا كل تقصير

.. كما انه على الباب الشرقي توجد لوحة رخامية .. بعضها مكتوب بالتركية ، وبعضها
مكتوب بالعربية يقول : « الحمد لله ، قد تم تعمير هذا المسجد بارادة والى النعم الجنب
العالي الاعظم .. »

يصف الاثرى « حسن عبد الوهاب » في كتابه عن « مساجد مصر » ، مسجد البوصيرى بأنه « مسجد نير يحفه الجلال ، بنى على طراز خاص غير مألوف من حيث عمده الحديدية ، وقبابه الست المكسوة بالصاج والرصاص »

ويقول ان المقصورة على قبر الامام البوصيرى اقيمت في عام ١٢٧٤ الهجرى وعلى الضريح ستر مقصبة عملت في نفس العام . ومنارته من دورتين تسودها البساطة ، وهى مبنية بالآجر ، وتنتهى من اعلاها بسارية تحمل علما اخضر ، كان يرفع بالنهار ، ايدانا بحلول وقت الصلاة ، كى يراها من يكون بعيدا عن سماع الاذان ، ويضاء عليها مصباح ليلا ايدانا بحلول وقت الصلاة ، وهى طريقة جاءت الى الاسكندرية ، من بلاد المغرب ، ولعلها ترجع الى القرن الثامن الهجرى « الرابع عشر الميلادى » فقد امر السلطان ابو عنان فى مسجد القرويين بمدينة فاس عام ٧٤٩ الهجرى « ١٣٤٨ الميلادى » ، وانشد فيه :

نور به علم الايمان مرتفع
للمهتدين به للحق ارشاد

وكما يقول الاثرى « حسن عبد الوهاب » ايضا :

ولقد ظل قبر البوصيرى موضع الرعاية ، مقصودا بالزيارة الى ان اجريت به اصلاحات فى القرن التاسع عشر .. ثم تجدد مرة اخرى . ويعتبر مسجد البوصيرى من اشهر مساجد الاسكندرية ، وهو من مزاراتها المقصودة من اهل الاسكندرية والوافدين عليها للتبرك بناظم قصيدة البردة فى مدح رسول الله ﷺ ..

أعلام
التصوف
الاسلامي

سيدي القناني

الأسد القادم
من المغرب



●● عشقه اهل الصعيد :

حتى انهم دقوه « وشما » على صدورهم ، وفوق اكفهم .. اسدا يرفع سيفا .
ولم يكتفوا بذلك ، بل اصبحت مآثراتهم الشعبية تتغنى بنورهم وعلمه الذى
اضاء ظلام الصعيد ، وبدد الجهل فيه .

وقبل ان يجرى اختراع الثلاجات الكهربائية .. كانت هذه المدينة التى عاش
فيها قد اخترعت ثلاجات يدوية .. يحملها حجاج بيت الله الحرام معهم فى رحلتهم
المقدسة .. تطفىء من لهيب الشمس وشدة الحرارة .

وهذه الثلاجات اليدوية .. اخذت شهرة كبيرة منذ قرون وحتى الان .. بعد
اختراع عالم الثلاجات والمبردات ..

هو صاحب مدرسة تصوف ، وليس قطب طريقة .. ولو اراد طريقة لزحفت اليه
الآلوف .. لكنه صاحب مبادئ تقوم على العلم والعمل والأخلاق فى تكامل يصل الى
حد الفلسفة ..

ولنقترب اكثر ، فاكثر منه ..

هو شريف علوى ينتهى نسبه الى الحسين بن على بن أبى طالب تزوج من ابنة
شيخ مسجد قوص .. الإمام القشيري .. وعاش فى قنا ..

وقبل أن يأتى الى « قنا » درة الصعيد ، كان قد سآح فى عالم الإسلام ينشد العلم
وينشد التفقه فى الدين .. وقبل ذلك كانت سياحاته فى عالم المسلمين الواسع الذى
تهددته الأخطار .

عشرات الآلوف تزوره على مدى العام .. وهو مشهور بيوم « الأربعاء » من كل
اسبوع . ومولده يأتى الناس اليه من كل مكان فى مصر .. يحتفلون بالولى الذى
« فرش القلوب بالورد والنور » .

انه سيدى عبدالرحيم

شيخ قنا فى عصره .. والداعية الى الله ..



فوجىء اهل مدينة « قوص » .. فى صعيد مصر .. وهم ينتظرون شيخهم قادما من
الحجاز ، بعد أن ادى فريضة الحج .. فوجئوا وهم فى استقباله .. أن معه شابا فى

مقتبل العمر ، وفي شرح الشباب .. يسير معه ، وقد بدأ على ملامحه الصلاح والتقوى .

وسال أهل « قوص » شيخهم الكبير سيدي « مجد الدين القشيري » عن هذا الشاب الذي جاء معه .. خاصة وأن أهل الصعيد - وهذه عادة فيهم - يتشممون رائحة الغريب من بعيد ..

لكن تساؤلهم ذاب في حلوقهم ، قبل أن يعرفوا الجواب .
فهذا الشاب الوسيم الصالح التقى ، لم يمكث بينهم سوى يومين أو ثلاثة على حسب اختلاف الروايات .. وفي أثنائها كان قد همس إلى الشيخ « القشيري » بسر .. ثم حمل متاعه على ظهره .. خرج من « قوص » يقصد مدينة « قنا » .
وفي مدينة قنا ، على الشاطئ الشرقي لنهر النيل .. لبث هذا الشاب الصالح يعبد ربه في « خلوة » صغيرة .. أورباط .. أو تعريشه - سمها ما شئت - وجعل يدعو إلى الله ، وإلى دينه القويم .. وكان كلامه واضحا مبنيا على الكتاب وعلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد بدأ أهل « قنا » يقتربون من هذا الغريب على حذر أولا .. ثم بدأوا يسمعون مايقوله ، فيسرى في قلوبهم عبق الإيمان . لقد كان يتحدث حديثا غير تلك التي اعتادوا سماعها .. وهكذا بدأت حلقة تتسع ، وبدأ عدد مريديه يزداد ، يوما بعد يوم .. إلى أن ذاع صيته وانتشر .

وقد لفت نظر أهل « قنا » سلوك هذا الشاب .. انه لم يتبتل وينقطع للعبادة فقط .. أو يشتغل بالدرس والعلم فقط . كان من رجال الله الذين يرون أن العمل عبادة .. ولذلك رفض أن يعوله أحد ، وقد كان الكثيرون يريدون أن يتشفروا بذلك .. اشتغل في تجارة الأقمشة والحبوب ، لكن لم تله التجارة ، ولم يله البيع عن ذكر الله ، وعن دعوته إلى الله ..
وقد ربحت تجارته وزادت في هذا البلد « قنا » .. لكنه كان قنوعا ، إذ استخدم القليل ، وجاد بالكثير في مساعدة المحتاجين ، خاصة من شباب العلم الفقراء .

لقد كان سيدي « عبد الرحيم القنائي » - رحمه الله - علويا هاشميا - ينتسب إلى سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .. حتى أن علماء النسب والتحقيق يذكرون - ومنهم الإمام الشعراني رضي الله عنه - بأنه سيدي أبو محمد عبد الرحيم بن أحمد بن حجون بن محمد بن جعفر بن اسماعيل بن جعفر الزكي بن محمد بن المأمون بن حسين بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن سيدي علي زين العابدين بن مولانا الإمام الحسين سبط الرسول عليه الصلاة والسلام .

هذا من ناحية والده ..

أما من ناحية والدته ، فهي السيدة الشريفة الحسينية ، السيدة سكيمة بنت أحمد بن حمزة الحراني . هي من بني حمزة ، الذين كانوا نقباء الشام وشيوخه .. وكانوا ذوي علم ودين .

ولد سيدي « عبدالرحيم القنائي » في قرية « قرغاي » .. وهي قريبة من مدينة « سبته » المغربية . ولقد رباه والده ، منذ نعومة أظفاره تربية دينية خالصة .. وكان والده الشيخ « أحمد » عالما جليلا من علماء المغرب ، ومدينة « سبته » ، على وجه الخصوص .. فحفظه القرآن الكريم ، وبدأ يعلمه الفقه والحديث والتوحيد ، ويدله على أسرارها ، ويفتح له مغاليق أبوابها ..

وتسير الأمور بالشباب الذي كان قرة عين والديه .. والذي أظهر من النجابة في صغره ما يحسده عليها من هم في مثل سنه .. لكن عندما بلغ الثانية عشرة من عمره ، حدث ما كان منعطفًا كبيرا في حياته . ذلك الحدث الذي اهتزله وجدانه هذا ، وصدمه صدمة عنيفة أثرت على نفسه ونفسيته . فقد مات أبوه الشيخ الصالح .. وكان الخطب فادحا بالنسبة للصغير المتعلق به المحب له ، والذي يعتبره دنياه الكبيرة ..

مات الأب الحنون ، وتركه .. وترك معه أربعا من الأخوات ، فضلا عن السيدة والدته .

وعلى أثر ذلك مرض الصبي ، مرضا عضالا عجز الأطباء عن شفائه .. حتى ليقال إن البصبي كان يتهدده الموت في كل لحظة . وكان لابد من شيء .

وكان هذا الشيء .. أن أمه فكرت في أن ترسله إلى أخواله في دمشق الفيحاء لعل السفر يحدث له من مرضه مخرجا ..

فقد كانت أمه تعرف ما في إبنها من ميله إلى العلم . وكانت تدرك أيضا أن مرضه نفسى أكثر منه عضوى .. وأنه تصور أن موت والده ، ذلك العالم الجليل الذي كان يفيض عليه بأنواره .. وكأن سبل المعرفة قد ضاقت أمام عينيه وانسد الطريق في وجهه . فلعل فكرة سفرته إلى دمشق تخفف عن الصبي ، وفي نفس الوقت حين يطلع على علم الشرق الغزير .. قد يكون عزاء وسلوى وعوضا عن فقدان الوالد الشيخ .

وفي دمشق فوجيء الشاب بعالم آخر غير عالمه في المغرب .

هذه الرحلة إلى « دمشق » أتاحت لسيدي « عبدالرحيم القنائي » ، أن ينهل من

العلوم ماجعله يستزيد .. خاصة في مجال الشريعة والتصوف .. وأنست هذه الدنيا الجديدة في « دمشق » الصبي القادم من المغرب همومه وحزنه الكبير على فقد والده .
ففى الفيحاء « دمشق » انطلقت ملكاته ومواهبه في الدرس والتحصيل . حتى تألق نجمه هناك .. وعلى مشهد ورضا من أخواله الذين كانوا يحتلون مكانة مرموقة ومراكز علمية عالية في الشام ، منهم السيد « محمد » ، الذى كان مفتيا لدمشق ، والسيد « زين العابدين » .. وكان إمام الشافعية هناك ... كما يقول « البستاني » في « دائرة المعارف » ..

ويوما بعد يوم .. وسنة بعد أخرى ينضج الصبي مع تصاعد أيام عمره ليبدو عليه الوقار وسمت الشيوخ الكبار .

ويقولون إنه على الرغم من دعوة علماء الشام لسيدى « عبدالرحيم القنائى » وإلحاحهم عليه ، ليعيش بينهم ، ويتولى الدعوة هناك الى دين الله .. فإنه ظل على تواضعه يقرأ كنوز المشرق ويقارن بينها وبين ما حصله في المغرب .. ويعتبر نفسه تلميذا في مدرسته التى هى بحر لا قرار له . ورغم رجاء أخواله ليبقى وسطهم فإنه عزم على العودة الى مسقط رأسه بالمغرب .. لأن أهله وعشيرته قد يكونون أشد حاجة الى علمه من أهل المشرق ..

في « ترغاي » قريته بالمغرب .. جلس للدرس والفتوى بمجرد عودته الى « المغرب » ، وفى ذات المكان الذى كان يجلس فيه والده - رحمه الله - يعظ الناس .

وكان تهافت الجموع على مجلس سيدى « عبدالرحيم القنائى » في « ترغاي » يؤكد يوما بعد يوم ، أن هذا الشيخ القادم من الشرق ، والذى امتزجت في عقله ، علوم المشرق مع علوم المغرب .. قد جاء بشيء جديد لم يسبق اليه . ولذلك فقد كان كثير من علماء المغرب يحرسون على حضور مجلسه ، ليسمعوا منه حديثه الجديد المستنير عن الدين ، وعلاقته بالدنيا ، وكيف يعرف الانسان طريقه الصحيح نحو ربه جلت قدرته ، وكيف يكون سلوكه مع نفسه ، ومع المجتمع ، ومع خالقه .

وقد كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، قد بدأ يدرس التصوف في الشام ، وحين عاد الى « المغرب » بدأ يتبحر فيه ويمارسه ويكتنه الكثير من أسرارهِ وأنواره .. وكان من أهم الشخصيات التى استقطبت اهتمامه ، عارف المغرب الكبير ، سيدى « ابويعزى المغربى » .. وكذلك الإمام العارف سيدى « ابومدين الغوث القلمساني » ، المتوفى عام ٥٩٤ الهجرى . وسيدى « عبدالرازق الجزولي » ، وهو شيخ سيدى « أبى الحجاج الاقصرى » ،

ويقال إن سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، قد تتلمذ فترة ، هو وسيدى « ابو مدين » .. على هذا القطب الولى سيدى « أبى يعزى » . كما يقال ان سيدى « ابا مدين » حينما جلس للتدريس ، كان من تلامذته سلطان العارفين ، سيدى « محيى الدين بن عربى » .. كما يقولون إنه بالرغم من ان سيدى « عبدالرحيم » كان مع سيدى « أبى مدين » ، فقد أخذ عنه الكثير .. والدليل على ذلك ان صاحب « قلائد الجواهر » يقول رواية عن سيدى « عبدالرحيم القنائى » يذكر فيها أنه قال : « قال الشيخ عبدالرحيم القنائى رضى الله عنه : سمعت شيخنا ابا مدين رضى الله عنه يقول : اوقفنى ربى عز وجل بين يديه ، وقال لى : يا شعيب : ماذا عن يمينك ؟ قلت : يارب عطاؤك . قال : وماذا عن شمالك ؟ . قلت : يارب قضاؤك . قال : يا شعيب ، قد ضاعفت لك هذا ، وغفرت لك هذا . طوبى لمن رآك ، او رأى من رآك » .

وهذه الرواية تريد أن تقول .. ان سيدى « عبدالرحيم » شاهد سيدى « ابا مدين » ، بل هو تتلمذ عليه .. وجاوره فى الدراسة على سيدى « أبى يعزى » .. فطوبى لسيدى « أبى مدين » .. وطوبى لسيدى « عبدالرحيم القنائى » .

وهى أيضا ترهص كذلك ، بأن سيدى « عبدالرحيم القنائى » قد تربى تربية صوفية قوية .. نهل فيها من بحار أئمة التصوف وأقطابه فى عصره ... لدرجة ان مؤرخيه ، يقولون عنه انه فى هذه الفترة من حياته كان قد وصل الى محيط النور ، واكتملت صوفيته .. وبدأ هو من بحر علمه يدعو ويجاهد ويخرج التلاميذ والمريدين الذين اقتنعوا بمدرسته .. وليس بطريقته لان سيدى « عبدالرحيم القنائى » لم يذكر المؤرخون له طريقة من بين طرق التصوف ..

ومن أنجب تلامذته فى مصر ، الامام العارف سيدى « ابو الحسن على بن حميد الصباغ » ، المتوفى عام ٦١٢ الهجرى . وهو المدفون بجوار شيخه فى ضريحه بقنا .

لقد كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، هو الاب الروحى لسيدى « أبى الحسن على بن حميد الصباغ » . فقد « تخرج على يديه ، ونهل من راحتيه ، فغمره النور والفتح ، حتى صار بابا من أبواب الحق تعالى » .

وفى كتابه « بهجة الاسرار » يروى « نور الدين الشطرنوفى » ، عن أبى العباس احمد بن محمد المعروف بالراس ، انه قال : الشيخ أبو الحسن بن الصباغ رضى الله عنه ، شيخ عند الله عز وجل ، انتهت اليه الرئاسة فى هذا الشأن - أى

التصوف - في وقته في الديار المصرية ، وبه عرفت تربية المريدين بها ، وتخرج به غير واحد من أهلها ، مثل الشيخ أبى بكر بن شافع القوصى - من قوص - والشيخ علم الدين المنفلوطى - من منفلوط - والشيخ الامام مجد الدين أبى الحسن على بن وهب بن مطيع القشبرى - المعروف بابن دقيق العيد ، وغيرهم رضى الله عنهم .

وفي « بهجة الاسرار » .. بالاضافة الى مذكرناه ذكر مناقب كثيرة للشيخ أبى الحسن على بن حميد الصباغ ..

وفضلا عن ذلك ، فقد تربى في مدرسة سيدى « عبدالرحيم القنائى » نخبة من العارفين ، مثل سيدى أبى الحجاج الاقصرى ، وسيدى عبدالله القرشى ، وابن شافع القنائى .

وكما يقول الاستاذ « جودة محمد ابو زيد المهدي » ، في مجلة « منبر الاسلام » ، عدد ديسمبر عام ١٩٧١ .. « فقد كانت تربية الامام عبدالرحيم القنائى لابنائه وتلامذته في الطريق ، تقوم على التمسك بأداب الشريعة الغراء وتخليص القلب من كدورات البشرية ، وتطهير النفوس من قذى الاذى ، لتعود كما كانت في أصلها تقية نقية ، والمزاوجة بين العلم والعمل ، لتحقيق كمال العبودية .. »

ويصف الامام « عبدالوهاب الشعرانى » سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، في ترجمته له ، في « الطبقات » بقوله : « هو من اجلاء مشايخ مصر المشهورين ، وعظماء العارفين ، صاحب الكرامات الخارقة . والانفاس الصادقة . له المحل الأرفع من مراتب القرب ، والمنهل العذب من مناهل الوصل . وهو أحد من جمع الله له بين علمى الشريعة والحقيقة ، وآتاه مفتاحا من علم السر المصون ، وكثرا من معرفة الكتاب والحكمة . »

كما كان الشيخ « عبدالله القرشى » ، يقول عن سيدى « عبدالرحيم القنائى » :

« نور الشيخ غلب على أنوار جميع أصحاب الاحوال ، من أهل الديار المصرية في وقته » ..

ويروى الإمام « الشعرانى » ، ان سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، كان اذا سمع المؤذن يقول : « اشهد ان لا اله الا الله » ... يقول هو : شهدنا بما شاهدنا وويل لمن كذب على الله تعالى .

ظل الشاب التقى النقى « عبدالرحيم القنائي » في « قرغاي » .. حتى اختار الله والدته الى جواره . وكان عمره ان ذاك حوالى الخمسة والعشرين عاما . ولم يجد الشاب مفرا من ترك قريته .. وكان قد أدى ما عليه من واجب المسلم فيها . ليعود من جديد الى المشرق الاسلامى . بعد أن فقد حنان الأمومة .

ويبدو أن بين ما دفعه الى أن يهجر قريته ، انه لم يطق المكان الذى تذكره كل بقعة فيه بأب كريم عالم ، وأم حنون ..
لكن يبدو أن هناك ما هو أعمق من ذلك ..

فهما بعد المؤمن في ديار الاسلام عن الاراضى المقدسة في « مكة المكرمة » و « المدينة المنورة » ، فان قلبه يظل يرف لها ، ونفسه ترتبط بها .. تتحين الفرصة الى شد الرحال اليها ..

كان الهدف الاساسى أن يؤدى فريضة الله عليه ، فريضة الحج .. والتي لا يكتمل ايمان المسلم الا بها ، خاصة لمن استطاع اليها سبيلا . فضلا عن زيارة قبر الرسول ﷺ .. و « عبدالرحيم القنائي » هو من هو .. الذى يتشرف بالانتساب الى رسول الله ﷺ . اقول فان زيارة الرسول عليه الصلاة والسلام تأتى له بالشفاعة « من زار قبرى وجبت له شفاعتى » .

والواقع ان المسلم حين يحج الى بيت الله الحرام ، وحين يزور قبر الرسول عليه الصلاة والسلام تتمثل امام قلبه ووجدانه - خاصة اذا كان عالما مثل سيدى « عبدالرحيم القنائي » - تلك الذكريات المقدسة من جهاد الرسول في سبيل الدعوة اليه ، لإعلاء كلمة الله . كما يتمثل المسلم في كل بقعة يزورها من بقاع الارض المقدسة ، في رحاب تلك الأماكن التاريخية المملوءة بالذكريات .. أمة الاسلام في مشرق الرسالة ..

لقد ظلت هذه الرحلة أملا من آمال هذا الشاب يتحين الفرصة للقيام بها عندما يأذن الله تعالى بها ، وكانت تتمثل له في « قرغاي » قريته ، وهو يعطى الدروس في مسجدها .. وهو يتحدث عن جهاد رسول الله ﷺ ، وعن دعوته الكريمة الى الله .. وعن العقبات التى وقفت في سبيل الدعوة .

ولقد كان يمكن لسيدى « عبدالرحيم القنائي » أن يستمر في دعوته في بلاد المغرب ، بعد أن كبر اسمه وذاع صيته ، ورسخت قدمه بين علماء المغرب الكبار ، وبين دعاة الصادقين . لكنه رضى الله عنه ، بالاضافة الى عزمه على أداء فريضة الحج .. كان دائم التفكير في الامة الاسلامية ، التى بدأت تتهددها المحن ، خاصة من

الخارج ، وعلى الاخص من اولئك الذين رفعوا الصليب شعارا لهم ظلما وعدوانا ..
وبدأوا الهجوم على المشرق ..

كما بدأت أوروبا المسيحية ، في الاندلس ، موجة زحف سماها المؤرخون الغربيون
بحركة « الاسترداد » .. وهذه الموجة المسيحية بدأت تحقق بعض النجاحات .. حيث
ساعدوا على ذلك ما كانت عليه حالة المسلمين من ترك دينهم والانغماس في دنياهم ..
والنزاع بين ملوك الطوائف .. ثم النزاع بين المرابطين والموحدين .. مما هدد
الاسلام . ويبدو أن أخبار الاندلس كانت تصل الى الشيخ « عبدالرحيم القنائى »
وهو فى « قرغاي » .. فقد كانت « سبته » أقرب الى الجانب الآخر من مضيق « جبل
طارق » .

وكعالم مسلم كان يقول فى جامع « قرغاي » .. ان الجهاد فريضة ، كان لابد ان
يقرن القول بالعمل .

لكن كيف يؤدى ما عليه من فريضة الجهاد .. فى هذا الجو المتلاطم ، وتلك
الأحوال التى تتأمر على المسلمين ، وعلى دول الاسلام ؟

بعد تفكير وروية .. استقر رايه أن يترك « المغرب » .

اتجه فى رحلة طويلة وشاقة الى الأراضى المقدسة ، مارا بالاسكندرية ومدن
مصرية كثيرة ، قد تكون منها القاهرة .. ثم بمدن أخرى فى الصعيد ، حيث كانت
الرحلة تسير بمحاذاة النيل الى قنا ، ثم تتجه شرقا حتى عذاب على البحر الاحمر ..
ثم يجرى عبور البحر الى الشاطئ الآخر ..

وهناك فى « مكة المكرمة » يلتقى بعلماء المسلمين القادمين من شتى بقاع العالم
الاسلام .. لكى يسألهم ويسألونه ، ويسمع منهم ويسمعونه .. وبعدها يحدد هو
طريقه .. وفكره فى امر الجهاد كعالم مسلم ..

ولقد ظل سيدى « عبدالرحيم القنائى » تسعة أعوام فى الأرض المقدسة متنقلا
بين « مكة المكرمة » و « المدينة المنورة » .. لقد أدرك ان الاخطار التى تتهدد عالم
الاسلام يمكن الوقوف امامها والتغلب عليها ، اذا ما انصلح حال المسلمين ، واذا ما
عادوا الى دينهم القويم ، واذا ما تمسكوا بحبل الله جميعا .. وأدرك ايضا أنه مما
يزيد الاخطار ان بعض حكام المسلمين لا يعملون بشريعة الله وسنة رسوله ﷺ .. وأن
هذا كله تجمع وأدى الى إضعاف أمة الاسلام .. مما دفع أعداءها الى تهديد
حدودها ، ووصل الأمر الى حد الهجوم عليها ..

وأدرك سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، أن لعلماء المسلمين دورا أساسيا في هذا المجال ، إن عليهم تبصير المسلمين بأمور دينهم الحق ، وعلى علماء المسلمين أن يكتفوا الدعوة الى الله .. وأن العالم المسلم لابد أن يقوم بشرح دقائق تاريخ الدعوة المحمدية .. وما حققته من انجاز .

إن على علماء المسلمين واجبا وجهدا كبيرا في ميدان خطر .. هو ميدان العقول . وجهادا في ساحات العلم ، وفي رحاب المساجد التى كانت بمثابة المنارات العلمية في العصور الوسطى .

هذا .. هو ما خرج به سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، وهو في الرحاب المقدسة بعد أن ظل يدرس حالة عالم الاسلام ..

وليس صدفة ان يلتقى سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، في السنة العاشرة من اقامته بالرحاب المقدسة ، بشيخ مهيب قادم من مصر ليؤدى فريضة الحج التقى بالشيخ « مجد الدين القشيري » .

لقد حدثه الشيخ « القشيري » طويلا عن مصر ، وعن علماء مصر .. كما حدثه عن أهل مصر ودور العلم فيها ، ونمو التصوف والصوفية هناك .

وقد طال الحديث بين الشيخ القادم من « قوص » عاصمة صعيد مصر حينئذ وبين هذا الشاب المؤمن العالم « عبدالرحيم » .. وهذا الحديث امتد في المسجد الحرام .. كما امتد في رحاب الحرم النبوى .

ولقد وجد هذا الشاب في حديث الشيخ « القشيري » .. ما أغراه ان يذهب معه الى صعيد مصر .. الذى كان في حاجة الى جهاد لتفشى الجهالة لقد أغراه ان يعود معه الى صعيد مصر .. حيث كانت الخلافة ضعيفة . لقد شرح له الشيخ « مجد الدين القشيري » حالة القوم في صعيد مصر .. مما جعل الشاب يتحمس ، ويعود مع الشيخ « القشيري » الى مصر .. ليبدأ طريقا صعبا ، ولكنه ليس بصعب على المجاهدين المؤمنين .

عاد سيدى « عبدالرحيم » ، مع الشيخ « مجد الدين القشيري » الى « قوص » .. ولم يبق فيها سوى يومين أو ثلاثة .. إتجه بعدها إلى « قنا » ليبدأ الجهاد ، ويربى الرجال ويرفع راية الاسلام عالية .. كل ذلك على هدى من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان اتجاهه الى « قنا » كما تذكر المصادر عنه .. بعد أن رأى ، وهو في قوص ، مناما يأمره بشد الرحال الى « قنا » حيث كان المجال خصبا ومهيأ للشيخ الشاب لكى يبذل الظلمة ، بدروسه في العلم والتصوف .

وقد صارت « قنا » مركز دعوة سيدى « عبد الرحيم القنائى » .. وذاع صيته بها ..

ويحدثنا التاريخ ان سيدى « عبد الرحيم » تزوج اول ماتزوج من ابنة الشيخ « مجد الدين القشيري » . وكانت زوجة مخلصه مؤمنة سالحة . وحين توفاهما الله ، تزوج بأخرى . ويقال إنه تزوج من أربع زوجات ، وأنه انجب تسعة عشر ولدا وبناتا ، منهم سيدى محمد كمال الدين ، وسيدى الكامل علم الدين محمود ، وسيدى شمس الدين ، والسيدة مباركة ، والسيدة رحيمة ، والسيدة عزيزة رضى الله تعالى عنهم .

فى « قنا » ، وكما تقول الدكتورة « سعاد ماهر » .. التقى سيدى عبد الرحيم بعلمائها . وكان أول ما التقى به هو الشيخ القرشى . وكان من أولياء الله الصالحين بها . وقد انعقدت أواصر الألفة بينهما ، وتحابا وتزاملا فى الدعوة الى الله .

ولقد ساعد جو « قنا » الهادى ، الشيخ عبد الرحيم على حياة التأمل . ولذلك فإنه أمضى العامين الأولين يتعبد ، ويدرس ، ويختلى الى نفسه .. ومع ذلك كان يعتمد على عمله الخاص فى تدبير معاشه .. لأنه كان قد اتخذ لنفسه منهجا لم يحد عنه طول بقائه فى صعيد مصر .. وهو العمل بيده لكسب قوته . وقد اشتغل بالتجارة ، كما اسلفنا ووضحنا ، وقد درت عليه التجارة فى مدينة « قنا » ربها وفيرا ساعده على الانفاق على فقراء الطلاب والراغبين فى العلم ولايستطيعون لضيق ذات اليد .. بالاضافة الى انفاقه على غير القادرين من أبناء المسلمين .

ولاشك ان ما فعله سيدى « عبد الرحيم القنائى » ، كان اسلوبا مختلفا عما هو متبع فى مصر فى ذلك العصر . فقد كان العلماء يتناولون أجورهم من بيت مال المسلمين . وكان هذا حقاً لهم .. حتى ولو كانوا ضد السلطة الحاكمة . كما ان أثرياء المسلمين ، كانوا يعتبرون من العار عليهم ان يشغلوا العلماء بامر معاشهم .. فكانوا يتكفلون عنهم بذلك .. حتى يتفرغوا لرسالتهم العلمية . لكن سيدى « عبد الرحيم القنائى » .. نفر من هذا الأسلوب المتبع ، وجاهد هو ليكسب قوته من عرقه . وكان يكتفى بأقل القليل ، وينفق الباقي على وصل المحتاجين ، والتلاميذ المعوزين .

لقد أسس سيدى « عبد الرحيم القنائى » فى مدينة « قنا » مدرسة جديدة ، مدرسة صوفية خاصة ، تسمح للطرق الأخرى بالأخذ منها من غير الخروج على مناهجها .. وكان يرى : « ان الدين الاسلامى .. دين علم وإخلاص ، فمن ترك واحدة ضل الطريق » .

وفي هذا الجو الهادئ في قنا ، استطاع سيدي « عبدالرحيم القنائي » أن يفيض بالكثير من المؤلفات .. ومنها تفسير القرآن الكريم .. ورسالة في الزواج .. وكتاب الأصفياء .. وغيرها كثير .. ووردت سيرته في كتب كثيرة مثل « الطالع السعيد في ذكر علماء الصعيد » .. و« أبوالمحسن في حسن المحاضرة » وفي « لطائف المنن » ، و« طبقات الشعرا » ، و« طبقات الإمام المناوي » .. كما جاء ذكره أيضا في روايات الشيخ « علي الخواص » ، أستاذ الإمام « الشعرا » .. والأخير ذكر بعض مناقب سيدي « عبدالرحيم القنائي » في كتابه « الأنوار القدسية في بيان أداب العبودية » .. و« بهجة الأسرار » للشطنوف ، و« جامع الكرامات » للنبهائي .. وغيره كثير ..



ويقال إنه لما تولت الدولة الايوبية مقاليد الامور في مصر .. بعد انهيار دولة الفاطميين ، عمل الايوبيون جاهدين على القضاء على المذهب الشيعي السائد ونشر المذهب السني ، وكانت وسيلة الدولة الايوبية في ذلك اغلاق الجامع الازهر ، وانشاء المدارس ، مثل المدرسة القمحية لتدريس ونشر المذهب السني ، بالاضافة الى ان الدولة الايوبية عملت على ان يتولى المناصب الكبيرة اصحاب المذهب السني . خاصة مذهب الامام الشافعي رضي الله عنه ، والذي كان مذهب الايوبيين .

ولقد اصدر الملك « العزيز بالله » بن « صلاح الدين الايوبي » مؤسس دولة الايوبيين في مصر ، وفي نطاق خطة الايوبيين ، قراره بتعيين الشيخ « عبدالرحيم القنائي » ، شيخا لمدينة « قنا » .. ومنذ ذلك التاريخ صار سيدي « عبدالرحيم » يعرف « بالقنائي » .. وكان مركز دعوته زاوية بجانب ضريحه الحالي يجتمع فيها بزائريه والوافدين عليه من كل مكان .. وكانت هذه الزاوية قلب المدرسة القنائية التي قويت وانتشرت .

وكانت المدرسة القنائية - في التصوف خاصة - ذات فكر خاص جديد فقد كان شيخها سيدي « عبدالرحيم القنائي » يرى ان المسلم ، لا بد ان يكون قدوة لمعاني الايمان الذي يحمله في داخله . ولذلك فلا بد له ان يتخلق باخلاق الدين القويم ، والا يكون عاطلا . وانما يكون عاملا .. لأن هذا هو حق مجتمعه عليه ، والذي اوجبه العقيدة . ومن هذا المنطلق ، فان محور فلسفة سيدي « عبدالرحيم القنائي » كشيخ صوفي - وليس قطبا ذا طريقة - تدور حول التمسك بالدين . وهذا التمسك يلزم العمل به ، والعلم يدفع الى العمل ، والعمل يقود الى السلوك القويم ، والاخلاق الكريمة .

لقد كان كثيرا وكثيرا جدا - كما يقول « صلاح عزام » في كتابه عن سيدى « عبدالرحيم القنائى » - مايركز على شعار العلم ، والعمل ، والاخلاق .. ولذلك فقد كان محور جهاده حولها . وكان يرفض ان يكون له طريقة .. كغيره من العلماء .

ولذلك كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » يقول حول العلم : « .. والعلم اصل العقائد الدينية . وفي ذلك يقول الله تعالى : « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ، لا اله الا هو العزيز الحكيم » . وقوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » . كما تحدثت السيدة « عائشة » رضى الله عنها عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه قال : « طلب العلم عند الله افضل من كثير » .

ومع العلم ، كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » يقول لتلاميذه ومريديه : « إحفظ نفسك من نفسك وإلهكت » . ويقول ايضا : « لاتعن ظالما على مظلوم ولو قيدت بالسلاسل والاغلال » .. كما يوصى مريديه : « اتجه الى الله قبل كل شيء ، وفوض اليه الامر في كل شيء » .

والى جانب العلم ايضا ، كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » يدعو كل من يأتى الى حلقاته ، أن يتخذ له حرفة ، وإلى المزيد من العمل لمن يعمل .. حتى انه كان يبدأ دروسه وينهيها بقوله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

وكان سيدى « عبدالرحيم القنائى » يقول كذلك : « من راح الى غير عمل بعلم واخلاق ، فهو تحت حكم ما قاله الله تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو اهدى سبيلا » .

ويقول سيدى « عبدالرحيم القنائى » حاضا على العمل ومحبذا له : « ان النبى صلى الله عليه وسلم تصوف قبل الرسالة بغار حراء ، فانقطع عن الدنيا الا بما يقيم صلبه ، ولم يمنعه هذا من ان يعمل قبل الرسالة وبعدها عمل صلى الله عليه وسلم عمل اهل الارض ليقوم المساواة والعدالة لرسالة سوف تلقى عليه من ربه . فلما نزلت الرسالة ، اقر الله العلم والعمل بآية نزلت على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .

وعن الاخلاق يقول سيدى عبدالرحيم القنائى مفسرا لقوله تبارك وتعالى :

« اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » يقول : ان النعمة المقصودة هى الاخلاق الحسنة . لان الدين لم يكن ناقصا ولكن معنى « اكملت لكم دينكم برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم آخر الانبياء والرسل وبه كمل الدين .

بالرسول . ثم ارتضى تبارك وتعالى الاسلام ديناً . وهو الدعوة المحمدية التى وصل للناس نورها .. هداية وتبصرة وقوة وايماناً .. ومعرفة ، وعزة ، وجاها ، وعلماً ، وعملاً ، واخلاقاً « كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .



إن مدرسة سيدى « عبدالرحيم القنائى » .. هى مدرسة متصوف ، تقوم على العلم والعمل والاخلاق .. وهى مدرسة فيها مافيهها من السلوك القويم والاخلاق الكريمة .. التى تصبح جميعها متصلة .. لتكوين المسلم الصحيح « وهذا يدل عليه ما سجل له من بعض عظاته ودعوته فى مدينة « قنا » .. كما يبرز قدرة سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، على توصيل ما يريد ان يقوله الى عقول المسلمين ..

ففى إحدى جلساته .. قال لمريديه :

عندما كنت بالمدينة المنورة ، مقيماً فيها .. سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم « مناماً » ، وكان ذلك فى رؤيا ذات ليلة فسألت فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن : كيف حدث شق الصدر . فقال عليه الصلاة والسلام : لقد شق صدرى وأنا فى اليقظة ما شعرت فيه بشيء من ألم . وأتانى الله بقلب سليم ليتحمل نزول كلام الله على هذا القلب . لان القلب الذى خلقت به طفلاً ، لا يتحمل هذا النزول .. وأنت يا عبد الرحيم تقرأ كتاب الله ، الذى قال جل شأنه : « بسم الله الرحمن الرحيم : لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » .. نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين .

فمن رحمة الله بى أن هذا القلب الذى ارتضاه ربه ، فيه قوة ونورانية ونقاء وصفاء . وقد سلم من كل شيء من امراض الدنيا وعثراتها .. تجرى فيه آيات الرحمن التى نزلت عليه ، لم يخالطها شيء من قوة أخرى . حيث كان كلام الله هو القوة والحياة . وقد حفظه الله من الزيغ والنسيان ، وليس للشيطان سلطان عليه . ومتى جرى قول الله فى مكان ، أصبح هذا المكان بعيداً عن الهوى ، وهذا هو معنى قوله تعالى عنى : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .. وهذا هو المعنى فى قوله تعالى : « وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا ، ماكنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم » ..

« ولقد كان الكتاب والايمان نورا في قلبي وعلى قلبي . وكان قلبي نورا يهدي به الله من يشاء من عباده بإذنه . وأرسلني جل شأنه لهدى الناس الى صراط الله المستقيم . وهذا هو قلبي يا عبد الرحيم » .

ثم بعد ان روى سيدى « عبد الرحيم » ذلك ، يقول فى مستمعيه :
يا عباد الله .. هذا هو ما وصل الى فى وصف قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من رسول الله نفسه ، وأنا هناك بالأرض الطيبة بالمدينة المنورة ، أنعم برضاء الله وحب رسوله العظيم .

يا عباد الله .. قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخالطه حقد ولا حسد . فقد عاش هذا القلب بقوة كلام الله الذى انزل عليه ، وكلام الله غذاء للروح والجسم . وحياة الانسان .

قلب رسول الله أبيض . فقد غمره الصفاء . فأشرق به على العالم أجمع نبيا . وغمره النور ضياء فكان به رحمة للعالمين ، وكسته السلامة ، فأتى الله بها دنيا وأخرى ، ولقى الله بقلب سليم . ما نطق عن الهوى .. كل كلامه حكمة وكل كلامه كمال ، وكل كلامه حسن ، وكل كلامه جمال ، وكل كلامه حق ، وكل كلامه صدق ، وكل كلامه رحمة ، وكل كلامه معرفة ، وكل كلامه نور ، وكل كلامه ضياء ، وكل كلامه جلال ، وكل كلامه تقريب الى الله ، وكل كلامه فصاحة ، وكل كلامه خير ، وكل كلامه وقار ، وكل كلامه أمانة ، وكل كلامه شرف ، وكل كلامه غذاء للروح والقلب .. حتى كان الصحابة رضى الله عنهم يستأنسون بصوته عن بعد اذا غاب عنهم جسده الشريف ، يحسون به رياء لظمنهم ، واطمئننا لقلوبهم ، وشفاء لحبهم .

انظر الى كلام الله جل شأنه فيه صلوات عليه وسلامه :

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانقضوا من حولك » ..

و...و...و...

لقد كان أسلوبه رشيقا يدخل القلب .. وكان عرضه يستقطب الانتباه كما كان تفسيره ينحونحو الفلسفة السهلة .. دون التعقيد . ولقد عرض صاحب كتاب « بهجة الاسرار » لمجموعة من أحواله ومقاماته التى تظهر فيها صوفيته وعلمه الغزير كما تظهر فيها منزلة سيدى « عبد الرحيم القنائى » فى العلم اللدنى ومعرفة بالاحوال والمقامات .. نجتزئ منها قوله رضى الله عنه :

● قطع العلائق : محو الفقد وظهور العقد بعدم الالتفات الى السوى ، وثقة القلب بترتيب القدر السابق .

● **التجريد :** نسيان الزمانين حكما ، والذهول عن الكونين حالا ، وغض البصر عن «الآين» ، وقتا حتى تنقلب الاكوان باطنا لظاهر ، ومتحركا لساكن ، فيسكن القلب بتمكين القدر على قطع الحكم ، والابتهاج بمنفسحات الموارد وانشراح الصدور بصور الاكوان مع ثبوت المقام بعد التكوين ورسوخ التمكين ، فتكون السماء له رداء ، والارض بساطا .

● **والهبة :** في القلب لعظمة الله تعالى : طمس على ابصار البصائر لمشاهدته ومشاهدته لمن سواء حسنا ، فلا يرى الا بانوار الجلال ، ولا يرى الا بسواطع الجمال .

● **والرضا :** سكون القلب تحت مجارى الاقدار بنفى التفرقة حالا ، وعلم التوحيد جمعا ، فيشهد القدرة بالقادر ، والامر بالامر ، وذلك يلزمه في كل حال من الاحوال .

● **والجوع :** صفاء الاسرار في استغراق الازكار .

● **والشوق :** الاستغراق في مجال الذكر طريا ، ثم الغيبة في توسط الذكر سكرا ، ثم الحضور في اواخر الذكر صحوا . فهو بين استغراق يهيج ، وغيبة تزعجه ، وحضور ينعشه ، وثلاث وقت المشتاق استغراق وثلاث غيبة ، وثلاث حضور .

● **الواصل :** القى السمع للاصغاء ، وفتح البصيرة للنظر ، فتنقلب حروف الاكوان في سر استماعه نذيرا وحكما ومواعظ ، فهو في رياض التدبير بين حدائق المواعظ الناطقة والصامته ، وازهار الحكم الباطنة والظاهرة .

● **التقوى :** ان لا يظهر على محله حركة الا وهى منوطة بحبل العلم مع غيبة عن حركته . فان تكن باطنة ، ففي باطن العلم وجودها مع طهارة القلب وتسليم النفس ومبادرة الوقت . واذا صح هذا الوصف للعبد ، آتاه الله عز وجل العلم اللدنى ، وفتح له باب الالهام الوحي ، فيحدث روحه بأسرار الملكوت .

● **والحياة :** أن يحيا القلب بنور الكشف ، فيدرك سر الحق الذى برزت به الاكوان في اختلاف اطوارها فكيف هى حية بالله تعالى ، ويخاطبه بأسرار معانيها والطاق مبانيتها .

● **والتمكين :** شهود العلم كشفا ، ورجوع الأحوال عليه قهرا ، والتصرف بالقادم حتما ، وكمال الامر شرعا ..



ظل الامام «عبد الرحيم القنائى» - قطب المدرسة القنائية - ولا أقول الطريقة الصوفية - يردد دعاءه الاثير لده : « اللهم ارزقنى علم الحياة وحياة العلم .. وامنحنى نعيم الحياة وحياة النعيم . واغمرنى بفضل من النور ونور من الفضل .

واعطنى قوة الابدان وابدان القوة . واسالك نعمة الشفاء وشفاء النعمة . واسالك طول العمر ياذا الطول والانعام ، واحسن الى يا عظيم الاحسان ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم .

ويقال أيضا ان دعاءه الذى ظل يردده مريدوه « اللهم ارزقنا رزقا لاتعذبنا عليه » .

ظل سيدى « عبدالرحيم القنائى » يواصل الجهاد فى مدرسته حتى توفاه الله بعد حياة حافلة امتدت ٧٢ عاما قضاها بين المغرب ودمشق والحجاز والصعيد .. مرورا بالاسكندرية والقاهرة . وقد كانت وفاته فى عام ٥٩٢ الهجرى .. وهو نفس العام الذى توفى فيه « صلاح الدين الايوبى » .

ومدينة « قنا » التى عاش فيها سيدى « عبدالرحيم القنائى » رضوان الله عليه ، هى مدينة مصرية قديمة اسمها الفرعونى « شاسبت » .. وفى العصر البطلمى تسمت باسم « كنيابوليس » .. وهذا هو الاسم الذى حملته حتى الان ، وان كان فى العصر القبطى كان ينطق « كونا » ومنها الاسم العربى « قونه » .. ثم حرف الى « قنا أو قنى » .

ومن الصدف ان يكون سيدى « عبدالرحيم القنائى » قد غير اسمه ايضا مثل المدينة التى عاش فيها ، فلقد كان اسم سيدى « عبدالرحيم » الذى اختاره له والداه هو « أسد » .. وهو من الأسماء العربية الشهيرة المتكررة . وبعد سياحات وجولات ..

مجاهدة وجهادا فى سبيله تعالى رأى ان يستبدل « عبدالرحيم » .. بـ « أسد » .. انطلاقا من اقتناعه بأن الرحمة بالنسبة للمسلم ، لاتعنى المعنى البسيط المجرد لهذه الكلمة .. وانما هى أكثر الكلمات امتلاء بالمعانى . فهى تعنى الكرم من موقف القوة ، وتعنى الصلة بين الاخوة ، وتعنى الجلال فى طيبة .

وهكذا غير الشيخ اسمه إلى « عبدالرحيم » اما القنائى فهى صفة لصقت باسمه من المدينة التى عاش فيها ودفن فيها .. وفى الموروثات الشعبية نجد تلميحاً الى ذلك فيما يقولون :

السيد غير اسمه بالنور
جانا وفرش القلوب بالورد والنور
رسمنا الاسد على ايدينا وصدورنا
وفوق الكفوف
وجوه القلوب الى قايد .. بيتفجر نور
يا حبيبى يا قناوى .. يا منى عينى

ويرمز الى ذلك ايضا ان اغلب اهل الصعيد كانوا تبركا بسيدى « عبدالرحيم القنلوى » يدقون وشم الاسد والسيف على صدورهم وفوق أكفهم .. رمزا للشيخ المبارك الذى نور الصعيد ..

ومسجد سيدى « عبدالرحيم القنلى » ، الملحق به ضريحه والموجود حاليا يرجع بناؤه الى النصف الاول من القرن العشرين .. الا انه حل محل الزاوية التى بناها الشيخ فى حياته ، والتى كان يتعبد فيها .. كما كان ايضا يستقبل فيها زواره ومريديه .

ويتكون المسجد الحالى - كما تقول الدكتورة « سعاد ماهر » من صحن مربع بسقف به « شخشيخة » ، تعلوها قبة صغيرة ضحلة ، ويحيط بالصحن اربعة ايوانات عميقة متعامدة ، اكبرها ايوان القبلة ، ويقع فى الجهة الشرقية من المسجد . ويتقدم كل ايوان عمودان ، كل منهما يتكون من عمودين ملتصقين ويعلو العمودين ثلاثة عقود تكون واجهة الايوان .

والمدخل الرئيسى للمسجد يقع فى الجهة الجنوبية ، وهو مرتفع اذ يصعد اليه بست درجات وتتقدمه مظلة ذات أعمدة . وفى الركن الجنوبى الشرقى للمدخل توجد منئذنة الجامع . وخلف الايوان الشرقى يوجد الضريح .. وهو عبارة عن أركان المربع .. والضريح مدفون فيه سيدى عبدالرحيم القنلى وسيدى ابوالحسن الصباغ تلميذه وزوج ابنته .

وهذا الضريح .. تروى حوله قصص الكرامات ، والتى يقولون ان من كراماته رضى الله عنه « فائدة الأربعاء » . وهذه الكرامة تروى عن ابنى عبد الله القرشى . وهى أن من له حاجة عند الله تعالى يزور سيدى عبدالرحيم القنلى يوم الاربعاء بكيفية مخصوصة ، بأن يمشى الى قبره حافيا ، مكشوف الرأس وقت الظهيرة ، فيدخل ويصلى ركعتين ، ويقرأ شيئا من القرآن الكريم ، ويقول : اللهم انى اتوسل اليك بجاه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبابينا آدم وامنا حواء ، وما بينهما من النبيين والمرسلين ، وبعبد الرحيم ، اقضى حاجتى .. ثم يذكر حاجته .

ويروى بقواتر .. انه لم يجربها احد الا وقضيت حاجته ..

ولقد ظل ضريح سيدى « عبدالرحيم القنلى » ، قبلة للقصاد من المؤمنين ، حتى ان المؤرخين ، يقولون إنه بعد موته زار ضريحه سيدى « احمد البدوى » - وقد قال له - كما تروى المأثورات الشعبية - الكثير ، ومنه انه دعا الى جواره ان يقضى الله حوائجه ، توسل اليه بتلميذه الصباغ :

أنا يا سيدى عبد الرحيم ايا الاسد
يا كعبة القصاد يا أعلى سند
أنا في جوارك يا ابن بنت المصطفى
مما دهانى من كرب أو شدد
بالسيد الصباغ من أوليته
بالمشهد الأعلى ، برك قد ورد
انى قصدتك في قضاء حوائجى
قل مرحبا يا ابن الحسين ، ومد يد

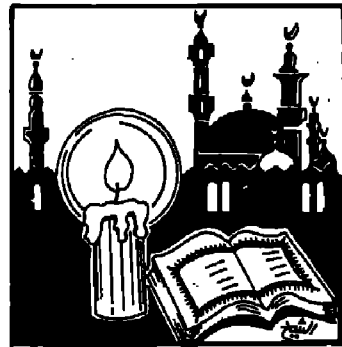
وهناك رواية منسوبة لشيخ الاسلام « ابن دقيق العيد » ، وكان في مصر ، في زمن
سيدى « احمد البدوى » . وتقول هذه الرواية ان شيخ الاسلام « ابن دقيق العيد » زار
جبانة قنا وقت الظهير ، وجلس عند قبر سيدى « عبد الرحيم القنلى » .. واذا بأنوار
تخرج من قبر سيدى « عبد الرحيم » وأنوار أخرى تخرج من قبر سيدى « أبى الحسن
الصباغ » .. حتى توارى عنى نور الشمس لشدة ضياء تلك الأنوار . ثم سمعت قائلا من
قبر سيدى « عبد الرحيم » يقول « الله نور السموات والأرض » ، وقائلا يقول من
قبر الشيخ « أبى الحسن الصباغ » : « نور على نور » .

يقولون ان ضريح سيدى « عبد الرحيم » مجلل بالأنوار ، وان خيرا وبركة ترفرف
فوقه .. وان كثيرين من حكام مصر كانوا يعتقدون في بركاته .. وانهم أوقفوا الكثير عليه -
قبل حل الأوقاف . ومن بين تلك الأوقاف قطعة أرض اسمها « الفدان » .. وفي بعض
المصادر « الفداك » .. وهذه الأرض يصلح ترابها لعجينة الفخار الذى تصنع منه القلل
والأباريق ، والتي كان الحجاج يحملونها ويعودون بها من الأراضى المقدسة وفيها بعض
ماء زمزم .. ولأجل هذا فان القلل القناوى مازالت لها شهرتها وبركتها في تبريد الماء ..
وتحويله الى ماء زلال .. لأنها من الأرض المدفون فيها سيدى « اسد » .. او « عبد الرحيم
القنلى » ، رضى الله عنه .

أعلام
التصوف
الاسلامي

الامام الطرطوشي

صاحب سراج الملوك
المدافع عن المظلومين



●● كما يروى الاستاذ المؤرخ الكبير « محمد عبدالله عنان » الحجة في تاريخ الاندلس .. فان عصر الطوائف بالاندلس ، كان عصرا غريبا .. يمتاز من الناحيتين السياسية والاجتماعية بعدة خصائص تجعله عصرا قائما بذاته .

فمن الناحية السياسية ، نرى الاندلس في عصر الطوائف تنتشر الى دويلات عديدة ، متنابهة متنافسة ، يسودها الخلاف والتفرق ، وتشتبك في حروب اهلية صغيرة لانهاية لها .

ونرى اسبانيا النصرانية ، تستطيل عليها ، وتربص بها .. وتحاول ان تؤلب بعضها على بعض ، وان تفتزع منها ما استطاعت من القواعد والاراضى .

ومن الناحية الاجتماعية ، نرى في دول الطوائف ، مجتمعات منحلة ، يغلب عليها الضعف والخور ، والانهمك في الترف ، وحياة المجون والدعة والاستهتار .

على ان اغرب ظاهرة - والحديث هنا لاستاذنا عبدالله عنان - تبدو خلال هذا الانحلال الشامل ، الذى كان يسود مجتمع الطوائف .. هو ان هذا المجتمع كان من الناحية الاخرى ، يبدو في اثواب لامعة زاهية ، وبسطع نهضة ادبية شاملة ، وانها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف ان يكون معظم حكامها من اكابر الادباء والشعراء والعلماء ، وان تكون قصورهم منقديات زاهرة ، ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون ، وان يحفل هذا العصر بجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء الممتازين ، ومنهم بعض قادة الفكر الاندلسى والفكر الاسلامى بصفة عامة .

في هذا المجتمع المترف .. الذى يعشق متع الحياة المادية ، ومن بين هذه الجمهرة الحاشدة من ائمة العلوم والآداب .. ظهر مفكر اندلسى من نوع خاص ، يتخذ من اوضاع هذه الدول الصغيرة - دول الطوائف ، ومن أحداثها وسياسة ملوكها ورؤسائها .. مادة لتأملاته ، ويتأثر بها في تفكيره ، ويصوغ لنا منها مبادئ ونظريات خاصة .. هو الامام المتصوف العلامة « ابوبكر الطرطوشى » الذى جاء الى الاسكندرية .. التى كانت دائما مهبط علماء المغرب والاندلس المفضل .. ففي الوقت الذى نزل بها الإمام « الطرطوشى » ، نزل بها مواطنه العلامة « امية بن ابي الصلت

الاندلسى ، المتوفى سنة ٥٢٩ هـ ، ونزل من بعده بنحو نصف قرن موطنه العلامة المقرئ الشهير ، أبو القاسم الرعينى الشاطبى الضرير ، امام القراءات والمتوفى سنة ٥٩٠ هـ وهو الذى أورث مصر علم القراءات ، ونزل فى منتصف القرن السابع الهجرى العلامة الاندلسى المتصوف « أبو العباس المرسى » المتوفى سنة ٦٨٥ هـ .. وغيرهم كثير

هذا نموذج فريد من الأئمة الصوفيين .. كان شمعة مضيئة فى ليل مظلم ، حالك السواد . لكنه باشراقة قلبه وصدق إيمانه .. أدى ما عليه من واجب نحو دينه ونحو المسلمين ، فعلا صيته وهزت كلماته قلوب الناس .. ورجت السلاطين والملوك فهابوه .

هذا العالم الجليل والامام الصوفى جاب عالم الاسلام من مغربه إلى مشرقه فى النصف الثانى من القرن الخامس للهجرة .. بدأ رحلته الطويلة من الاندلس وأنهاها فى الاسكندرية .. وخصص من نفسه ومن علمه الغزير هاديا ومعلما وواعظا للملوك والسلاطين .. وهدفه من وراء ذلك كله أن يعود الاسلام الى عزته ومنعته ، وان تتخلص ديار الإسلام من الكوارث والتمزقات .

من طرطوشه - أوطرطوسه - فى الاندلس ، كانت قصته المثيرة ، باحثا ودارسا ومدرسا فى فروع العلم والفلسفة والتصوف ، أمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر .. لا يخشى فى الله لومة لائم .. وكما يقول « المقرئ » ، صاحب كتاب « نفح الطيب » .. « كان الطرطوشى قوالا للحق ، مدافعا عنه » .

ونهاية سياحات هذا الامام فى بلاد الاسلام ، كانت « الاسكندرية » .. حيث حظ رحاله ، واستقر المقام بهذا العالم الشجاع المؤمن ، المعتد بنفسه ، والذى لا يخشى فى الله لومة لائم . وكانت هذه النهاية - كما كانت بدايتها - نسيجا لحياة ثرية .. وخلصا للناس الثغر .. حتى لقد قال قولته المشهورة : « وجدت فى الاسكندرية قوما ضلالا .. فكنت سبب هدايتهم » .

لكن الامام « الطرطوشى » ، قبل أن يهل على « الاسكندرية » كهوائها الطيب ، وقبل أن يصراهلها على تشريفه لها ، ليعيش بينهم .. كانت له فتوحات ، وصولات وجولات .. فى كل من مكة المكرمة ، وبغداد ، والبصرة ، والشام .. ثم رشيد فالإسكندرية ، فالقاهرة . فالاسكندرية .

وقبل أن يدخل الاسكندرية ليعيش فيها ، ويستقر بها .. كانت هذه المدينة فى شدة وكرب ، لم تشهدهما على طول تاريخها العريق .. فقد جاء « الطرطوشى » الاسكندرية والبلد خراب ، صفوة علمائها قد قتلوا ، بحيث نضب معينها من العلماء الاجلاء ..

أحس أهل الاسكندرية ، أنهم في حاجة ماسة الى جريان ماء العقيدة والتقوى والصلاح ، بعد أن كادت تتوقف . إنهم في حاجة الى قطب فقيه كبير سبقته شهرته في عالم الاسلام . يتصدر حلقات الدرس في مساجدها التي تعطل وتهدم أكثرها .. حتى من إقامة الجمعة والجماعة .. ولذلك شكل الناس وفدا من الباقي من فقهاء الاسكندرية وأعيانها .. وسافر الوفد الى مدينة رشيد ، وعلى رأسه قاضى الاسكندرية ، قابلوا الامام « الطرطوشى » طلبوا اليه ورجوه أن يذهب معهم الى بلدهم .. وألحوا فى الطلب . والإمام « الطرطوشى » لم يتقاعس عن الجهاد فقبل رجاءهم ، لأن الجهاد فرض عين على كل مؤمن .. ناهيك عن هذا الإمام الكبير العالم الصوفى ...

وبالفعل .. اصطحب معه تلميذه من فلسطين الشيخ « السائح » .. ودخل الثغر مع الوفد الذى جاءه .. وبدأ نور الايمان يسلط أضواءه على الاسكندرية حين بدأ الامام يعمر المساجد بدروسه وينشر العلم على مذهب الامام مالك - مذهب هو - وكثير الناس حوله فى حلقاته ، يأخذون عنه ، ويفيدون منه ومن علمه . وقد كان دخوله الاسكندرية ، فى عهد الوزير الفاطمى « الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى » عام ٤٨٨ هجرية .. أيام دولة الفاطميين فى مصر .



قبل أن يأتى الامام « الطرطوشى » مدينة الاسكندرية .. كانت « مصر » تحت حكم الخليفة الفاطمى « المستنصر بالله » .. والذى ظنل يحكمها ٦٠ عاما وبضعة أشهر . وكان عهد هذا الخليفة ، كما يقول دكتور « حسن ابراهيم حسن » فى كتابه « تاريخ الدولة الفاطمية » .. أطول عهود الخلفاء الفاطميين فى مصر .. وهذا العهد فى فترته الأولى كان من أزهر فترات حكم الدولة الفاطمية .. حتى أن سلطان الدولة امتد فيه على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال افريقيا . وكان اسم « المستنصر بالله » تجرى الخطابة به على منابر تلك البلاد الممتدة من المحيط الأطلسى غربا الى الخليج شرقا .. وكذا صقلية ، وبغداد نفسها ، حاضرة العباسيين .

لقد زار الرحالة الفارسى « ناصر خسرو » مصر فى عام ٤٣٩ الهجرى ، فى أيام حكم « المستنصر بالله » الأولى ، ووصف البلاد وحالتها فى كتابه « سفرنامه » الذى نقله الى العربية الدكتور « يحيى الخشاب » ، حيث قال عنها « انها تلفها الطمانينة واليسر والرخاء .. » وقد اطنب فى وصف البلاط الفاطمى وابهته ، وما كانت عليه القاهرة الفاطمية فى ذلك الوقت من يسر ورخاء وإمبراطورية شاسعة الأرجاء .

غير أن الحالة في مصر سرعان ما تبدلت بعد ذلك من النقيض الى النقيض فقد حل بالقاهرة قحط بدأ عام ٤٤٦ هـ . وانخفض ماء النيل مدة سبع سنوات .. أهملت فيها الزراعة ، وانتشرت المجاعات ، وعم الوباء الذى يعتبر أطول وباء عرفته مصر في العصور الوسطى ، حيث امتد ثمان سنوات من عام ٤٤٦ هـ . الى عام ٤٥٤ هـ . ويقول بعض المؤرخين ، إنه كان يموت بمصر عشرة آلاف نفس في اليوم الواحد . وهدمت الأقوات ، حتى أكل الناس القطط والكلاب ، ثم أكل الناس الجيف .. حتى أن البعض يشبه هذه الحالة ، بما كانت عليه أوربا في العصور الوسطى ، أيام الوباء الذى انتشر فيها وسماه الناس « الموت الأسود » .

ومما يذكر .. أنه تقلد الوزارة في مصر في تلك الفترة ، ومدتها تسع سنوات حوالى ٤٠ وزيرا .. وكان الوزراء هم أصحاب الأمر والنهى في البلاد وقد اقترنت هذه الحالة التى أطلق عليها المؤرخون « الشدة العظمى » .. بقيام الفتن ، والحروب الأهلية .. حتى استدعى « المستنصر » الى مصر واليه على عكا « بدر الجمالى » ، الذى هدا الحالة ، وبنى سور القاهرة : إستدعاه « المستنصر » في عام ٤٦٦ هـ .. فأعاد - كما يقول المؤرخ « ابن ميسر » في كتابه « تاريخ مصر » : « النظام ، ووجه همه الى إصلاح حال البلاد ، وقضى على المفسدين » .

لكن لم تكد تمضى فترة قصيرة .. حتى مات « المستنصر » ، فبادر الوزير « الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى » فأجلس « أبا القاسم أحمد » أصغر أبناء « المستنصر » على عرش الخلافة الفاطمية .

هنا تبدأ شدة أخرى بالنسبة للاسكندرية .. حين يغضب أكبر أبناء « المستنصر » ، واسمه « نزار » .. لتخطى دوره ، خاصة وأن أباه كان قد ولاه عهده في حياته . وحين يرى « نزار » ضياع حقه في « الخلافة » يسير الى الاسكندرية مع أعوانه ، حيث يحسن واليها « ناصر الدين افندي » التركى استقباله ، ويبايعه مع أهل الاسكندرية بالخلافة . وهنا أيضا تحدث ظامة كبرى .. حيث يخرج لقتاله « الأفضل بن بدر الجمالى » ، فيحاصر المدينة بجيش كبير ، حصارا شديدا ، ونصب عليها المجالىق .. فأصبحت الاسكندرية بالتخريب . كما انتقم « الأفضل » من أهل الاسكندرية ، الذين شقوا عصا الطاعة ، فقتل الكثير من علمائها بحيث لم يبق في المدينة كبير من علمائه .. !!

في هذه الفترة يأتي الإمام « الطرطوشي » .. ليدرس مذهب الامام « مالك » .. ويتقاطر الناس عليه يأخذون منه ، ويقراون عليه ، ويفيدون من علمه ..

وهنا ملاحظة تذكرها الدكتورة الاستاذة « سعاد ماهر » في كتابها « مساجد مصر واولياء الله الصالحين » ، تقول :

« ومما تجدر ملاحظته ، انه على الرغم من أن المذهب الرسمي للدولة الفاطمية كان هو المذهب الشيعي الفاطمي ، وأن الدولة بذلت جهودا كبيرة في نشره ، فقد ظلت الاسكندرية « سنية » على مذهب الامام مالك . ويرجع السبب في ذلك الى مرابطة الكثير من القبائل العربية . فقد دأب الخلفاء الراشدون الأربعة ، وكذلك خلفاء الدولة الاموية والدولة العباسية على أن يبقى ربع الجيش الموجود في مصر ، بمدينة الاسكندرية لحمايتها ، وحماية حدود مصر الشمالية .

« كما كانت الاسكندرية دائما محط رجال المغاربة الذاهبين للحج أو العائدين منه ، ولعل هذا يفسر لنا رغبة أهل الاسكندرية الملحة في مجيء الامام الطرطوشي اليهم ، كما يفسر السبب في وفود كثير من علماء وأئمة أهل المغرب اليها » .

الإمام الطرطوشي .. هو أبوبكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري الطرطوشي . ويعرف في المصادر الاسبانية « بابن رندقة » . وهذه التسمية من تسميات الكتاب الفرنسيين ، في محاولة منهم لجعله فرنسي الأصل .

وتقول الدكتورة سعاد ماهر : إننا اذا كنا لانعرف شيئا عن أسرة أبي بكر الطرطوشي ، فإن المراجع التي أرخت له لم تذكر شيئا عن أسرته ، ويخطئ من يحاول إرجاع نسبه الى أصل فرنسي ، إذ أن نسبه واضح ، وينتهي الى قریش .

ولقد ولد الإمام الطرطوشي في طرطوشه ، ثغر مملكة سرقسطة الاندلسية ، الأول .. في السادس والعشرين من جمادى الأول عام ٤٥٠ - ٤٥١ الهجري « يوليو ١٠٥٩ الميلادي » . وكانت طرطوشه ، كما يصفها المؤرخ أبو المحاسن في « الفجوم الزاهرة » مدينة كبيرة من مدن الأندلس ، تقع على سفح جبل الى الشرق من مدينتي بلنسية وقرطبه . يحيط بها سور حصين من الصخور بناه بنو أمية . كما كانت « مدينة منيعة ، قريبة من البحر ، بينها وبينه عشرون ميلا ، متقنة العمارة ، مبنية على نهر أبرة » .

كانت طرطوشه داخل مملكة سرقسطه تتمتع في ظل أمرائها من بنى هود بالرخاء والازدهار . بل كانت مركزا من مراكز العلوم الاندلسية . كما كان بلاط بنى هود منتدى للعلماء والادباء . وكان أمير سرقسطه في الوقت الذي برز فيه الطرطوشى ، هو المقتدر بن هود « ٤٣٨ - ٤٧٤ هـ » .. من اكابر علماء عصره ، يشغف بدراسة الفلك والفلسفة والرياضيات .. وله في ذلك كتب ضاعت .. كما كان المقتدر بن هود يلتقى في بلاطه بأكابر العلماء ، ومنهم العلامة الكبير أبو الوليد الباجى ، إمام عصره في الفقه ومسائل الخلاف .

يقول الدكتور « جمال الدين الشيبلى » .. « إنه إعتادا على ما جاء في كتاب « سراج الملوك » من قصص وروايات عن أفراد أسرة الطرطوشى ، فإن والده كان عالما من المشتغلين بالعلم ، ولذلك وجه ابنه هذه الوجهة ، وأن أسرة الطرطوشى كانت على شيء من الثراء ، ولذلك استطاع الطرطوشى أن يعيش في وطنه حتى الخامسة والعشرين من عمره ، وهو عالة على أهله يطلب العلم ، وهم يكفونه . واستطاع قبل خروجه للرحلة أن يزود بنفحة وفيرة . »

وقد بدأ الإمام الطرطوشى رحلة العلم في مسجد طرطوشه الكبير .

وفي رحاب العلامة « أبى الوليد الباجى » ، تلقى عنه الكثير ، وخاصة في مسائل الخلاف ، ولزمه أعواما طويلة خلال إقامته بسرقسطه .. حتى ان « الطرطوشى » تأثر في تفكيره وفلسفته الكلامية ، بفكر هذا القطب الكبير . كما تأثر أيضا بتفكير صنوه وقرينه في غزارة الفقه ومسائل الخلاف والفرق العلامة « ابن حزم الاندلسى القرطبى » . وفضلا عن ذلك ، فقد شهد « الطرطوشى » في شبابه أحداث دول الطوائف في الاندلس . خاصة مملكة سرقسطه .. عن كتب ، وهى التى أملت عليه الكثير من نظرياته في السياسة والاجتماع .

يقول « الطرطوشى » في « سراج الملوك » .. أشهر مؤلفاته ، إنه لما أراد الرحيل الى المشرق لطلب العلم ، كان شديد الخوف على نفسه لجهله بالتجارة أو بأية حرفة .. لكنه في الواقع ذهب ومعه ما هو أهم : دعم مادى من أسرته وكنز من العلوم في رأسه .. رحل « الطرطوشى » ، وهو شاب يافع في حوالى الخامسة والعشرين من عمره ، في ٤٧٦ هـ . رحل أولا الى « مكة المكرمة » ، حيث قام بأداء فريضة الحج ، وحيث استقر بها بعض الوقت ، يلقى فيها بعض الدروس ، ويستفيد مما يلقى من دروس .. ولاشك أنه كان قد مر على « الاسكندرية » في بداية رحلته .. لكن مؤرخيه لم يذكروا شيئا عن مروره الاول .

ومن « مكة » قصد « بغداد » .. و« بغداد » في ذلك الوقت كانت مزبحة بالفقهاء والعلماء وتنبض بالنشاط العلمي .. حيث كانت هناك المدرسة « النظامية » نسبة لنظام الملك . وهذه المدرسة كانت بمثابة قلب الحركة العلمية هناك . وقد درس « الطرطوشي » في « بغداد » على أبى بكر محمد بن أحمد الشاشى ، وأبى أحمد الجرجانى ، وأبى سعد بن المتبولى .. وهم يؤمنذ أئمة الفقه الشافعى ..

وفي « بغداد » كذلك ، اتجه « الطرطوشي » الى التصوف .. حيث كان الفكر الصوفى متأصلا على يد أقطابه .. وقد درس التصوف هناك ، وتبغ فيه ، حتى عده من كتبوا عنه واحدا من المتصوفة الزاهدين .. وقد حفظ شعرا صوفيا كثيرا موجود أغلبه في كتابه « سراج الملوك » .

ومن « بغداد » .. بعد أن أتم « الطرطوشي » زاده من الدراسة ، وكون لنفسه رؤية خاصة به تقوم على الزهد ، والسعى للامر بالمعروف والنهي عن المنكر .. ذهب الى البصرة ، حيث نهل من علم « أبى على القسبرى » .. ثم رحل الى الشام ليستوطنها فترة .. حيث عاش هناك بعلمه الغزير وحلقاته التى زادت .. واشتهر بورعه وزهده ، لدرجة أنه كان - كما يقول أحد مؤرخيه - « يأكل على شقف من الفخار ، ويخام على التراب » . ومن جبل « لبنان » ذهب الى « بيت المقدس » ، حيث التقى بتلميذه الشيخ السناح ولبث هناك فترة من الوقت .. وشهدت مساجد بيت المقدس دروسه وحلقاته . يقول « ياقوت الحموى » : « سكن الطرطوشي الشام مدة ودرس بها وذاع صيته ، واخذ الناس عنه علما كثيرا » .. وقد ذاع صيته في بيت المقدس ، مما دفع بأهلها الى الذهاب اليه ليزوروه .. وكانت ختام رحلة العلم الى « رشيد » في « الاسكندرية » .

في « الاسكندرية » يستقر الامام « الطرطوشي » ، منذ عام ٤٤٨ الهجرى ... في بداية عهد الوزير الفاطمى « الأفضل شاهنشاه بن الجمالى » ، وهو في نحو الثامنة والثلاثين من عمره . واقبل عليه الطلاب ينهلون من علمه العزيز في الحديث والفقه ومسائل الخلاف ..

ويصف المؤرخون « الاسكندرية » عند قدوم « الطرطوشي » ، أنه وجدها معطلة دينيا ، ما أقيمت فيها صلاة الجمعة بالمسجد منذ فترة طويلة . فثار الامام العالم وهاج . وعرف الناس بوجوده ، فتجمعوا حوله للدرس والصلاة .. حتى أن « الاسكندرية » بدأت تعود الى مكانتها ، وفتحت المدارس على يديه ، وصارت « الاسكندرية » بوجود الامام « الطرطوشي » بها « مدرسة الدين في مصر » .

وفى « الاسكندرية » كذلك يتزوج الامام « الطرطوشى » من اكبر بيوتاتها ، وكانت زوجته خالة تلميذه وخليفة فكره « ابنى الطاهر » .

لكن لم يلبث « الطرطوشى » أن يسافر من الاسكندرية الى القاهرة ، كما يروى فى كتابه « سراج الملوك » ، ليقابل الوزير الفاطمى .. حيث كان « الطرطوشى » قد سمع بما يأتیه « الافضل شاهنشاه بن بدر الجمالى » من ظلم وتعسف مع الرعية . وقد استقبله الوزير الفاطمى استقبالا حسنا ... لكن « الطرطوشى » لم يعبأ بهذا الاستقبال ، وصار يعظ الوزير القوى ، وينصحه بتقوى الله وطاعته ، واقامة العدل ، وقمع الظلم ، والرفق بالرعية .

يقول « ابن خلكان » فى وفيات الاعيان ، ان الطرطوشى دخل على الافضل بن امير الجيوش بمصر ، فبسط تحته مئزرته ، وكان الى جانب الافضل نصرانى ، فوعظ الافضل حتى ابكاه ، ثم انشد يقول :

ياذا الذى طاعته قربه
وحقه مفترض واجب
ان الذى شرفت من اجله
يزعم هذا انه كاذب

واشار « الطرطوشى » الى النصرانى ، فأقام الافضل النصرانى من موضعه وأبعده .

ولقد كان مما قاله « الطرطوشى » للافضل : « اعلم ان الملك الذى اصبحت فيه ، انما صار اليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج عن يدك مثل ما صار اليك ، فانق الله فيما حولك من هذه الامة . فان الله سائلك عن النقيير والقطمير . فافتح الباب ، وسهل الحجاب وانصر المظلوم . اعانك الله على ما قلذك ، وجعلك كهفا للملهورف ، وامانا للخائف » .

والواقع أن الإمام « الطرطوشى » بهذه الجراءة ، حين يذهب الى القاهرة ، والى وزير الدولة الفاطمية لى يلقى اليه بموعظة .. فإنما هذه خير شهادة للرجل على جرأته فى الحق . لقد قال « الطرطوشى » كلمته دون أن يرهب الوزير الفاطمى . ثم يعود الى « الاسكندرية » .

في « الاسكندرية » .. كان جهاد آخر . فقد نشبت بين « الطرطوشي » وبين قاضيه « مكين الدولة بن حديد » ، خصومة شديدة ، بسبب ما كان يثيره الامام من نقد حاد حول تصرفات هذا القاضي ، في شئون الأموال والمكوس والمغازز والمظالم ، وغير ذلك من التصرفات الادارية والقضائية . يضاف الى ذلك ، ما كان يصدره الامام « الطرطوشي » من فتاوى تثير الرأى العام في بعض الشئون ، مثل قوله بتحريم الجبن الذى يأتى به « الروم » الى « الاسكندرية » - وكانت « بالاسكندرية » جالية كبيرة - ومثل حملاته المتكررة على كثير من العادات السائدة في المجتمع السكندرى .. وهو ما كان يصفه الطرطوشي « بالبذع المحرمة » .. !

وهنا يضيق القاضي « بالطرطوشي » وأرائه ، ويبعث في حقه الى وزير الخليفة بالقاهرة بشكاوى وتقارير ، وصفت بأنها « مرة » . وهذه التقارير والشكاوى صورت « الطرطوشي » شخصا خطرا على النظام ، مثيرا للشغب .

وهنا يبادر « الافضل شاهنشاه » ، فيرسل لاستدعاء الامام « الطرطوشي » الى القاهرة سنة ٥١٥ هجرية « ١١٢١ ميلادية » . ويحضر « الطرطوشي » ومعه خادمه الى « الافضل » ، الذى استقبله ولم يسيء معاملته .. لكنه أمر بأن يقيم في مسجد « الرصد » في الفسطاط الى أن يجرى البت في شأنه كما قرر له راتبا شهريا ضئيلا .. هذا يعنى أن « الافضل » حدد إقامة الامام ، أو اعتقاله - بالمفهوم الحديث - لعدة أشهر .

لكن الإمام الثائر .. لم يسكت على الاعتقال المقنع ، ولم يستكن .. فقد اضرب عن الطعام الذى يشتري بنفقة السلطان . وأمر خادمه أن يجمع له شيئا من « المباح في الأرض » ، وظل يتقوت به مدة ثلاثة أيام ..

وتقول المصادر .. إنه بعد صلاة مغرب اليوم الثالث ، وكان ذلك هو اليوم السابق لعيد الفطر ، قال الامام « الطرطوشي » لخادمه : « رميته الساعة » . وكان يقصد بذلك « الافضل » . وتضيف هذه المصادر ، أن « الافضل » مات بالفعل .



نوفاة « الافضل » . كان خلاص « الطرطوشي » من المعتقل الاجبارى في مسجد « الرصد » .. حين أفرج عنه الوزير « المأمون البطائحي » . ويعود الى « الاسكندرية » ، ليستأنف جهده ، ويبدأ حياة الدرس والاقراء كما يبدأ في نفس الوقت بتأليف أشهر كتبه بعنوان « سراج الملوك » .. والذى جاء

حصيلة أحداث شاهدا وعائشها في كل مكان ذهب اليه ، شاهدا وعائشها في
الاندلس في شبابه ، وشاهدا وعائشها في العراق والشام ومصر في نضجه وكهولته .
وهذا الكتاب القيم ، قدمه « الطرطوشي » بعد أن انتهى منه للوزير « المامون
البطائحي » ، الذي خلف « الأفضل شاهنشاه » في الوزارة ، حيث يقول في تقديمته :
« للاجل المامون ، تاج الخلافة ، عز الاسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين . خالصة
المؤمنين . أبى عبد الله محمد الاموى ،

وبعد أن أتم « الطرطوشي » نسخ كتابه ، حمله معه الى القاهرة ، وقدمه بنفسه
الى الوزير ، الذى استقبله وأسبغ عليه احترامه وعطفه ورعايته .

والكتاب عن فن السياسة والحكم ، من وجهة نظر « الطرطوشي » .. العالم
والفقيه والامام . والهدف من تقديمه للمامون البطائحي ، الذى اعجب به
« الطرطوشي » .. لكى يعيد النظر في أسلوب الحكم وتقاليده ..

ويقال ، إن « المامون البطائحي » استعمل مع الامام أسلوب الدهاء والسياسة
وجلس بين يديه كالتلميذ .. بينما راح « الطرطوشي » يشرح له ، وينتقده ، ويتحدث
معه شارحا وجهة نظره في بعض المسائل والشئون المخالفة للشرع في نظره ، والتي
ضمنها كتابه .

وبعد شهرين قضاهما الامام « الطرطوشي » في بلاط الوزير « البطائحي » يحضر
جلساته مع وزرائه ورجال الدولة ... سافر الى الاسكندرية ، لكنه قبل السفر طلب من
« البطائحي » أن يبنى مسجداً كبيراً « بالاسكندرية » . وقد وافق « البطائحي »
على بنائه من ماله الخاص ، وفي فترة وجيزة . وقد بنى المسجد فعلا ، لكنه لا يوجد له
أثر الآن في الاسكندرية ، في منطقة باب البحر التى قيل انه بنى فيها .

لكن ماذا .. في هذا الكتاب ؟

في مقدمة الكتاب يلخص الطرطوشي محتوياته ، فيقول : انه جمع فيه ما
تنطوى عليه سير الأمم السابقة ، وبالأخص ملوك الطوائف وحكام الدول .
وأنه وجد ذلك في ست من الأمم ، وهم : العرب ، والفرس . والروم . والهند .
والسند . والسند هند . وأنه عمد في ذلك الى استعراض ما الفاه في كتبهم من الحكم
البالغة ، والسير المستحسنة .. بالإضافة الى ما رواه وجمعه من سير الأنبياء ، وأثار

الأولياء ، وبراعة العلماء ، وحكمة الحكماء ، ونوادر الخلفاء ، وما انطوى عليه القرآن الحكيم .

ويفتتح « الطرطوشى » كتابه عن الخصال التى يقوم عليها الملك ، والتى تؤدى الى هدمه ، وعن الخصال المحموده فى السلطان ، والتى تمكن له ملكه ، وتسبغ الكمال عليه ، ثم تلك التى توجب ذمه ، كما يتحدث عما يجب على الرعية اذا جنح السلطان الى الجور ، وعن صحبة السلطان وسيرته مع الجند ، وفى اقتضاء الجباية وانفاق الأموال .

اما عن الخصال المحموده فى السلطان ، فهى كما يراها الطرطوشى : العدل ، والتواضع ، والحزم ، والحذر ، والحلم ، ولين القول . ثم يتحدث « الطرطوشى » عن خير السلطان وشره ، كما يتحدث خلال ذلك عن العقل والدهاء والمكر ، والصفات البشرية من الحلم والجود والشح والبخل والصبر وكتمان السر والشكر . ويتحدث كذلك عن الظلم وسوء عواقبه ، وعن « السعايه » وقبحها ، وعن القصاص وحكمه .. ويقرن بذلك كله أخبار ملوك العجم ، ويورد خلال ذلك بعض الحكم المنتهية .. بالاضافة الى كلام منوع عن الملوك والأنبياء والناس ، وعن الزهد والحكم والوصايا والعظات .

ويعقد « الطرطوشى » جزءا للوزراء وصفاتهم وآدابهم .

ويتحدث عن المشاورة والنصيحة .. وكونهما يعتبران من أسس الملك ، ومن هذا يبدو أن الطرطوشى كان يدعو للشورى ..

ثم يأتى الحديث عن قواعد السلطة ، ويؤيد ذلك بايراد الحكم والاخبار من أقوال الاسكندرية الأكبر ، وأردشير ، وانو شروان وبزر جمهر ..

ويعود للسلطان حيث يتحدث عن خصاله وسيرته مع الجند ، وتصرفاته نحو الأموال والجباية ، والاقطاع ، وسياسة السلطان نحو عماله ... ثم سياسة الخلافة مع الذميين ، وأحكام أهل الذمة ، والجزية وأحكامها ، والقضاة والعمال ، والحرب وتدبيرها . ثم يختتم الكتاب بالحديث عن أخبار ملوك العجم وحكم حكمائهم .

فى كتاب « سراج الملوك » القيم .. واضح أن « الطرطوشى » قد حاول علاج ما اصطلح العلماء على تسميته بسياسة الملك ، أو سياسة الملكية والسلطانية . وقد كان

الطرطوشى ، واثقا من قيمة الكتاب ، حتى انه ذكر في مقدمته انه « كتاب لم تسبق الى مثله أقلام العلماء » .

لكن أستاذنا محمد عبد الله عنان ، يرى أنه مع قيمة هذا الكتاب في وقته ، فإن موضوعه قد عالجه من قبل « الطرطوشى » أكثر من مفكر مسلم .. مثل « ابن قتيبة » المتوفى عام ٣٣٦ هـ في كتابه « عيون الاخبار » . كما عالج هذا الموضوع أيضا جماعة « أخوان الصفا » في أواسط القرن الرابع الهجرى في بحوثهم المتعلقة بالسياسة . كما عالجه أيضا « أبو الحسن المارودى » في كتابه « الاحكام السلطانية » ، وفي رسالته عن « الوزارة وسياسة الملك » .

على أنه للحقيقة والتاريخ ، ولكى لانظلم الامام ، فانه يمتاز على اسلافه بالتوسع والإفاضة ، وبأنه طرق بعض الابواب التى لم تطرق من قبل .

والحقيقة ، فإن كتاب « سراج الملوك » يعتبر أكبر مؤلف من نوعه ، من حيث ضخامة مادته ، وتنوع موضوعاته وثرائها ، والصفة الدينية تغلب على أسلوب المؤلف ، وليست الصفة الفقهية .. التى تغلب مثلا على بحوث « الماوردى » في أحكامه السلطانية . كما أن « الطرطوشى » رغم قيمة الكتاب ينحوفيه نحو الوعظ ، ويتضمن كثيرا من الحكم والاحاديث والاقوال الماثورة .. كما أن الكتاب ينقصه الربط والتنظيم والتنسيق ، فهو يورد موضوعاته مستقلة متباعدة ، بحيث تغرق فيها ، وربما قد تختلط عليك الأمور .

ومع ذلك ، بل رغم ذلك ، فالامام « الطرطوشى » قد ذهب في « سراج الملوك » الى أفاق جديدة ، لم يطرقها من سبقوه في موضوع السياسة الملكية أو السلطانية فهو قد حاول في بعض نظراته أن يستقرئ أحداث عصره . وخواصه ، وأن يستخرج منها المبادئ الاجتماعية .. على غرار ما فعله « عبد الرحمن بن خلدون » من بعده ، حيث جعل من المجتمع كله ، ومن تاريخه .. مادة لتأملاته .

إن « ابن خلدون » يشهد له بذلك ، ويقول .. ان الطرطوشى كاد يطرق نفس موضوعه ، وأنه قد « حوم » في كتابه - سراج الملوك - وبوبه على ابواب تقترب من ابواب كتابه ومسائله لكنه - وكما يذكر ابن خلدون - « لم يصادف فيه الرمية ، ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ، انما يبوب الباب للمسألة ، ثم يستكثر من الأحاديث والآثار وكأنه حوم على الغرض ، ولم يصادفه ولا تحقق قصيده » .

إن الذى يقارن بين « ابن خلدون » والامام « الطرطوشى » فى « سراج الملوك » .. أن « ابن خلدون » قد عالج بعض الموضوعات فى مقدمته ، والتى عالجها قبله « الطرطوشى » فى كتابه ، مثل الدراوين ، ومذاهب الحروب وعواقب الظلم ، واستظهار صاحب الدولة بالموالى والمصطفين ، وشئون الجبابة والمكوس .. وغيرها ، ولكن « الطرطوشى » ينحى منحى آخر فى العرض ويختلف عن « ابن خلدون » حيث لا نجد فى « سراج الملوك » بلورة المذهب الاجتماعى المبتكر ، والذى يسيطر عليه ويتميز به .

ويبدو أن ذلك ، قد جاء من تأثر « الطرطوشى » فى عرض نظراته - الاجتماعية خصوصاً - بما شاهده فى « الأندلس » .. وقد قضى شطراً من شبابه فى مملكة « سرقسطة » وهى إحدى دول الطوائف فى ظل « بنى هود » وشهد عن كتب أساليب ملوك الطوائف فى تدعيم سلطانهم ، وحشد جيوشهم وانفاق أموالهم .

على أنه من أبرز نظريات « الطرطوشى » فى ذلك أن قوة الدولة الحامية أو كما يقول عصبية الدولة - تقوم على الجند ، قبل المال ، وأنه يجب أن ينفق على الاستكثار من الجند ، وأن خير ما يدعم هذه العصبية « هم الجند ، أهل العطاء المفروض مع الأهله » .. أى الجند الذين يتناولون رواتبهم كل شهر .

ويعارض « ابن خلدون » هذه النظرة أو النظرية ، ويقول إنها لا تنطبق على الدولة فى أولها ، وإنما « تنطبق على الدولة فى نهاية عهدها ، بعد التمهيد ، واستقرار الملك وأحكام الصبغة » .. « فالطرطوشى » قد أدرك « الدولة اليهودية » - مملكة سرقسطة - عند هرمها ، ورجوعها « الى الاستظهار بالموالى والصنائع ، ثم الى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة ،

والظاهر - كما يقول الأستاذ « عبد الله عنان » ، إن الطرطوشى قد تأثر تأثراً شديداً بما شاهده من اعتماد « بنى هود » فى حماية ملكهم على الجند النصارى ، ولا سيما أيام السيد « الكمبيادور » ، وسعيهم الى شراء هذه المعونة بالمال أينما استطاعوا ، منذ ابتداء دولتهم حتى نهايتها .. وقد كان ذلك فى نفس الوقت شأن ملوك الطوائف الآخرين ، والذين ظهروا عند اختلال الدولة الأموية فى الأندلس ، وانقراض عصبيتها من العنصر العربى .

و « للطرطوشى » نظرة أو نظرية تقول أيضاً : إن بيت رجال خير من بيت مال . - فقد كان يرى أن من أسباب ضعف المسلمين بالأندلس ، هو اهتمام ملوكهم

بجمع المال وعدم انفاقه على اعداد الجند .. « فالدفاع في الرجال ، لاني المال ، وإنما يدفع بالاموال بواسطة الرجال »

ولقد تأثر « الطرطوشي » في هذه النظرة ، بما شهدته من شدة اهتمام ملوك الطوائف بجمع الاموال من الرعايا ، وانفاقه قبل كل شيء على حياتهم المترفة وعلى قصورهم الفخمة ، وعلى اقتناء الغلمان والجواري .. وإهمال قضية الامن القومي ، والدفاع القومي بمفهوم العصر الحديث . ثم الاستعانة عند الضرورة بالمرتزقة من النصارى . وهؤلاء المرتزقة كانوا يحشدون في غالب الاحيان لتحقيق الاعمال العدوانية ، ومباشرة الحروب الاهلية .. التي كان ينزلق اليها ملوك الطوائف باستمرار ، والتي كانت كذلك من أسباب ضعفهم كما يرى المؤرخون في وجه العدو المشترك .. اسبانيا النصرانية ، ومحاولة التعاون على كبج جماحها ، وعدوانها وأطماعها في انتزاع أرض المسلمين واستئصال عنصرهم .

وبالنسبة لانفاق المال العام ، فان « للطرطوشي » نظرية قيمة في هذا الصدد حيث يعتبر انفاق المال العام في سبيل العلم من « دعائم » الملك والدولة ويورد الامام « الطرطوشي » قصة الوزير « نظام الملك » مع ملكه « ابي الفتح بن الب » ارسلان ، ملك الترك . فحين احتج الملك لضخامة ما ينفقه الوزير من أموال على دور العلم والعلماء وأهل الصلاح والفقراء - أى الصوفية - وأنه كان من الأفضل لو أنفقت هذه الاموال على جيش يوجه لفتح القسطنطينية .. أجاب نظام الملك : بأنه ينفق هذه الاموال على « جيش » أيضا ولكنه « جيش الليل » . وأن هذا الجيش ، متى نامت جيوش الملك الحربية ، يقوم بين يدي ربه ، حيث يرسل جنود الليل دموعهم ، ويطلقون السننهم بالدعاء للملك وجيشه النظامي . وأن الجيوش السلطانية ، إنما تعيش في خفارة هذا الجيش الروحي ، وتبيت بدعائه ، وترزق وتنصر ببركاته . ويقال إن السلطان « ابا الفتح » حين سمع ذلك الوزير بكى بكاء شديدا ، وطلب اليه أن يكثر من هذا الجيش الروحي ، جيش الليل .

و « للطرطوشي » نظرية شهيرة هي نظرية العدل ، التي يؤمن بها كعالم وكإمام ورجل مسلم ، فهو يقول في « سراج الملوك » :

« بالحاكم العادل تصلح البلاد والعباد ، وبالسultan الجائر تفسد البلاد والعباد .
وذلك أن السلطان اذا عدل انتشر العدل في رعيته فأقاموا الوزن بالقسط ، وتعاطوا الحق
فيما بينهم . واذا جار السلطان ، انتشر الجور وعم العباد ، فرقت أديانهم ، ثم فشيت فيهم
المعاصي ، وذهبت امانتهم فضعفت النفوس ، وقنطت القلوب ، فمنعوا الحقوق وتعاطوا
الباطل ، فرفعت منهم البركة . ونزل الوباء » .

كما يقول الامام « الطرطوشي » ايضا :

« ينبغي ان تعلم ان عمارة الدنيا وخرابها من الملوك ، فاذا كان السلطان عادلا عمرت
الدنيا .. واذا كان جائرا خربت الدنيا » .

والواقع ان الامام « الطرطوشي » .. في حقيقة امره ، كان اماما مسلما مجتهدا
ورائدا ..

على أن معظم ما قاله في الاجتماع .. وان كان سابقا فيه ، فان الذي يأخذه عليه
ناقدوه .. ان نظراته وتطبيقاته تقف عند احداث وطنه .. الاندلس ، وعند احداث ممالك
الطوائف بالذات ، التي عاصرها في أواخر عهدها ، والتي كانت مملكة سرقسطة وطنه
الاصلي نموذجا بارزا من نماذجها .

يجمع المؤرخون والكتاب ، ان الإمام « الطرطوشي » قد بلغ في عصره ، مرتبة الامامة .
كفقيه وعالم يرجع اليه في الملمات .. ويدللون على ذلك ، بأن عاهل دولة المرابطين « يوسف
بن تاشفين » قد طلب رأيه وفتواه - الى جانب الامام « الغزالي » - في اخطر شئونه
السياسية والعسكرية .. ومن ذلك مشروعه لخلع ملوك الطوائف ، وغزو ممالكهم ،
باعتبارهم خارجين على احكام الشريعة الاسلامية ..

وقد ايد الامام « الطرطوشي » ما ارتآه « يوسف بن تاشفين » ، واصدر فتوى
بذلك ، وعلى أثرها ومن خلالها نفذ « ابن تاشفين » مشروعه بغزو ممالك الطوائف ،
واستولى على الاندلس لضمها الى ملكه . وقال « الطرطوشي » : اذا عرض لك امران ، امر
دنيا وامر اخرى ، فبادر بامر الاخرى ، يحصل لك امر الدنيا والاخرى معا .

لقد تولى الامام « الطرطوشى » فى الاسكندرية ، فى السادس والعشرين من جمادى الاولى سنة ٥٢٠ هجرية ، ١١٢٧ الميلادية ، فى التاسعة والستين من عمره ، وقيل فى السبعين .. كما يرى ذلك صاحب « النجوم الزاهرة » .

ان حياة الاستقرار - بعد طول سفرو وترحال فى عالم الاسلام - هيات له فرصة الكتابة والتأليف فى جميع فروع العلم . فبالاضافة الى كتاباته فى « سراج الملوك » من علم السياسة وفن الحكم والمجتمع واحواله .. فان مؤلفاته قد بلغت - كما قيل - حوالى ٢٢ كتابا ، منها رسالته الى « ابن تاشفين » من شرعية غزى ملوك الطوائف . ثم كتاب قيم من خمسة اجزاء بعنوان « الكتاب الكبير فى مسائل الخلاف » .. و « شرح لرسالة ابي زيد القيروانى » .. وكتاب « بر الوالدين » .. و « رسالة تحريم الغذاء على الصوفية » .. ورسالة اخرى فى « تحريم الجبن الرومى » .. و « كتاب الفتن » ، وكتاب « الحوادث والبدع » .. و « معارضة احياء علوم الدين للغزالي » .

وقضلا عن ذلك ، فان كتبه ، خاصة « سراج الملوك » مملوءة بالشعر الصوفى الجيد . فقد كان الامام « الطرطوشى » شاعرا واديبا ، كما كان باحثا ومؤرخا .. ومن شعره الصوفى يقول :

اقرب طرفى فى السماء ترددا
لعل ارى النجم الذى انت تنظر
واستعرض الركبان من كل جهة
لعل يمن شم عرفك اظفر
واستقبل الارواح عند هبوبها
لعل نسيم الريح عنك يخبر
والمح من القاه من غير حاجة
عسى لمحة من نور وجهك تسفر

بالاضافة الى ذلك فللامام « الطرطوشى » الكثير من الشعر فى النقد الاجتماعى ، وهو شعر جيد استخدمه الامام المسلم سلاحا فى محاربة الفساد والرشوة .. ومن ذلك قوله :

اذا كنت فى حاجة مرسلا
وانت بانجازها مغرم
فارسل باكمه خلافة
به صمم اغطش ايكم

ودع عنك كل رسول سوى رسول يقال له الدرهم

هذه هي حياة الامام « الطرطوشي » ، العالم المسلم الصوفي .. وهي حياة ثرية قلقة ، تأثرة في سبيل الله ، وفي سبيل المثل العليا ..

« الطرطوشي » الذي قال للوزير : « ايها الامير ، افتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم » .. « الطرطوشي » الذي كان « قوالا للحق مدافعا عنه » .. ولا يخاف في الله لومة لائم .

لقد ربي مدرسة .. وتلاميذه كانوا اعلاما من بعده ، ومنهم سيدي « سند بن عنان بن ابراهيم » الذي تولى مهمة التدريس من بعد موت استاذة .. وسيدي « ابي الظاهر بن عوف » الذي صار شيخا للمالكية في القرن السادس الهجري .. والذي يصل نسبه الى « عبد الله بن عوف » الصحابي الجليل .

ومن تلامذته ايضا « المهدي بن تومرت » في المغرب العربي ، و« ابوبكر ابن العربي » في بيت المقدس ، والشيخ « عبد الله السائح » في جبل لبنان . لقد صدق ابن فرجون حين وصف الطرطوشي بقوله :

« الذي عند ابي بكر الطرطوشي من العلم هو الذي عند الناس .. والذي عنده مما ليس عند غيره دينه » .

لكن نصير المظلومين .. ظل هو مظلوما .. ومن بين من ظلمه نحن المفكرين فان اعمال « الطرطوشي » التي كتبها غائبة عن المكتبة العربية ، اللهم الا كتابه « سراج الملوك » .. لم نتعب انفسنا في البحث عنها وجمعها واعادة طبعها . كما ان وزارة الاوقاف في مصر ظلمت « الطرطوشي » ايضا ..

مسجد « الطرطوشي » بدون قبة أو منئذنة ، وهو لا يليق بعالم صوفي مسلم ملا الدنيا في حياته وشغل الناس .. الحكام قبل الرعية ..

وسيدي « الطرطوشي » مدفون في مقبرة .. وحوله مجموعة من اولياء الله الصالحين .. ومنهم سيدي محمد العقباوي ، وسيدي محمد الاسعد ، وغيرهما كثير . مما

تدل عليه تلك الشواهد الرخامية ، المكتوبة بالخط الكوفي ، والتي تحتاج لمن يزيل عنها النقاب ويقرأ سطورها وكلماتها ليبرزها .

وضريح « الطرطوشي » من الصعب ان نجده في « الاسكندرية » الا بعد عناء وطول سؤال .. متعب في البحث والوصول اليه .. وهو في باب الكراسته بمنطقة الجمرك .. وليس في الضريح من القديم سوى عمودين من الطراز الكورينثي ، ومقصورة خشبية .. كما انه ليس على الضريح كسوة كما هي الحال في اضرحة اولياء الله الصالحين .

والمسجد والضريح في حارة مسدودة جانبية وقد اغلق لانه آيل للسقوط كما هو واضح في ملفه .. ولكنه يفتح بين الفينة والأخرى .

يقول علي باشا مبارك : إنه كان بالاسكندرية ٤٩ جامعا ، ومن الزوايا ٩٧ زاوية ، منها ما فيه ضريح ولي ، ومنها ما هو خال من ذلك .. كان هذا في عصر « علي مبارك » ، حينما ألف « الخطط القوفية » في القرن التاسع عشر ..

ويصف صاحب الخطط مسجد « الطرطوشي » ، بأنه « كان متخربا ، فأصلحه المرحوم السيد ابراهيم مورو سنة ١٢٧٠ هـ . وقد تمت اصلاحه المرحومة والددة الجنب الخديو ، وهو الآن تقام فيه الشعائر » ..

لكن يبدو انه بعد ذلك نسي الناس انه كان هناك في الاسكندرية مسجد « للطرطوشي » .. الرجل الذي دافع عن المظلومين !

أعلام
التصوف
الاسلامي

سلسلة محمّد القباري

فلسفة الحلال والحرام
من داخل بستان

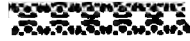


●● هذا الولي الزاهد ، من أولياء الله الصالحين .. من المفيد جدا ان نلقى بعض الاضواء على حياته الثرية البسيطة .. في هذا العصر الذي نعيش نحن فيه الان .. وهو عصر تحولات كبرى في حياة المؤمنين الصالحين ..

فمصر ولي الله القبارى ، يتشابه الى حد كبير مع عصرنا نحن .. حيث القابض على دينه مثل القابض على جمرة من نار . هو عصر الحروب والازمات .

وفي عصر القبارى ، الذى شهد جانبا من حكم دولة الايوبيين وجانبا آخر من حكم دولة المماليك .. اجتاحت مصر المحروسة بعناية الله اعاصير وكوارث وحروب ، وتكالب عليها جند التتار والصليبيين ، وتفتشت فيها الاوبئة .. لكن مصر خرجت منصورا على اعدائها .. كما خرجت مصر والعرب منصورا في رمضان ١٣٩٣ الهجرى ١٩٧٣ الميلادى .

ان القبارى عاش في ذلك العصر نموذجا للمسلم ، الذى لا تهز كيانه الازمات .. عاش بالايمان والزهد .. ماذا يفعل المسلم عند الكوارث والازمات ، وكيف يتصرف مع نفسه ومع الناس ؟



رغم ان الباحثين والكتاب .. وارباب البحوث مازالوا يختلفون على تفسير اسم « القبارى » .. او « الكبارى » .. كما قد يسمى هل هذا من الثمار ام القبر .. فإن حى « القبارى » في « الاسكندرية » ، الذى بقى يحمل هذا الاسم منذ قرن ظل حيا روحانيا .. تموج فيه الحياة والناس تباركا بولي الله الزاهد العابد .. الذى انشأ هذا الحى من صحراء وجفاف .. حتى أنه لزم من قصير كان حى تجارة الصادرات من زراعة مصر .

فبعد منتصف القرن التاسع عشر - كما يذكر « على باشا مبارك » في خطته ، بدأت المنطقة المحيطة بقبة سيدى « محمد القبارى » ، تعمر ، وتنمو .. حتى امتد العمار من « مريوط » ، إلى ساحل البحر . ومن خلال هذا العمار اسست في المنطقة اكبر محطة للسكك الحديدية في الاسكندرية ، كما انشئت فيها أول وأقدم مدرسة للمعلمات ، وكانت أول ناظرة لها الرائدة « نبوية موسى » .. يضاف إلى ذلك ، أن المنطقة شهدت أقدم مجزر في الاسكندرية وأقدم المستشفيات الحديثة ، التى أقيمت في مكان

كان اصطبلا لخيول «سعيد باشا» ... ثم إن منطقة «مينا البصل» كانت من معالم
حي «القبارى» .. الذى يحمل اسم هذا الولي الكبير .

وقبل عام ١٨٤٨ .. الذى بدأت تعمر فيه منطقة «القبارى» ، كما يرى «على
باشا مبارك» .. ظلت البقعة منذ حياة «القبارى» بساتين مزروعة وخضرة وارفة
الظلال .

ولقد بدأها ولي الله «القبارى» ، منذ ٨٠٠ ، وبدأ يعمل فيها ، فحلت البركة .
ولقد بدأت تنمو فلسفته مع نضج ثمار بستانه أو «غيطه» .. بنخيله وزراعاته ..
بحيث شاهد «غيط» «القبارى» حياة ثرية وخصبة لنموذج انسان مسلم ، توفر على
عبادة الله ، وتهجد في مرضاته .. فكان له الفلاح .

ونقول «بستان القبارى» .. أو «غيطه» لأنه كان له دور كبير في حياة هذا
الولي الزاهد العابد .. فإن حياته كلها دارت ملامحها حول هذا البستان . لقد ملك عليه
هذا البستان نفسه وتصرفاته ، وكان مصدرا لأفكاره وتشبيهاته ، والمحور الاساسى
لأحاديثه ، والحكم التى نطق بها .. وفلسفته .. حتى أن «القبارى» قلما كانت تخلو
عباراته من محتويات البستان .. نخلة أو دابة ، أو زهرة ، أو سقاية .. أو .. .

* * *

اسم ولي الله الزاهد المتصوف ، والذى أجمعت عليه المصادر ، هو أبو القاسم
محمد بن منصور بن يحيى القبارى .. أو «الكبارى» كما هو مكتوب على كسوة
ضريحه . وهو سكندرى ، أى من مواليد الاسكندرية ، عاش فيها أجداده كما كان
مالكى المذهب . وهو كما حقق الاستاذ محمد محمود زيتون في كتابه بعنوان «القبارى
زاهد الاسكندرية» من أجداد سكندريين لكن من أين جاءت تسمية «القبارى» ؟
يقول محمد زيتون : أما القبارى ، فلم نسمع من قبله أو من بعده ، أحدا من
أرباب الثقافة قد تسمى بهذا الاسم ، لافى مصر ولا فى غيرها . فهو المتفرد بهذه
التسمية دون سواه . ومن العجب أن ابن المنير صاحب ترجمة القبارى ، قد ذكره
فقال له «الكبارى» بالكاف دون القاف . وفى موضع آخر يقول صاحب الترجمة عن
القبارى ، انه كما يقول على سبيل المباشطة : ابتليت ببضاعة لها زبون واحد ، يشير الى
«الكبار» .. لأنه كان لا يعامل أهله ، وكانوا عددا قليلا ، وكان يختار واحدا منهم
لعاملته ، ويجعله سمسار نفسه ، ويعطيه أجرة السمسرة ، ويسامحه فى الثمن عند
الوزن على عادته ، ويقول : هذه صدقات مستترة .

واسم « القبارى » ، كما يقول « رمضان حلاوة » ، أورده صاحب القاموس في القاف ، ولم يبين نسبه ، وكذا الشمنى في الكاف أيضا .

وأغلب الظن أن « القبارى » نسبة إلى القبار ، وهو ثمرة كانت تعرف في عصر « القبارى » حتى لقد ورد اسمها مرارا في « ابن المنير » ، إذ يقول عن شيخه القبارى .. « وذلك أنه انقطع .. باع الدابة التي من شأنه قنيتها ، وضم ثمنها الى ثمن ثمرة القبار ، ففاق ذلك على ثمانمائة درهم فزكاها » .

ومما يذكر أن الدكتور « بوتي » أمين المتحف اليونانى الرومانى السابق بالاسكندرية ، حاول أن يجد علاقة بين « القبارى » و « القبور » ، فلم يصل الى شيء ذى بال .

ويقول « محمد محمود زيتون » ، إنه خلال تأليفه كتابه عن « القبارى » ، عثر على أحد اجداد هذا الولي عند السلفى في معجمه .. واطلع على سيرته وخصاله .. حيث كان من أهل الورع ، وكان لا يشرب اللبن ، ولا يأكل الجبن ولا من اللحم الا الطير الذى يصطاده بنفسه ، يأكل من « القبار » المباح . وأن هذه الخصال انتقلت الى الامام القبارى بالوراثة ، وزاد عليها الامام فضيلة الاحتياط والتحرز في طلب الحلال .. ويتأكد ذلك إذا عرف أنه كان في « الاسكندرية » من المعاصرين « للقبارى » ، جده الأعلى ، وكان زاهدا كبيرا هو « عليان الزغبى العامرى » المتوفى عام ٥١٤ هـ وله مواقف مشابهة للإمام « القبارى » في الحلال والحرام .

ولقد ولد « القبارى » ، كما يقول تلميذه « ابن المنير » عام ٥٨٧ الهجرى ، وتوفى في السادس من شعبان سنة ٦٦٢ هجرية .. كما أكد ذلك « أبو شامة » في كتابه « الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين » .. حين أخبره بذلك الشيخ القاضى « عبد الجليل بن خليل » ، الذى يبدو أنه عاصر فترة موت « القبارى » وهذا يعنى أن ولي الله « القبارى » عاش حوالى ٧٥ عاما .. لكنه على أية حال بحياته الثرية الخصبة ، وبورعه وزهده وتقواه سيظل يعيش في الوجدان المؤمن نموذجا يحتذى .. إلى أن يرث الله الارض ومن عليها .. بعد أن سلكه بعض مؤرخى التصوف في تراجمهم .

وحين نقول إن « القبارى » ، وقد ولد في نهاية القرن السادس الهجرى ، فلقد طلع القرن السابع الهجرى على « القبارى » وهو صبى لاتزيد سنه على الثالثة عشرة .

وهو بذلك قد ولد قبل وفاة « صلاح الدين الايوبي » بعامين اثنين .. ليظل « القبارى » علما من أعلام القرن السابع الهجرى ، الحافل بجلال الأعمال .

وحول وفاة هذا الولي الكبير ، يقول ابن عزم فى مخطوطه « دستور الاعلام بمعارف الاعلام » عن سيدى محمد القبارى : « هو مدفون بظاهر الاسكندرية مشهور ، مقامه يقصد للبركات » .. وهذا يعنى ان الالوف الكثيرة التى تزور ضريح « القبارى » ، وتحفل بمولده كل عام فى شهر شعبان .. تأتى وفى وجدانها أن هذا المكان مبارك بإذن الله .. لأن المدفون فيه كانت حياته جهادا ، وكان سلوكه مراعاة لشرع الله .. وكان علما من الأعلام السكندريين معاصرا لكثير من علماء الاسلام الذين شاهدتهم تاريخ هذا الثغر ومنهم ابن المنير تلميذه والامام الشاطبى الاندلسى ، وابن الحاجب ، وابوشامة ، والعز بن عبد السلام والامام الشاذلى ، والامام ابو العباس المرسى ، وسبط بن الجوزى ، ومنصور بن سليم الهمدانى محتسب الاسكندرية ومؤرخها الشهير .

يقول الياقعى صاحب « مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان » : وفيها .. أى الإسكندرية .. توفى القبارى ، أبو القاسم بن محمد المنصور الاسكندرانى . كما يقول سبط بن الجوزى فى « صفوة الصفوة » عندما زار الاسكندرية عام ٦٤١ الهجرى ، فى عهد سلطان مصر الملك الصالح نجم الدين بن ايوب : الاسكندرية معمرة بالاولياء ، كالشيخ محمد القبارى والشاطبى وابن أبى شامة .. و « ابو شامة » هذا المؤرخ الدمشقى ، هو صاحب « كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين » كما ذكرنا ، وكان قد زار الاسكندرية ، وقابل سيدى « محمد القبارى » ، وكتب عنه فى كتابه « الذيل على الروضتين » .

والواقع أنه رغم أن سيدى « محمد القبارى » شاهد الكثير من أعلام عصره الذين وقفوا بباب بستانه ، كما أن عصره حفل بالكثير من الأحداث .. فإنه للأسف لم يكتب عنه الكثير ، مما يلقى بالأضواء الكاشفة على دقائق حياته .. سوى شذرات قليلة فى كتب معاصريه ، أو من جاء بعدهم ، واهتموا بتاريخ وسير أولياء الله فى الإسكندرية .

ولقد كان من الممكن أن يظل سيدى « محمد القبارى » مشهدا وضريحا ومسجدا يزار بالورثة .. دون أن يعرف عنه الكثير .. لولا أن تلميذه المخلص ، الذى

عائشه طويلا .. « ناصر الدين بن المنير » ، قاضى الاسكندرية قد وضع عنه كتابا وحيدا سماه « هذا كتاب مقامات سيدى ابو القاسم بن منصور بن يحيى المالكي الاسكندري المعروف بالقبارى المتوفى في شعبان سنة ٦٦٢ هجرية » .. لكن هذا الكتاب لم يتم العثور عليه حتى الآن .. وقد شاعت العناية الإلهية أن يقوم « احمد بن عبد الكريم حمزة » باختصار كتاب « ناصر الدين بن المنير » على أن ملخص ابن حمزة لم يكن يفي بالغرض ، فلقد ختمه بقوله : « هذا ما امكنتى نسخه ونقله من النسخة التى وصلت إلى ، وذلك في حادى عشر شوال عام ثمانية وثلاثمائة والف ، وإن يسر لى المولى الحصول على نسخة صحيحة انقلها بالتمام والحمد لله على كل حال .. » وهذا الملخص قد قام بنسخه « حسين بن محمد بن رجب احمد بن السكندري المالكي » . وهذا الملخص ينتهى بقصيدتين للشيخ عبد الغنى النابلسى فى التصوف والعشق الالهى ، رغم أنهما ليس فيهما ذكر « للقبارى » ، وإن كانا يدلان على تصوف « القبارى » . ومطلع القصيدة الاولى :

وجود كونى من تجلى الجواد

هذا عطاء ما له من نفاذ

والقصيدة الاخرى مطلعها :

ما الغير الا بابيه المفلق

وكننا مفعوله المطلق

وهذه المخطوطة التى توجد فى مكتبة الاسكندرية كذلك تبدأ بالآتى :

« الحمد لله الولى الحميد ، المبدىء المعيد .. الفعال لما يريد » ..

وبعد فيقول الفقير الى ذى العظمة والعزة أحمد بن حسن بن عبد الكريم حمزة الشاذلى السكندري ، وقاه الله من كل باغ ومفتر : قد كلفت قبل التكليف بحب الصالحين ، وشغفت من حين انشئت بالبحث عن أخبار المتقدمين ، سيما من توارت شمس جمالهم بثرى الاسكندرية . وكان اكثر ما يجول بأفكارى الوقوف على أخبار سيدى أبى القاسم منصور القبارى . لأنهلقى حبه فى قلبى ، وفى أغلب الاوقات أزوره وأتوسل به الى ربه وربى .. »

على أن الجدير بالذكر ، ان المخطوط الاصل « لابن المنير » ، الذى وصلنا ملخصه يأتى على أنه « مقامات » .. وكلمة « مقامات » تلفت المهتمين بالتصوف والمتصوفة ، فهى أحد مصطلحاتهم ، إذ لكل قطب من أقطاب الصوفية أحوال

ومقامات عرف بها .. والمقامات على العموم عند الصوفية ، هي الفضائل المكتسبة التي ينتهي اليها صاحبها بعد ممارسة ومجاهدة للنفس ، وقد تصل به هذه الفضائل الى حد كبير من الرضا عن الله ، فيكون عند حال « كن » .. أى كلما طلب شيئاً من ربه استجاب له ، وذلك مما يوحى به الحديث القدسي عن رب العالمين « عبادي اطعني اجعلك ربانيا ، تقول للشيء كن فيكون »

ومن هنا وكما يقول الاستاذ « زيتون » يتبين للقارىء ، ان القاضى ابن المنير حين سمى كتابه بالمقامات .. كان موفقا في اختياره . وهى كلمة لها دلالتها وأحقيتها .. رغم ان ماعند القبارى ، ليس هو الذى عند الحلاج مثلا ، أو رابعة العدوية ، أو محبى الدين بن عربى ، أو ابن الفارض ، أو التستري .. وهو من غلاة الصوفية .. وممن وضعت عنهم المؤلفات لتفسير مضامين ماورد عنهم .

كان سيدى « محمد القبارى » رضى الله عنه وأرضاه ، صالحا قانتا ، منقطع القرين فى الورع . وكان له بستان يعمله ويتبلغ منه ، وله ترجمة مفردة جمعها « ناصر الدين بن المنير » .. هكذا قال عنه صاحب « شذرات الذهب » . وفى « تاج العروس » للشيخ « عبد الرحمن الجبرتي » وصف « القبارى » بأنه « كان زاهد الاسكندرية وامامها »

وزاهد الاسكندرية ، الإمام « القبارى » ، وصفه « ابن كثير » فى « البداية والنهاية » بأنه كان يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويردع الولاة عن الظلم ، فيسمعون منه ويطيعونه لزهده ، بل ان الامام « المناوى » فى « الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية » ، يصف القبارى بقوله : « زاهد اخلص فى العمل ، واجتهد فى قطع الامل ، ومال الى العزلة ، واستعد للرحلة . كان كثير الورع والخضوع ، غزير الاخبار والخشوع ، مبارك الطلعة ، مشهود الذكر بين الصوفية .. يأمر بالمعروف واقتفاء آثاره ، وله بستان يقتات منه ويطعم الناس من ثماره » .

والحقيقة هنا .. ان الامام « المناوى » ، حين يصف الامام « القبارى » بأنه كان مشهود الذكر بين الصوفية .. هنا تطرا الكثير من علامات الاستفهام .. امام من تناولوا سيرته . فالمشهور عن « القبارى » ، انه لم يعرف انه صاحب طريقة .. وان كان له الكثير من المريدين .. وكيف يكون « القبارى » صاحب طريقة وهو من سيرة

حياته كان يتفادى الناس .. وقد عاش في عصره الامام « ابو الحسن الشاذلي » وتلميذه « ابو العباس المرسى » .. ولو كانت « القبارى » طريقة ما اغفلها الناس ، وذكرت عند مؤرخى التصوف - ولربما كانت قد حدثت بين طريقة « القبارى » و« الشاذلية » محاورات .

ان « القبارى » كما يتضح من سيرته ، كان رجلا مؤمنا ، شديد الايمان . وكان عابدا زاهدا .. حتى ان « ابن عزم » في القرن التاسع الهجرى ، يصفه بأنه « الامام الربانى الاوحد » شيخ الوقت زهدا وصلاحا .. كان « القبارى » بحق ، واحدا من اهل الله ، لا افراط ولا تفريط .. وخير الامور عنده الوسط وكان نسيجا وحده .. او دنيا وحدها من الزهد والعفة وعزة النفس بعره الايمان ..

وكما كان « القبارى » مثله الزهد والورع .. كان ايضا يعرفه علماء مصر الكبار ويقدرونه ويجلوونه .. ومن هؤلاء بالطبع شيخ الاسلام « العزبن عبد السلام » وشيخ الاسلام ، معاصره ، « ابن دقيق العيد » .. وغيرهما ... هؤلاء كانوا معجبين بسيرته واخباره ، يتحدثون عن بركاته . وعن مواقفه المشهورة مع السلاطين والامراء وولاتهم على الاسكندرية . بل ان اهل « دمشق » كانوا يعرفون « القبارى » وكانت « مصر » و« الشام » دولة واحدة . والدليل على ذلك ان « ابا شامه » ، يذكر ان خطيب جامع دمشق صلى على القبارى صلاة الجنازة ، عقيب صلاة الجمعة يوم ٧ من رمضان سنة ٦٦٢ هجرية .. اى بعد وفاة « القبارى » بشهر .. لانه - والكلام لابى شامه - « شيخ مشهور بالورع والزهد بالاسكندرية ، وكان يخدم بستانه بنفسه » .

ويرى « ابو شامه » ايضا ان احد الامراء الذين تولوا الاسكندرية اثناء حياة « القبارى » ، حرص على لقاء هذا الولي ، ثانى يوم توليه المنصب .. وحين عاد الامير الى « دمشق » كان يحكى لاهل الشام ماراه وسمعه عن « القبارى » .

ويعلق « محمد محمود زيتون » على ذلك بقوله : رجل كالقبارى يموت بالاسكندرية ويصلون عليه بدمشق ، ويتحدث الامراء والولاة عنه في مصر والشام ، إعجابا وتعجبا من احواله ، ولاشك انه كان من العظمة وبعد الصيت ، بحيث كان معروفا لدى اهل الشام عامة ، والعلماء منهم بخاصة . ثم يذكره باهتمام مؤرخان كبيران مثل ابى شامه وابن اصل .. اللذين عنيا بتاريخ الدولة الايوبية بالذات في مصر والشام .. فلاشك انه كان كبيرا .

إن ولي الله سيدى « محمد القبارى » .. عاش فى بستانه ، بعيدا عن الناس بقدر ما يستطيع ، يتأمل ، يفلسف امور دنياه ، ويفلسف سلوك الناس لم يتزوج ، لكنه عاش وحيدا ..

إنقطع فى بستانه فى حى الرمل ، شرقى الاسكندرية .. ولما كثر الناس فى تلك المنطقة التى كانت مهجورة ، وزاد عدد الاجانب فيها .. ترك هذا البستان الموروث وذهب الى جهة غربى المدينة ، الى قصر اثرى متهدم .. أودير .. يرجح انه كان من آثار العصر البطلمى .. حيث أنشأ من حوله بستانا ، هو الذى تسمى باسم « غيط القبارى » . وقد عاش فى هذا البستان الغربى عمره ، عاملا كادحا ، يكسب قوته من عرقه . ولا يستغل جهد أحد .

لكن كيف ولماذا كانت نقلة « القبارى » من أرضه الموروثة ، من بستان الاجداد الى بستان جديد ، قام هو بزرع كل عود اخضر فيه بنفسه وجهده .. رغم ما كان يعانيه من بعض الآلام فى المفاصل التى لحقت به إيدانا بالشيخوخة ؟

هجر الامام « القبارى » ، بستان الرمل او غيط الرمل هربا من مناظر الفتنة ، الى مكان بعيد عن الشبهة . وكانت هجرته للبستان الشرقى عام ٦٢٧ الهجرى . فى هذا

الوقت كانت العلاقات قد بدأت تتوثق بين ميناء « الاسكندرية » وميناء « جنوة » ، فى « البندقية » ، وبدأ الافرنج يتوافدون على « الاسكندرية » للتجارة ، وللمقام بها . هنا ، كما يقول سيدى « القبارى » : « وزنت الاحوال بميزان الاعتبار . فوجدتها لاتصح الا بالعزلة » ومن الجدير بالذكر ، أن عدد الافرنج فى المدينة ، كما يقول « كما يقول « المقرئى » ، قد تجاوز ثلاثة آلاف نسمة .

لقد ترفع الامام « القبارى » عن الدنيا ليجاهد هو نفسه أولا بالعكوف على العبادة الخالصة لله رب العالمين .. وليجاهد الآخرين ماوسعه جهد المجاهدة .. فى البستان الجديد ، حاول ان يعيش حياة ، ليس فيها من الشك شئ .. أو هو حاول ان يعيش حياة اليقين فى كل شئ ان صح هذا التعبير .. ونقول أيضا كان سيدى « القبارى » شديد الشك فى كل شئ قد يشوبه ، أو يحتمل أن يشوبه شبهة حرام ، أو لمسة حرام مما يغضب الله جل جلاله . وهكذا عاش هذا الامام ، فى تلك البقعة الوحيدة المقفرة المنعزلة عن الناس . « مع الاختلاف فى الاوقات وترادف السنوات ، وهو مصون .. الى ان لقي الله محروسا بعين عنايته .. » .. والكلام « لابن المنير » .

لقد كان « القبارى » يخاف الحرام في كل شيء ، وبنى فلسفته ، على اصول اقتنع هو بها ، فكان يقول : « قليل العبادة مع القوت الحلال انفع للعبد من كثير العبادة مع القوت الحرام ، وطلب الحلال هو الجهاد » .

وهكذا يظل « القبارى » حتى آخر شهقة في حياته يجاهد من أجل الحلال .. وفى هذا الصدد يحكى عن سيدى « القبارى » انه كان يحصد الشعير يوما في بستانه ، والوقت نهار والشمس ساطعة . فأخذ يحصد صفا ، ويترك آخر بلا حصاد . وحينما سئل عن سبب ذلك ، قال : ان ظلال نخيل الجار ممتدة في هذا الوقت ، فانا اتحرى الا استظل بظله ، فلذا تحول الظل من هذه المواضع ، رجعت فحصدتها .. اى ان ظلال نخيل جاره كانت تقع على بعض الشعير .. فخاف ان يحصده ويستغل ظل نخيل جاره الذى لم يستأذنه قبل .

ويعلق مؤلف كتاب « القبارى » ، زاهد الاسكندرية ، على ذلك بقوله : ان القبارى في ذلك اتبع الشرع بحرفية ، وقد ذكر أن سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه ، قال للرسول صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله : ادع الله ان يجعلنى مستجاب الدعوة » فقال النبى عليه الصلاة والسلام : « يا سعد اطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة » ، والذى نفس محمد بيده ، ان العبد ليقذف باللقمة الحرام الى جوفه ، مايقبل منه عمل اربعين يوما ، وايماء عبد نبت لحمه من سحت ، فالنار اولى به ،

وحول الظلال والاستغلال ايضا .. يقال ان سيدى « القبارى » . بلغ من حرصه في البحث عن الحلال ، والبعد عن الحرام .. انه كان اذا ذهب لصلاة الجمعة يتخير مكانه في صحن المسجد مما يلى السقف ، ابتعادا عن ظل هذا السقف .. فلربما بنى هذا المسجد بأيد لم تتحرز من حرام . ولقد سمع أحدهم في جامع « الدوانيقى » « العطارين » يتحدث في الناس عن الورع وهو تحت سقف الجامع ، فقال معلقا : اما يستحى ، يتكلم في الورع ، وهو بجامع الدوانيقى تحت السقف ، ١٩

بل ان سيدى « القبارى » - رحمه الله - كان اذا ما السماء أمطرت في الاسكندرية وهو سائر في الطريق .. يسرع بقدر الامكان ، خوفا في شبهة الحرام اذا ظل بسقيفة غيره ، دون ان يسمح له بذلك .

ويقول « ابو شامه » ، مدلا على صدق « القبارى » مع نفسه ومع الناس « بلغنى انه كان إذا رأى ثمرة ساقطة فيه - اى في بستانه - تحت اشجاره ، ولا

يشاهد سقوطها من شجره ، يتورع من أكلها ، خوفا من أن تكون من شجرة غيره ، قد حملها طائر ، فسقطت منه في غيطه .

والواقع ، فإن السب المباشر - من بين أسباب ذكرناها - في هجرة بستان الرمل ، أن « القبارى » حين رأى الناس يبيعون الاعناب لغير المسلمين ، الذين بدأوا يصنعون منها الخمر .. قرر البدء بنفسه هو . فكما هجر بستان الرمل ، قطع عروق العنب من البستان قبل هجرته . وقد كان « القبارى » يزرع العنب في بستانه ليأكله ، لا لبيعه . وقال « القبارى » في ذلك : « وعقدت على الأناشيه زرجونا ، فوجدت الراحة بعده ، وعوضنى الله عن تلك الثمار بالشعير والفول »

ويقولون أن « القبارى » كذلك سخط ، وهو في غيط الرمل على سلطان مصر حين قام بتطهير خليج الاسكندرية ، لأنه سخر الناس فيه . وأنه قال في ذلك الوقت مهددا « أن اعسفوا الناس - أى سخرهم .. في عمله مرة أخرى تركت لهم مصر . فما لي فيها سوى هذه القطرة من الماء ، فلا أقل من أن تكون نظيفة بعض النظافة » . وكان خليج الاسكندرية قد جرى تطهيره عام ٦٤٦ هجرية ، في عهد الملك « الصالح نجم الدين أيوب » ، كما يقول الدكتور « على إبراهيم حسن » في كتابه « مصر في العصور الوسطى » . ولذلك فإن « القبارى » أصر في هذه السنة على عدم تدوير الساقية في بستان الرمل ، وذهب إلى بستانه في الغرب - المباح - وحفر بئرا يشرب منها ويرى منها زرع .. لأنه كما يقول : « أوتر الوحدة في الحياة وبعد الممات » .. « طلب الحلال جهاد » .

ولذلك فقد كان « القبارى » إذا خرج للخليج ومعه دابته يتخرج من الصيد والشرب ، ومن سقى دابته .. ويعمد إلى مكان ليس فيه للخليج جسر مبنى ، حتى لا يكون قد سخر الناس في بنائه .

على أن « القبارى » من حرصه على البحث عن الحلال .. أنه عندما كان يخرج لبعض شأنه شاريا أو بائعا في سوق المدينة ومعه دابته ، يلتف حوله الناس بدافع حب الاستطلاع ليروه ويسمعوه .. لأن صيته كان قد ذاع في المدينة . فكان « القبارى » يبتسم لهم ، ويرجوهم بأدب أن يتفرقوا ، ويقول لهم : « أخشى من انشغالي بحضوركم أن أغلط في حساب أو أخل بشرط لا ألقى فيه بالي » .

حتى بالنسبة للطير فقد كان الإمام « القبارى » يتعامل معه شرعا وحلالا . فكما كان « القبارى » يتصدق على الناس ، كان أيضا يتصدق على الطير . ويقال إنه كان

على بعض حدود بستانه نخلة عالية ، لم تمتد يده الى ثمارها قط . وانما ترك ثمارها للطير ، يأكل منها كما يشاء .. لأنه ، من وجهة نظر الإمام « القبارى » .. « كما إباح الله للطير أموال الناس ، إباح للناس دمه » .

ولم يكن « القبارى » يأكل الطير مسموطا ، وانما كان ينتف ريشه نتفا ، لأن السمط يجمد الدم في لحم الطير ، فلا يزول منه إذا طبخه .

ويحكى أن « القبارى » ظل يأكل الفول أربعين سنة ، وكانت الناس تطلبه منه على سبيل البركة ، فيعطيه من مائيسر .. فكانوا يضعونه في أمتعتهم وكانوا ينسجون حول حبات الفول نواذر وقصصا وروايات عجيبة .. وقد كان من النادر أن يخلو صندوق تاجر من حبات الفول .. لكن « القبارى » حين وجد الناس يسيئون الفهم .. ترك الفول وزراعته ، وصار يزرع الشعير ويقتات منه .

إن « القبارى » في الحقيقة ، كان يقول : « المباشرة يقين ، والاستنابة ظن واليقين أحب إلى من الظن » .. وكانت هذه هى جوهر فلسفة هذا الولي الزاهد العابد .. في البحث عن كل ماهو حلال .

عاش الامام « القبارى » ، فاقد حواسه الثلاث .. الشم ، والسمع ، والتذوق .. لكنه رغم ذلك عاش سلطانا في الزهد ..

يقول عنه تلميذه « ابن المنير » ، الذي صاحبه عشرين عاما :

« عاش صابرا لأمر الله ، راضيا بقدره . وكان رحمه الله قد جمل عنه الشم ، فلا يشم طيبا ولا رديئا . وبهذا ، والله أعلم ، استعان على شطف العيش . وكان يكتم هذا من نفسه ، وما أظهره لى قط . ولكن فهمته من قرائن أحواله . وأخبرنى بعض من باطنه في الخدمة . فكانت الطعوم اذا حملت اليه ، وحملت عنه لا يقرن بينها .. ولهذا كان يقسم بالله أنه لا يأكل بشهوة منذ زمن طويل ، ولا يأكل الا سدا للحلة - أى الحاجة - لاغير » .

ولم تكن « القبارى » مائدة للطعام .. كان يأكل من قصعة ، ويجد الرضا اذا ما اكل الطعام الخفيف الذى لا إسراف فيه ولاترف ، حتى لقد كان يتبسط مع تلميذه

« ابن المنير » ويقول له : « اكلت الباردة لونا غريبا » . فيسأله التلميذ عن هذا اللون من الطعام ، فيقول : « صببت في القصعة من الابريق ماء قراحا ووضعت فيه الكسر ، وماكان هذا اللون الا الطف من الالوان البلدية وانقى » .

ويقول « ابن المنير » عن أستاذه : « كان يحضر مجالس العلم على ثقل سمعه ، فاذا انقضى الدرس ، سأل من اقترابه أن يعيد له بصوت عال كلام المدرس » .

لكن « القبارى » كان رغم ذلك قوى الحفظ ، قوى الذاكرة ، لماحا . كما كان قوى البنية في شبابه ، خفيف الحركة .. شجاعا لا يخاف ولا يجبن ، وكان يقول : « انا إذا اخذت مطرقة ولقيت ثلاثين رجلا لا أبالي بهم » ، كما كان « للقبارى » سيف يحسن الضرب به ، وقد هجم عليه مرة بعض الاعراب في بستانه . وشرعوا الرماح في وجهه ، فصرخ فيهم صرخة قذفت في قلوبهم الرعب . وكانوا مائة .. ثم قال فيهم : « اما تستحون من الله .. » .. هنا دب الذعر في قلوبهم .. وقالوا : « هذا يكون غيط رجل صالح » .. وعادوا .

وعن شبابه أيضا يحكون أن الامام « القبارى » كان خفيف الحركة في تسلق النخيل الباسقة ، حتى لقد قيل - وهى مبالغة بالطبع - انه كان وهو في أعلاها يلقي الطبق فيه البلح ، ويسبقه الى الأرض . كما كان يخلص « كرانيف » النخل من أعلاه بيده ، دون منجل . كما كان يحمل القفف وهى مملوءة ويرفعها بإحدى يديه على ظهر دابته العالية .. وكان يعجز أربعة رجال عن رفعها .

ويرون انه قام باداء فريضة الحج مرة واحدة في حياته وهو شاب .. وقد جرى له حادث حكاه لتلميذه بقوله : « .. فكنت في آخر الركب ، وخرج العرب على الركب يخطفوه ، وتعلقوا بأواخره ، فجئنا الى عقبة تبلدت الناقة عن هبوطها ، فأدركنى بدوى راكب ومعه سيف مصلت . فهوى الى وضربنى ، فصادت ضربه ساقى ، فكان لها طنين . وكانت تلك الضربة سببا في نجاتى . لان الناقة لما أحست بصوت الحديد . نهضت فزجت بنفسها من العقبة ، ففات العربى أن يضربنى ثانية ، فوقع لى عند حكاية بعضهم في الحكاية المشهورة : نجيناك من التلف بالتلف » .

وهنا يعلق « ابن المنير » قائلا : « .. وعلى الجملة فكان حل الرجل صحيحا . وقدمه راسخة وعزمه ثابتا ، فكان إذا شرع في خير داوم عليه ، وأعين . والعون هو الأصل » .

وكان « القبارى » قبل حلول وقت الصلاة يتأهب لها بكل جوارحه ، وآلة الميقات في يده ، يتحدث مع من يكون في حضرته أو يمارس عمله في البستان وذهنه حاضر . حتى إذا أيقن من حلول الصلاة إنقبض عن كل من حوله وترك كل شيء ، وأقبل على مقدمات الصلاة ، كأنه في حالة من الوجد والهيام ، وقد راقبه « ابن المنير » في هذه الأحوال ، وسأله عن ذلك ، فقال الامام القبارى :

« أراقب نفسى اذا توضأت حذر أن يتفق حدث أو لمس ولا القى اليه بالا وأراقب العدو « ابليس » فان العبد اذا تاهب للعبادة ، تاهب العدو للفساد ، .. !



كان « القبارى » رحمه الله ، حريصا على التدقيق في القول والعمل ، والتحري في التمييز بين الحلال والحرام .. والتحرز في معاملة الناس . وكما كان حرصه على دينه .. كان حرصه أيضا على أن يعمل بنفسه . ويأكل من كسب يده ..

وكان يعتبر السعى في كسب العيش جهادا يعينه على العبادة ، ويغنيه عن خلق الله والحاجة اليهم .. وإلا فبطن الأرض خير له من ظهرها اذا احتاج الى احد : « لا اذم دنيا تعين على الدين .. الموت ولا الحاجة اليهم » . وكان يرى أن الإيمان الحق ، والمؤمن الحق هو الذى تكون يده مبسوطة الى فوق .. ويكون كريما مع الآخرين .. ولذلك فان أغلب ثمار بستانه كان يتصدق بها على الناس ..

ومع حبه للعزلة .. كان يحب الناس ، وكان الناس يقبلون عليه يلتمسون منه الدعاء ، فيقول لأحدهم : « للطالب ما يحتاج » ويقول للآخر : « ما أشتى لأحد من أمة محمد الا خيرا » . ويقول لثالث : « أود لو كان الناس كلهم على الخير » .. ويقول لغيره : « أحب لكل أحد ما أحب لنفسى » .. ويقول للبعض : « الدعاء النافع هو الذى يوافق القضاء ، فان خالف القضاء نسخ الدعاء ، وثبت القضاء » ..

ولقد توقف عن الدعاء للناس حين ظن هو أن الناس يتصورون أن دعاءه كانسان فيه شيء .. ولذلك فانه بعدها امتنع عن الدعاء ، لانه رغب في أن يعتمد الناس على أعمالهم يتقربون بها وحدها إلى الله ..

وقد سألته تلميذه « ابن المنير » عن سبب توقفه عن الدعاء للناس .. فقال : « يطلب مني أحدهم الدعاء بلسانه ، ويظهر لي من قرائن أحواله أن قلبه غافل ، وأن نفسه قاسية على نفسه ، فكيف أرق أنا عليه ، أو كيف أدعوه له بلا رقة ؟ »

وجاءه أحد أصحاب « الملك الكامل » ، وهو في أبهة وبذخ ، وقد ربط فرسه بباب « القبارى » ، وكانت تبدو عليه أمارات الرفاهية . وقد سألته أن يدعوه له ، فدعا الله على العادة . ثم سأل الرجل الشيخ « القبارى » :
- ما للناس يتحدثون بأنك لا تدعو لأحد معين ، ويعتقدون ذلك ؟
فقال الشيخ القبارى :

- أحوجتنى لاقامة الحجة عليك : أنست تعلم أن الدعاء هو طلب العبد الضعيف من الرب الرحيم ؟

فقال : بلى

فقال : يطلب العبد الضعيف من مولاه برقة أم بقسوة ؟

فقال : برقة .

فقال : وجدتتها منك ، فبأى لسان أدعو ؟ .. وإن شئت الدعاء باللسان ، فهو البندق الفارغ ، خرج منه ماشئت بلا قلب .

كان « للقبارى » نظرية في العمل والتعامل .. جوهرها الحلال بالطبع .. « للقبارى » فلسفة أخلاقية إنفرد بها ، ولم يسبقه اليها أحد . نعم سبقه الإمام « الطرطوشى » ، الذى توفى قبله بنحو قرن ونصف من الزمان ، وكان مثله زاهدا ، وأمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، وله مواقف المعروفة للناس .. كما كانت له مواقفه إزاء الحكام ، وخصه الله بإجابة الدعاء ، وكتب « سراج الملوك » لارشادهم وتبصيرهم . وربما وقف القبارى على سيرة الامام « الطرطوشى » .. لكن « القبارى » سيظل ، مع ذلك ، أمة وحده .. فقد عاش مثل القديسين . وكان يتخذ من تجاربه في الحياة مصدرا لأفكاره وأعماله ، وكان يقول : « ما فعلت شيئا من ذلك إلا بعد تجربة ووقائع اقتضته » .

وكان « القبارى » لا يستخدم أحدا ، حتى يعجل له أجرته ، بل كان يعطيه من الاجر مايرضيه . وكان يستنكف أن يستأجر عبدا مملوكا فى أى عمل ، خوفا من أن يتناول أجره ، ثم لايعطيه لسيدته .. أو ربما يكون قد عمل عنده دون اذن منه . وكذلك كان لا يستخدم أحدا من البدو . اذ سأل مرة عن مصدر رزقهم فقيل له : من غزو بعضهم بعضا ، واستحلال بعضهم مال بعض .. وكان قد كثر تعدى الأعراب على بستانه ، كما سمع بقطعهم الطريق على الناس وسفكهم الدماء فى وقت استشرت فيه الفوضى .

وكان يتعامل مع تاجر واحد .. لكنه لم يكن يحب التعامل بالسكة ، أى النقود . ويقول عنها : « علم الله اننى لو وجدت من يعاملنى بالقبار ونحوه من الثمار أجعله ثمنا للمثمنون من غير توسط السكة ، لما فعلت إلا ذلك » .. كانت السكة فى رأيه أداة تعامل لا يثق هو بها .

كما كان عند « القبارى » ميزان يزن به الأشياء التى يشتريها .. ثم ترك هو الميزان وجعل البائع هو الذى يزن له .. وكان يقول .. « ان أكون مظلوما خيرا من أن أكون ظالما » .

ولقد قضى « الطاهر بن ابي العز » أربعين سنة فى خدمة « القبارى » .. وكان الشيخ يسميه « الرجل » جريا على عادة أهل الكرم .. كما يذكر ذلك « ابن الخثير » ، لكن « القبارى » طرد خادمه بعد هذه السنوات ، ولم يسمح له بالانخراط فى خدمته ، والسبب أنه قبل مالا من رجل كان مريضا ، ونذر هذا المال لله ان هو شفى . ورغم أنه يطرده من خدمته فهو لم يطرده من رحابه ظل الخادم يعيش عند سور البستان ثلاثين سنة ، يوصله ويعطيه الحطب ليستدفئ فى الشتاء ، ويخصه بالزكاة .

ويحكى أن « القبارى » حين كان يريد أن يشتري سمكا ، كان يتحرى الدقة ويشترط على الصياد البائع الا يكون له شريك ، وان تكون ادوات الصيد ملكا له غير مستأجر لها .. كما ينبغى أن يتوخى ان يكون البائع حسن السرية .. بالاضافة الى ذلك كان من عادة « القبارى » أن يدفع للبائع أكثر من حقه ، بل كان يزيد فى الثمن . وقبل ذلك كان يتحرى دائما ان يكون السمك قد تم اصطياده بعيدا عن الميناء .. بعيدا عن الناس حيث يغتسلون .

وهناك قصص تروى .. عن اهتمام القبارى بالعمل والتقاليد الاسلامية .
فقد قيل ان حشدا كبيرا من الامراء جاؤا يريدون التوبة على يد « القبارى »
فاغلق الطاقة التى كان ينظر منها الى الناس .. وقال : « اخرجوا من غيظطن الناس »
.. فتعجب الامراء : كيف يخرجون من هذه الغيظطن الخربة المهجورة التى لا يسكنها
أحد . لكن « القبارى » افهمهم ان الحق والتحرى ، الا يدخل احد مكان انسان الا
بإذنه ، حتى ولو كان المكان مهجورا .

ولقد ورد ذكر « القبارى » امام أحد الامراء ، فقال : لم لا يبيع الشيخ القبارى
بستانه ، ويتصدق بثمنه على الناس ؟ ..
وبلغ هذا الكلام مسمع الشيخ ، فقال لصاحبه أن يذهب الى الامير ويقول له :
« هذا رايك انت .. ابيع حلالى واحتاج الى حرامك وإلى الوقوف ببابك .. انا
اطلب السلامة وهى راس المال ، اين الوصول الى الفائدة » .. أى كيف يحصل على
ثواب الصدقة ، وهى نافلة يتقرب بها العبد الى ربه عز وجل ؟

وحكى « ابن المنير » فى « مقاماته » عن « القبارى » ، أن الشيخ باع دابته
لرجل .. وعاد هذا الرجل اليه بعد أيام - كما جاء فى السيوطى - يقول له إن دابته
ممتنعة عن الطعام منذ اشتراها منه . فسأله « القبارى » عن عمله ، فقال الرجل :
« رقاص عند الوالى » .. هنا يقول القبارى : « دابتنا لا تاكل الحرام » .. واسترد
« القبارى » دابته ، وأعاد للرجل ثمنها .

وهذه الدابة فى الواقع ، كانت لها حكايات ونوادر .. تناقلها اهل الاسكندرية فى
عصر « القبارى » .. ثم تحولت هذه الحكايات والنوادر الى ما يشبه الاساطير بعد
عصره .. ومن هذه النوادر ان الدابة كانت تتأذب حين يركبها الشيخ ، لكنها كانت
تجمع اذا ما قربها احد غيره . وهى دابة قيل انها كانت مثل صاحبها ، مشهورة
بالصبر على شرب ماء البحر ، والصبر على العطش .

كان « القبارى » عزيزا بعز الايمان ، لا يذل نفسه ، ولا يستشعر الذل من
مخلوق .
كما كان عميق التأمل فى خبايا النفوس ، حريصا على التعرف على مقاصد
اصحابها . وكانت نظريته تتجه دائما الى البحث عن الحلال ..

وكان الرجل يفلسف السلوك ، ويتعمق في إتيانه او تركه على اساس سند شرعى وكما يقول محمد محمود زيتون : ان القبارى كان يجمع بين الحقيقة والشرعية ، كان فيلسوفا له فلسفته الميتافيزيقية والنفسية والاخلاقية والاجتماعية .. الى جانب انه كان زاهدا عابدا معتدلا ، قانعا . فالشهوة في رأيه شقوة ، ولذلك فهو يقول : « اتعجب من الخلق ، لا يبلغون شهوة ابدا .. لأن شهواتهم في الكثير والمليح .. ولا كثير الا وهناك اكثر منه ، ولا مليح الا وهناك املح منه . فالشهوة بعد هذا شقوة » .. كما كان « القبارى » يقول : « الدنيا دار اسباب ، ومن زعم أن التوكل ترك السبب بالكلية فهو غلط »

ومن اجل هذا .. كانت الناس تثق في ورعه .. ومع ذلك كان ينكر عليهم ذلك ، لأنه كما يقول : « الورع الذى يشيرون اليه ، أن يترك الانسان الحلال المحض .. واين الحلال .. ؟ علم الله اننى ما وجدته كما اشتهى قط . الحلال المحض هو الذى لا تراه ولا تسمع به » .. ومن هنا فان « القبارى » ، كما يروى تلميذه : « كان شديد الحذر من اين يقع في مظنة إتفاقا . واما العمد فما اراه وقع له ذلك قط »

ويقول « القبارى » : « من ادعى انه معصوم ، فقد ادعى بما ليس له في الغيب مكتوب » .. والدنيا : كما يرى ، « عرض زائل ، وطلابها صغار العقول قليلو الإدراك »

ورجل هذا فكره ، كانت لديه فراسة بالنسبة للناس .. فهو بمجرد أن ينظر اليهم يتعرف على ما وراء الوجه : « فالوجه هو القلب الثانى ، قل أن يقوم بالقلب شئ .. الا وظهر على الوجه اثره » .

وكان « القبارى » يتعامل مع الامراء بنفس الميزان الذى يتعامل به مع البسطاء .. لقد كان زائر « القبارى » ، مهما علت مكانته ، يقف على سياج بستانه يطلب الاذن بالدخول ، فيأذن له .. او لا يأذن . وكما يقول « ابن المنير » : وكان الامراء والكبراء اذا دخلوا عنده ارتعدت فرائصهم من قوته وشدته » .

« وللقبارى » صولات وجولات مع سلاطين مصر في عهده .

« الملك » الكامل بن « الملك » العادل ، « ذهب الى القبارى فى بستانه .. » وقد وصف « القبارى » هذه الزيارة بقوله : لما جاء الملك الكامل الى الاسكندرية وخطر له ان يخرج الى عندى ، جاءت له مقدمات من ممالك وحجاب ، وصادفونى أصلى الوقود لعشائى . وكنت حينئذ لا اجيب داخلا على . وكان عندى احد المعتادين المترددين الى من اهل البلدة . فقلت له : ضم اليك ثيابك ، فانك لا تطيق مجالسة هؤلاء . وقلت : أظن الكرامة فى ان يجىء ؟ . قال : ربما . فقلت الكرامة فى ان ينصرف ، لانه ان دخل دخل محبا ، وخرج مبغضا ..

وقد قيل إن الملك « الكامل » جاء وانصرف ، ولم يسمح له « القبارى » بلقائه

ايضا فان « الملك » العادل بن « الملك » الكامل أراد أن يلتقى « بالقبارى » ، ويتلمس بركاته ورضاءه . فبعث الى « القبارى » بألف دينار . لكن « القبارى » رفضها . وقال لمن حملها اليه : « .. رد الدنانير الى صاحبك ، وقل له : لو عرف اصحابها لأشار عليك ان تعيدها اليهم . ولكن هذا فات » كان « القبارى » يرى فى هذه الدنانير أنها جمعت ظلما ، ورفض ان يلقى ربه وفى عنقه أغلال هذه الدنانير سواء أخذها لنفسه أم وزعها على الناس .

والملك « الصالح نجم الدين ايوب » .. له ايضا قصة مع « القبارى » حين اعتمر القبارى وهدد بترك ديار مصر حول : هل من المباح ان يعمر الانسان ارض الموت ، اى البور ، وبعد اصلاحها تعتبر ملكا له ؟

وكانت المسألة خلافية تناقضت فيها آراء الفقهاء وأصحاب المذاهب ، وبلغ ذلك الأمر الملك « الصالح » ، فاهتم به ، وبعث بمن يأذن « للقبارى » بالاقامة كما يشاء فى اى مكان . فلما تلقى « القبارى » كتاب الملك « الصالح » قال : « هذا اذن ، وما استاذنته » .. وبقي فى الاسكندرية .

والملك الرابع .. هو الظاهر « ببيرس » .. وقد زار « القبارى » ، وسمح له الشيخ بالقدوم عليه ، على شريطة أن يتلقاه من أسفل البستان . كما يروى « ابن واصل » فى كتابه « مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب » ولقد قبل « الظاهر ببيرس » شروطى الله ، وقال : « أنا رايح لله تعالى ، فمن اى مكان شاء أن يكلمنى » .. واعتبر « ببيرس » .. الاذن له من « القبارى » كسبا كبيرا .

ولقد حضر « بيبيرس » الى بستان القبارى ، ودار الحديث بين الشيخ وبينه في جو هادى . وقد طلب « القبارى » من السلطان - على سبيل النصيح - ان يعنى بتعمير الثغر وتحسينه . فسر السلطان للطلب ورحب به . وقد خرج من عند « القبارى » ، ليصدر اوامره بترميم الابراج وتعزيز القلاع واصلاح الاسوار . ثم جلس بدار العدل ، وامر بتطهير المدينة من الساقطات من نساء الافرنج .

ويذكر ان الظاهر « بيبيرس » قد زار « القبارى » مرة اخرى في سنة ٦٦٢ هجرية .. لكنه زار قبره فقد مات « القبارى » قبل ان يصل السلطان الى الاسكندرية .

و « للقبارى » ايضا ذكر في سيرة السلطان « قايتباى » .. ونحن نعرف ان هذا السلطان يبعد عصره عن عصر « القبارى » .. لكن السلطان جاء الى « الاسكندرية » وزار قبر الشيخ « القبارى » ، وامر ببناء قلعته المشهورة بقلعة « قايتباى » الموجودة حتى الآن لحماية الاسكندرية . ويقال ان « قايتباى » فعل ذلك بعد قصة سمعها في الحرم النبوى الشريف ، وهو يؤدى فريضة الحج مؤداها ان خدم الحرم قالوا ان رجلا ياتى الى قبر رسول الله ﷺ كل يوم ليختم « البخارى » امام الحضرة النبوية الشريفة .. فأمسكوا بالرجل ، وسألوه عن اسمه وبلده فقال لهم : ابو القاسم القبارى من الاسكندرية !!

هكذا عاش سيدى « القبارى » .. ولى الله .
عاش فلسفة ايجابية تتلخص في الخروج الى المجتمع بحياة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .. حياة خصبة وثرية .. من اجل الحق والخير .

لقد كان القبارى زاهدا ورعا تقيا .. باحثا عن الحلال مطبقا له ما امكن وقبل ان يموت ببومين ، كما يذكر « ابن المنير » سأل بعض من كانوا يعتادون زيارته والتحدث اليه ، وقال لهم وقالوا له :

قال : هل ترون في النخل شيئا اخرج ؟

قالوا : لا

قال : هل ترون في الخرنوب شيئا اخرج ؟

قالوا : لا .

قال : هل ترون في السنبل حبا ؟

قالوا : لا

فقال بينه وبين نفسه :

- رحل الرزق من صاحبه

ومات الشيخ بعدها ، وأخذ زرع بستانه في الذبول .. حتى قال ابن المنير : « ما في بستان الشيخ من نخل وشجر ، لم يثمر حبة واحدة سنة وفاته .. »

وقد ظل ضريح الامام « القبارى » قبلة للمؤمنين .. ووراء الضريح بستان صغير مازالت فيه آثار خضرة .. وأثار الساقية التي رفض ولى الله « القبارى » تدويرها عند تطهير الخليج .



رحل « القبارى » الى الرفيق الاعلى ، وكانت متروكاته شيئا لا يذكر .. لكن الناس تقاطروا على شرائها للتبرك بها ، فكان مائتمنه درهم يباع بألف دينار .. حتى وصلت قيمة مجموع ميراثه عشرين الفا . وقال « ابن كثير » : « ترك من الأثاث بعد موته ما يساوى خمسين درهما فبيع بعشرين الفا »

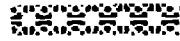


سيدي أبو الحجاج القصري

الضيف القادم من العراق
ليصبح صاحب الأقصرين

❶❶ في النصف الأخير من شهر شعبان يصبح مقام سيدى أبو الحجاج
الاقصرى ملتقى زحف المؤمنين من عشاقه ومريديه . وفي رمضان تضاء الأنوار
وتقللاً فوق صفحة النيل وتزين القباب والمنابر . وتستمر قراءة القرآن بالليل
والنهار ، والمقرئون يتنافسون على ترتيل القرآن في رحاب معبد الاقصر ، والذي
تستقر فوق احد صروحه الشرقية المئذنة الفاطمية الطراز والضريح الذى يضم
جثمان هذا القطب الصوفى وتعلوه قبة جميلة .

عشاق سيدى أبو الحجاج يعدون المآدب في رمضان لكل القادمين . واهم
مايقدمونه اكلة عراقية الاصل . وهى خليط من اللحم الاحمر والبصل والقمح
المدشوش ، يقطع في اشكال مكعبة قبل طهوه . في العراق يسمون هذه الاكلة
« كبيبة » ، وهذا يعنى ان هذه الاكلة وافدة من العراق . واشتهرت بعد ذلك في مصر
كلها .. وربما كانت هى الاكلة المفضلة لسيدى ابي الحجاج الاقصرى ومعاصريه
لكنها ظلت حتى الان ..



هذا القطب الصوفى ، سيدى أبو الحجاج يعرفه العالم كما تعرفه مصر وسبب ذلك أن
السياح الذين يحرصون على زيارة معبد الاقصر تجذبهم تلك المئذنة الفاطمية الطراز .
وسط الهياكل والصروح والتماثيل والمسلة السامقة . يتسألون عنها وعن أسباب وجودها
داخل اثار الفراغة ، وتأتى الاجابة عن حياة سيدى أبو الحجاج . وعن أن هذه المنطقة كما
تضم آثارا فرعونية . فهى تضم آثارا اسلامية . وفي نهاية قدس اقداس معبد الاقصر هناك
بقايا كنيسة مسيحية .

ولايعرف أحد كيف جرى بناء المئذنة الفاطمية التى كانت تضم قبة ومسجدا - جرى
تجديدهما فيما بعد - فوق الصروح والهياكل الفرعونية ، وربما كانت هذه الارض رديما
ورملا فوق الآثار ، فتم البناء عليها ، ثم برزت بعد ذلك . لكن ايا كان الامر . فإن البقعة
التى يقوم عليها المسجد والضريح والمئذنة التى تتابعت على مصر عبر القرون . من عقيدة
أمون رب الارباب الفراغة الى آلهة اليونان والرومان الى المسيحية . ثم الاسلام .

أهل الاقصر يعتبرون هذا القطب الصوفى حارسا لمدينتهم ببركاته . وسيدى أبو الحجاج لم يُؤثّر قطب من أقطاب التصوف في ناس مثلما أثر هوفيهم . إن حياتهم تدور حوله . وطموحاتهم تتنامى ببركاته في إحياء ذكرى مولده ، وعيونهم مشدودة إليه . ويصبح أبو الحجاج دائما مركز احتفالاتهم بالمواسم الدينية وهى كثيرة خاصة في رمضان .

ويبدو أن طبيعة الاقصر المدينة ذات الطبيعة الخاصة ، بما فيها من معبد الاقصر ومعابد الكرنك .. والتي كانت تسمى باسم الاقصرين .. أو القصيرين في الماضي .. فإن طبيعة الاحتفال بمولد أبو الحجاج مازالت تحمل حتى الان ملامح مما كان يدور في معبد الاقصر إحتفالا بالإله الفرعونى آمون . الذى كان يزور زوجته الإلهة موت ، وابنه الإله خنسوف إحتفال مهيب . وكان تمثال آمون الذهب يحمله الكهنة في مركب مقدس من الذهب مرصع بالجواهر وفيه التمثال ولذلك فأهل الاقصر لا يزالون حتى الان في احتفالات مولد أبى الحجاج يحملون مركبا صغيرا ويطوفون به ، مثلما كان كهنة آمون يطوفون بالمركب من معبد الاقصر الى الكرنك عبر طريق الكباش .

وسيدى أبو الحجاج ينتمى نسبه الى سيدى الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم . وهو من مواليد أوائل القرن السادس الهجرى « ١٢ الميلادى » ، في بغداد أيام الخليفة العباسى المقتضى بامر الله . وكما يقول محمد عبده الحجاجى في كتابه عن « أبو الحجاج الاقصرى » ، فهو عراقى الاصل . نشأ وتربى في أسرة ميسورة الحال ، وعلى قدر كبير من الورع والتقوى ، وقد توفى والده وهو لم يزل صبيا ، فاحترف صناعة الغزل والحياكة ، وبرز فيها . وكان حانونته في بغداد ملتقى الكثيرين .

+ لكن هذه الحرفة لم تشغله عن طلب العلم حيث بغداد في وقته كانت تغص بعدد كبير من العلماء وأقطاب التصوف . منهم عبد القادر الجيلانى ، وأبو النجيب السهروردى ، الذى كان يمثل التصوف العمل في بغداد . ثم سيدى أحمد الرفاعى .. وكان فيها أيضا ما يعرف باسم « المدرسة النظامية » وهى أول مدرسة مذهبية في تاريخ الاسلام ، التى أنشأها نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ملك شاه في القرن الخامس الهجرى . وقد التحق أبو الحجاج بهذه المدرسة ، وزامل فيها السهروردى ، كما داوم على حضور حلقات الدروس التى كان يتحدث فيها شيوخ التصوف .

وبعد أن تزود أبو الحجاج بقدر كبير من المعرفة .. ترك مهنة الغزل ليتفرغ الى الدعوة إلى الله في بغداد . وأقبل عليه كثير من المريدين العراقيين ، لأنه امتاز بجانب غزارة علمه وورعه وتقواه .. بقدرة فائقة على الاقتناع .

ثم ترك بغداد الى الحجاز لتأدية فريضة الحج ، وعاد اليها ، لا يستقر فيها بل ليركها إلى الابد ، لأن الحياة فيها لم تعد تطلق ، إذ تعرضت بغداد لفتن وثورات نتيجة لضعف الخليفة وميله الى الظلم والعسف ، وقد ساعده على ترك بغداد وفاة والده ثم زوجته .

ترك أبو الحجاج بغداد ولما يبلغ سن الأربعين ، ومعه اولاده الاربعة وبعض ذوى قرباه واصحابه ، إلى مكة المكرمة . وهناك توفي احد ابنائه فدفنه في مقبرة « المعلا » ، وفي مكة تعرف بواحد من ساداتها هو الشيخ عبد المنعم الاشقر ، الذي زوج بناته من اولاد ابي الحجاج ، وعرض على ابي الحجاج ان يزوجه فرفض ذلك عكوفاً واخلاصاً واحتراماً للذكرى أم اولاده ووفاء لها .

ولقد قضى أبو الحجاج في مكة المكرمة عاملاً وتعرف على بعض اشرافها ممن ينتمون إليه بصلة القرابة . وهم الذين رغبوه في السفر الى مصر . لما تماز به من الهدوء والسكينة .. وأكدوا له أن مصر تمتلئ بعدد كبير من متصوفة العالم الاسلامي ، خاصة المغاربة منهم ، وشجعوه على الاستقرار فيها ، حيث مجال الدعوة فيها الى الله متسع .



خرج أبو الحجاج من أم القرى متجها الى قبر الرسول ﷺ في المدينة المنورة ، وبعدما رحل الى مصر ، ومعه بعض عرب جهينة وعسير ، واستقر اول ما استقر في شرق الدلتا ، خاصة مدينة المنصورة ، ويقول أبو الحجاج واصفا رحلته الى مصر : « ونزلت شرقي الدلتا ، ومكثت بها أياما ، تعرف بنا اولاد عمنا ، ومنحونا أطيانا زراعية ، ظنا منهم اننا سنمكث عندهم ، فلما أراد الله سبحانه وتعالى سفرنا ، توجهت انا واولادى الثلاثة الى الجنوب ، الى أن وصلت الى اسيوط ، ومنها الى جرجا ، ثم الى قوص ، وهى مدينة كبيرة ، ثم رحلنا منها حتى وصلنا الى بلدة الاقصرين ، وكان ذلك في اواخر ايام حكم صلاح الدين الأيوبي » .

وفي الأقصر أو « الأقصرين » كما كانت تسمى في الماضي ذاع صيت القطب الورع
أبى الحجاج .. بعدما التقى بالراهبة تريزا ودخلت الاسلام ، وقد سمع بأخباره
سلطان مصر العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ابن صلاح الدين الأيوبي ، وكان
هذا السلطان ، كما وصفه ابن خلكان في « وفيات الاعيان » : « مباركا كثير الخير ،
واسع الكرم ، محسنا الى الناس ، معتقدا في ارباب الصلاح والتقوى » بعث اليه
السلطان رسولا يستدعيه الى قلعة صلاح الدين ، وأسند اليه وظيفة كبيرة ومهمة هي
« مشارف الديوان للحسبة والخراج » لكن ابا الحجاج لم يستمر طويلا في هذه
الوظيفة الكبيرة ، فتركها معلنا انه وهب نفسه للخالق سبحانه ، متصوفا لرسالة
الاسلام ، داعيا الى الله وقال شعرا :

ولقدر رأيت جماعة في عصر
قد كنت أحسبهم على سنن السلف
فبلوتهم وخبرتهم وعرفتهم
فوجدت خلقا مابجملتهم خلف
فنفضت يدي من تعاهد وصلهم
من رام وصلهم فقد رام التلف
ورأيت أسباب السلامة كلها
في رميهم خلفا لظهر ثم كف

بل إن ابا الحجاج ، إتجه من القاهرة الى الإسكندرية ، حيث التقى بالزهاد
والمتصوفة والتي كانت تعج بهم ، وعلى رأسهم الشيخ محمد عبدالرزاق الجزولي ،
الذي يرجع اليه الفضل في نشر اول طريقة صوفية عرفت في الاسكندرية ، قبل
الطريقتين الرفاعية والشاذلية ، أمضى ابو الحجاج فترة بجوار الجزولي حتى صار من
أخلص تلاميذه ، ثم عاد الى الأقصر ، مرورا ببلدة قوص التي كانت عاصمة الاقليم
الذي تقع فيه الأقصر ، والتقى بسيدى عبدالرحيم القناني ، وصار أبو الحجاج من
انجب تلاميذه .

وفي أخريات أيامه حيث عاش عمرا ناهز التسعين عاما ، ظل أبو الحجاج في الأقصر
منقطعا للعبادة والوعظ والدعوة الى دين الله ، وتكاثر حوله المريدون يوما بعد يوم فقد
كان مجلسه يغص بالعلماء والوجهاء وعلية القوم يطلبون علمه وبركاته .

ولقد لقي أبو الحجاج ربه عام ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) في عصر الصالح نجم الدين
أيوب ، ودفن في ضريحه فوق معبد الأقصر من الناحية الشرقية ، حيث اقيم المسجد

الذى حمل اسمه ، والذي أعيد بناؤه في القرن الماضي ، وجرى ترميمه بعد ذلك أيام عباس حلمي الثاني ، في أوائل هذا القرن .



أبو الحجاج هو قطب الصعايدة في الأقصر ، كما أن سيدي عبدالرحيم القنائي هو قطب صعايدة قنا ..

وكان لأبي الحجاج منهج خاص في التربية والسلوك الحسن ، كما كان له رأى ووجهة نظر في المريد الذي يدخل في الطريقة ، وقد ذكر الامام الشعراني وجهة نظر ابي الحجاج في كتابه « الانوار القدسية » يقول : إن المريد الصادق حقا في طلب الطريق إلى الله ، يجب الا يرجع عن غايته ، مهما كلفه ذلك من ثمن ، فمن خطب نفيسا ، فقد خاطر بنفيس « بمعنى ان الاصرار على الوصول الى الشيء همة من الهمم العالية .

ويرى أبو الحجاج أن محبة الشيخ واحترامه والتأدب معه ، صفات يجب أن يتحلى بها المريد ، وتنشد قائلا :

لو قيل مت ، مت سمعا وطاعة .
وقلت لداعي الموت أهلا ومرحبا .

ويرى أبو الحجاج أن الامل مادام يعيش مع الانسان ، فإنه حياة . ولا بد من الوصول إلى المبتغى والمرجو . وكما يقول أبو جعفر الأديوي : لقد تخرج على يدي الحجاج سادات وأكابر ، نطقت بمنابهم السنة الاقلام وافواه المحابر .

ولقد كانت طريقة الشيخ الجزولي هي التي نشرها أبو الحجاج في صعيد مصر ، وفي الأقصر بالذات ، بل أصبح أبو الحجاج اماما لهذه الطريقة في الصعيد ، كما يقول المستشرق برمنجهام في كتابه بعنوان « الطرق الصوفية » والدليل على ذلك ان هذه الطريقة ظلت تؤتى ثمارها حتى أوائل القرن الثاني عشر الهجرى « ١٨ م » ومن يقرأ مرتضى الزبيدي صاحب « تاج العروس » عند الحديث عن مادة « قصر » يجد الكثير حول فكر وطريقة سيدي ابي الحجاج ، ويقول الزبيدي ايضا عن الاقصر : « ومنها الولي المشهور أبو الحجاج يوسف بن عبدالرحيم بن عربي القرشي المهدي نزيل الاقصرين ودفينها » .

وقد التقى الزبيدي مع حفيد ابي الحجاج الشيخ المعتر شمس الدين ابو علي محمد بن محمد بن يوسف ، ولبس منه خرقة « زى » الطريقة ، التى كانت تعرف باسم « المدينية » والتى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، والتى وضع أساسها فى المغرب أبو مدين شعيب التلمسانى ، وجاء تلميذه الشيخ الجزولى لينشرها فى مصر ، وأخذها عنه أبو الحجاج .

وبجانب نشر تعاليم « الطريقة المدينية » فى صعيد مصر ، نشر أيضا أبو الحجاج منهجه الخاص فى تربية تلاميذه ومريديه ، فالمرید الصادق عنده هو الذى لا يرجع عن طريق ولو قاسى الاهیال فى سبيله وكل مرید وجد فى نفسه عدم الصدق فى طلب الطريق ، فعليه الخروج من بین الفقراء . فإن لم يخرج كان إثم فتور عزيتمهم عليه لنظرهم اليه وسرقة الطباع السيئة منه ، ومن شأن المرید الشاب ألا يزاحم الرجال فى الجلوس ، بل عليه ان يجلس خلف الناس الى ان يلتحق .



والمهم ان سيدى ابا الحجاج درس الفقه على مذهب الامام الشافعى ، وتفقه على يدى الشيخ السهروردي .. وهذا مابرز فيما تركه سيدى أبو الحجاج من اقوال فى علوم الطريق ، ومن آراء فى التربية والسلوك . وأبو الحجاج كما برز فى مدينة قنا ، برز أيضا فى قوص . وكانت شخصيته تتألق فى قوص ، خاصة فى مواسم الحج ، حيث كان العلماء والفقهاء وعلية القوم يمرون بهذه المدينة فى طريقهم الى أداء الفريضة . وكان أبو الحجاج ينتهز هذا الموسم ليجتمع بالعلماء ويتبادل الحديث معهم فى الكثير من القضايا التى تتعلق بالدين الاسلامى . وقد التقى فى أحد مواسم الحج بسُلطان العاشقين عمر بن الفارض ، وكان معاصرا له .

وصل أبو الحجاج إلى مرتبة القطبانية فى مصر فى زمنه ، ويقول الشيخ على يونس الصمات أحد تلاميذ سيدى ابي الحسن الشاذلى : حينما كنا متوجهين الى الديار المصرية من تونس رأيت مناما يقول لى يايونس : كان اباالحجاج بالديار المصرية قطب الزمان ، فمات البارحة ، وأخلفه الله تعالى بأبى الحسن الشاذلى ، وجئت إليه حتى أبايعه بيعة القطبانية .

وقد أنجب سيدى أبو الحجاج اربعة أبناء وهم أحمد النجم الشهير بالحجاج ، وعبد المعطى ، وعبد العاطى ، وغطا الله الذى توفى ودفن بالمعلا فى مكة المكرمة وللشيخ احفاد كثيرون فى كثير من البلدان مثل قوص والعسيرات وجرجا وقمن العروس ، والقاهرة ، والمرج ، والمنصورة .

والواقع ان العصر الذى عاش فيه ابو الحجاج فى صعيد مصر ، كان بيئة خصبة ثقافيا وروحيا ، خاصة فى قنا ، وفى عصر قطبها الكبير سيدى عبدالرحيم القنائى ، ولقد تأثر ابو الحجاج بأستاذه سيدى عبدالرحيم القنائى ، كما تأثر ايضا وزامل الشيخ ابو الحسن الصباغ خليفة سيدى عبدالرحيم .. وهؤلاء جميعا كانوا من تلامذة الشيخ ابى مدين التلمسانى فى الاسكندرية ، والذى كان يردد دائما النصيحة الغالية التى تقول : خاف الله فى السر والعلن ، وتعلق بالكتاب والسنة فى القول والعمل ، وسلم امرك لله فى الامور الخطيرة والحقيرة ، والجا إليه فى الافراح والاتراح . كما تأثر سيدى ابو الحجاج بطريقة الشيخ الجزولى التى تشجع على الاعمال اليدوية والحرف ، ولايتوقفون فى المأكل والمشرب على خشن ، ويقدمون أكل اللذيذ من الطعام على غيره ، إلا أن يكون مضرا بالمزاج ، ومن آدابهم صلاة ركعتين نفلا بعد الأكل ، والاشتغال بقراءة سورة « الملك » وذكر الله فى الملا .

ومن جماع هذا كله كانت طريقة سيدى ابى الحجاج ، وكانت طريقة اهل الصعيد بعده والتى حافظوا عليها حتى الآن .. والى أن يرث الله الارض ومن عليها ..

الملاحظ كما تقول دكتورة سعاد ماهر فى كتابها « مساجد مصر » أن البقعة التى تضم ضريح ومسجد أبى الحجاج كانت طوال عصورها التاريخية أماكن عبادة ففيها كما ذكرنا معبد آمون الفرعونى كما ضمت بقايا كنيسة مسيحية ، ثم علا ذلك مسجد أبى الحجاج .. وكانت وزارة الاوقاف قد أقامت مسجداً جديداً غير بعيد من المسجد التاريخى لنقل رفات هذا القطب الصوفى اليه لكن أحدا لم يجرؤ على ذلك .

وأقدم أجزاء مسجد سيدى أبى الحجاج هو المئذنة التى تعود الى منتصف القرن السابع الهجرى « ١٣ الميلادى » وهو تاريخ وفاة أبى الحجاج ، وهى من ثلاثة طوابق الاولى عبارة عن مكعبين أما الثانى والثالث فهما على شكل اسطوانة تستدق كلما اتجهنا الى أعلى وتنتهى المئذنة بطاقية مقببة وبالدور الثالث مجموعة من الفتحات مصفوفة فى صفين كما تصفها د . سعاد ماهر وكما يقول عالم الاسلاميات البريطانى البروفيسور كريزويل الذى كان رئيس قسم العمارة الاسلامية وصاحب المؤلفات عن حى الجمالية بالقاهرة ، فإن قنطرة هذه المنارة مبنية بالطوب الآجر وسلمها من الداخل عرضه متر الا ربعا وهو سلم حلزونى وتتكون كل دورة من أربع او خمس درجات وحافة كل سلمة مصنوعة من الخشب الذى يمتاز بقوته ومتانته ويشبه طراز مآذن الصعيد فى العصر الفاطمى مثل مئذنتى جامع قوص ومسجد إسنا كما تشبه مئذنة مسجد الجيوشى بالقاهرة على ربوة جبل المقطم .

ولقد ذكر كتاب « الطالع السعيد » لمؤلفه أبو جعفر الادفوى ، أن الذى بنى الضريح هو الشيخ صالح أحمد النجم وهو ابن سيدى أبى الحجاج وقد اختلف

الأثريون على من بنى المئذنة الفاطمية وفي أى عصر من عصور الخلفاء والفاطميين فالبروفيسور كريزويل يؤكد أنها بنيت في عصر بدر الجمالي الوزير الفاطمي وقال أنها فاطمية الطراز لكن البعض يرى أنها وإن كانت فاطمية الطراز فهي لم تبني في عصر بدر الجمالي .

على أية حال فإن مسجد سيدى أبى الحجاج يمثل الوجدانية في هذا المكان على مدى سبعة قرون والمعروف أن الذين كتبوا عن أبى الحجاج كثيرون بدءا من ابن بطوطة حيث ذكره حينما زار الأقصر كما أن دائرة المعارف الإسلامية أفردت له سطورا تحت مادة الأقصر كما ترك هذا الشيخ الجليل منظومة شعرية رائعة في علم التوحيد وتقع في ١٣٣٣ بيتا تنقسم الى ٩٩ بابا يدافع بها عن الايمان على مذهب الاشاعرة كذلك كانت له كرامات كثيرة وقال عنه الادفوى والاستيوطى والشعرانى إنه صاحب الكرامات والمكاشفات المعروفة حتى ليقول المئادى على لسان واحد من معاصريه إنه على مايتأتى من الكرامات والمكاشفات قديرى بإذن الله .



لعل من أهم ما وصف به أبو الحجاج من قبل المؤرخين الذين تناولوا سيرته أنه من أبرز شيوخ التصوف في مصر الذين أحسنوا تربية المريدين لذلك وصفوه بالشيخ .. ومفهوم الشيخ في الصوفية هو ذلك الذى يتولى تربية المريدين تربية روحية قويمه تقودهم الى معرفة الحق سبحانه وتعالى .

ولقد أوضح الامام الشعرانى في كتابه « الانوار القدسية » هذا الجانب في شخصية أبى الحجاج قائلا :

إن أبى الحجاج الأقصرى كان له رأى في المريد الصادق وكان يرى أيضا أن للمريد أدبا مع شيخه وأدبا مع المريد أو زميله في الطريق وفي حديثه عن أدب المريد مع شيخه يصر على أن يهب المريد نفسه لشيخه يتصرف فيها كما يشاء وليس له الحق في أن يعترض على الشيخ في أى أمر من الأمور بل تجب عليه الطاعة والاحترام والتأدب معه

وقد كان ينهى مريديه في تشدد ملحوظ عن الحقد والحسد والإنكار ويحثهم على التحلى بالاخلاق الحميدة الفاضلة وحمل الناس جميعا على احسن المحامل حتى أنه كما قال الادفوى في « طالعه السعيد » طالما استنقذ من أسر الجهل من كل موثوقا في حباله وانجد من ضل عن طريق الهدى فهداه بعد ضلاله ووجد عاثر المعاصى قد احاط به جيش الذنوب فأخذ بيده وأقاله ووضع في يد التقوى عقاله ..

فهرست

الموضوع	صفحة
● مقدمة	٥
● سيدى أحمد الرفاعى	٩
● سيدى أبوالحسن الشاذلى	٣٧
● سيدى أبوالعباس المرسى	٦٣
● البوصيرى	٨٧
● سيد القنائى	١١٩
● الامام الطرطوشى	١٣٩
● سيدى محمد القبارى	١٥٩
● سيدى أبوالحجاج الاقصرى	١٨١

●●●

الآراء والأفكار الواردة في هذا المطبوع مسئولية المؤلف

كافة حقوق النشر والنقل والطبع والترجمة محفوظة للمناشر

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

رقم الايداع ١٩٩٤/٢٧٥١

الترقيم الدولي ٠ - ٠٣٤ - ٢٢٩ - ٩٧٧ - I.S.B.N.